«اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأول»

الدكتور
عبد الهادي عبد النبي علي أبو علي
أستاذ الأدب والنقد المساعد
في كلية اللغة العربية بالمنصورة
جامعة الأزهر

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩٠م



«إهــداء»

إلى الذى ضحى من أجلى بكل مُرْتَخَصٍ وغالٍ
إلى الذى أفنى عمره فى تربيتى وتعليمى دون كلل
إلى أبى الحبيب وروحه الطاهرة ...
أقدم دموع عمر بأكمله ...
أسفحها حزناً وحسرةً عليه ...
وأقدمها إجلالاً وتعظيماً بين يديه ..
وأعبر بها عن حبى وشوقى إليه .

دكتور
عبد الهادى عبد النبى على أبو على

«المقدمة»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وأفضل خلق الله أجمعين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وكل من آمن به وابتع هداه وعمل بشرعه ودعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد

فهذا بحث موضوعه : "إتجاهات الرثاء وتطوره فى العصر العباسى الأول" وهو موضوع يتناول شعر الرثاء واتجاهاته وخصائصه فى هذا العصر ويكشف كيف سار هذا اللون من الشعر فى هذه الفترة ؟ وهل كان الرثاء فى العصر العباسى الأول شأنه شأن الرثاء فى العصور السابقة ؟ أم أنه أضاف الجديد واتجه إلى وجهات أخرى لم يتجه إليها شعر الرثاء قبل العصر العباسى ؟

وقد دفعنى إلى البحث فى هذا الموضوع عوامل كثيرة، منها : أننى لم أجد دراسة مستقلة متخصصة وافية فى هذا الموضوع بالرغم من عظم مادته وكثرة شعرائه وتشعب اتجاهاته واستحداث الجديد فيه .

صحيح وجد من تعرض للحديث عن الرثاء فى العصر العباسى الأول إلا أنه كان حديثاً عاماً ضمن حديثهم عن الأدب العباسى بوجه عام ولم يستحوذ حديثهم عن الرثاء إلا على صفات معدودة مختصرة لا تتلاءم ومكانة الموضوع وأهميته ولاتشفى غلة القارىء نحو هذا الموضوع المهم من موضوعات الشعر فى ذلك العصر وذلك مثل: الدكتور : طه حسين ، والدكتور : شوقى ضيف، والدكتور : عز الدين إسماعيل والدكتور : مصطفى هدارة ، والدكتور: الشكعة، وغيرهم من الباحثين الذى بحثوا فى الأدب العباسى .

ومنها أننى وجدت تطوراً عظيماً قد حدث فى شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول وهو تطور واسع النطاق شمل هذا اللون من الشعر شكلاً ومضموناً وتجلت فيه مظاهر تجديدية واضحة لم تكن موجودة من قبل وهو ماكشف عنه البحث كشفاً مفصلاً وواضحاً .

ومنها : أننى وجدت أن معظم عيون قصائد الرثاء فى الأدب العربى قد وجدت فى العصر العباسى وأن شعراء العصر قد برعوا فى هذا اللون براعة فائقة تلفت النظر وتدعو إلى البحث فى هذا اللون الشعرى فى ذلك العصر .

وقد سرت فى بحثى هذا على خطة واضحة تكمل بعضها بعضاً حيث صدرته بالحديث عن تعريف الرثاء وألوانه، ثم تحدثت بعد ذلك عن شعر الرثاء قبل العصر العباسى حديثاً مجملاً فتعرضت بعد ذلك عن شعر الرثاء قبل العصر العباسى حديثاً مجملاً. فتعرضت لشعر الرثاء فى العصر الجاهلى وألوانه وخصائصه وشعر الرثاء فى عصر صدر الإسلام وألوانه واتجاهاته. وشعر الرثاء فى العصر الأموى واتجاهاته وخصائصه وذلك فى حديث مجمل غير مخل كى أوضح الفرق بين شعر الرثاء فى العصر العباسى وبين العصور السابقة ولأظهر ماامتاز به شعر الرثاء العباسى وماستجده شعراء العصر فيه سواء كان ذلك من حيث الشكل أوالمضمون .

ثم تحدثت بعد ذلك عن الرثاء فى العصر العباسى واتجاهاته مفصلاً القول فى كل اتجاه فى فصل خاص متعرضاً لكثير من النماذج الشعرية التى تعرضت لها بالشرح والنقد والتحليل موضحاً مظاهر القديم والجديد فيها، ثم تحدثت بعد ذلك عن الخصائص الفنية لشعر الرثاء فى العصر العباسى الأول سواء كانت خصائص موضوعية أو أسلوبية مبرزاً السمات القديمة والجديدة فى كل منها معتمداً على النماذج الشعرية اعتماداً واضحاً لتوضيح هذه الخصائص وإبرازها .

ومصادر البحث كثيرة ومتعددة منها القديم ومنها الجديد، فمن المصادر القديمة: «دواوين شعراء العصر العباسى وكتاب "الأغانى" لأبى الفرج الأصفهانى، وتاريخ الطبرى، "وطبقات الشعراء" لابن المعتز، "والأوراق" للصولى، وغيرها من المراجع القديمة التى أمدتنى بمادة وفيرة ومهمة فى هذا البحث .

ومن المصادر الحديثة : كتب الدكتور : شوقى ضيف : "العصر الجاهلى" و "العصر الإسلامى" و "العصر العباسى الأول" والعصر العباسى الثانى" والفن ومذاهبه فى الشعر العربى" وغيرها وكتاب "فى الشعر العباسى الرؤية والفن" للدكتور عز الدين اسماعيل، و "الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير" للدكتور محمد رجب البيومى، وكتاب "إتجاهات الشعر فى القرن الثانى الهجرى" للدكتور هدارة ، وغيرها من المصادر والكتب التى أشرت إليها فى هوامش البحث .

وبعد ... فإننى أتقدم ببحثى المتواضع الذى بذلت فيه أقصى جهد لى محاولاً أن أقدم شيئاً راجياً المولى العلى القدير أن يكون قد وفقنى فى ذلك، وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب" .

دكتـــور

عبد الهادى عبد النبى على أبو على

أستاذ الأدب والنقد المساعد

المنصورة : فى ...

١٧ يوليو١٩٨٩ م

«الفصل الأول»

أ - الرثاء وألوانه

ب - الرثاء في العصر الجاهلي



الرثاء وألوانه :

إن الموت هو الحقيقة الثابتة فى هذا الوجود ولاينكره إنسان سواء كان مؤمنا أو كافراً فمهما بلغ الإنسان فى كفره وعناده فلا يستطيع أن ينكر الموت ولايستطيع أن ينكر أنه سيصير إلى هذه النهاية المحتومة من انقضاء أجله وفناء عمره لأنه يرى بعينيه أن الكل من بنى الإنسان وغير بنى الإنسان يفنى وينقضى وأن السابقين من أبناء جنسه قد أفناهم الموت وهدم بنيانهم وأصبحوا وكأنهم لم يوجدوا من قبل .

ومن الطبيعى أن يحزن الإنسان لفقد عزيز لديه ويسكب الدمع مدراراً عليه هذا العزيز الذى كان بجواره يراه ويتحدث معه ويروح ويغدو أمامه ثم فجأة يتوارى بين أحجار وحجب وأستار فلا يراه بعد ذلك. وهذا العزيز إما أن يكون إبنا أو أباً أو زوجاً أو أماً أو زوجة أو صديقاً أو غير ذلك من أحبابه وأعزائه حينئذ يروح يبكى عليه ويعبر عن حزنه وألمه لفراقه فى كلماته وتعبيراته فى فن رثائى حزين تجاه هذا الفقيد العزيز .

والموت كما نرى يسوى بين سائر الخلق ويعدل بين جميع البشر حيث يعم الغنى والفقير والقوى والضعيف والعظيم والحقير والصغير والكبير فكل الخلق مصيرهم الموت وكل مولود ولد ليموت كما يقول الشاعر :

ألا كل مولود فللموت يولد ... ولست أرى حياً لشىء يخلد

تجرد من الدنيا فإنك إنما ... سقطت إلى الدنيا وأنت مجرد (١)

إذن لم تدم الحياة لإنسان ولم يكتب البقاء لبشر و "كل نفس ذائقة الموت" (٢) بل لايبقى أى شىء على وجه الأرض "كل من

---

(١) ص ديوان أبى العتاهية .

(٢) سورة آل عمران الآية رقم ٢٦ .

عليها فان"[١] بل كل شيء هالك إلا وجه الله تبارك وتعالى فقد قال جل شأنه : "ولاتدع مع الله إلهاً آخر لاإله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون"[٢] "وعلى الجملة فالموت هو المصيبة التى لاتدفع، والرزية التى لاترد بكثرة الجموع ولاتمنع، والحادثة التى لاتنصرف بالفداء وإن حل مقداره، والنازلة التى لاتتأخر عن وقتها بالدعاء وإن عظمت فى غيرها آثاره وهو أحد الأربعة التى فرغ منها وصرفت وجوه المطامع عنها وقد قالت الحكماء : أعظم المصائب كلها انقطاع الرجاء وقالوا : كل شيء يبدو صغيراً ثم يعظم إلا المصيبة فإنها تبدو عظيمة ثم تصغر وقالوا: لايكون البكاء إلا من فضل"[٣]، من هنا كان فن الرثاء، رثاء الأحباب الذين فقدوا ولن يردوا، وندب الأعزاء الذين ذهبوا ولن يرجعوا. فالرثاء والموت متلازمان فلا رثاء دون موت، حتى هؤلاء الذين يرثون شبابهم فإنهم يرثون شباباً فنى وحتى هؤلاء الذين يرثون أنفسهم فإنهم يرثونها لأنهم أحسوا الموت وقرب الأجل والمصير المحتوم الذى لامفر منه ولامهرب .

معنى الرثاء :

تدور مادة الرثاء فى اللغة حول الحزن والبكاء ويقال رثى فلان فلاناً يرثيه رثياً ومرثية إذا بكاه بعد موته، ورثيت الميت رثياً ورثاءً ومرثاةً ومرثيةً ورثيته : مدحته بعد الموت وبكيته، ورثوت الميت أيضاً إذا بكيته وعددت محاسنه، وامرأة رثائة ورثاية : كثيرة الرثاء لبعلها أو لغيره ممن يكرم عندها وتنوح نياحة، وفى الحديث : أنـه

---

(١) سورة الرحمن الآية رقم : ٢٦ .

(٢) سورة القصص آية ٨٨ .

(٣) ص١٦٥ جـ٥ نهاية الأرب للنويرى، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب.

نهى عن الترثى وهو أن يندب الميت فيقال : وافلاناه، ويقال : مايرثى فلان لى أى مايتوجع ولايبالى[١] :

فنرى أن مادة "رثاء" تدور حول معنى الحزن والبكاء والندب والتوجع. وورد الفعل رثا مهموزاً فيقال "رثأ" وغير مهموز فيقال : "رثا" ومعناهما واحد فرثأت الرجل رثأ : مدحته بعد موته، فالهمز لغة فى المادة والمعنى واحد لايختلف، قال الجوهرى : وأصله غير مهموز"[٢]. والرثاء فى الاصطلاح : يعنى التفجع على الميت والتلهف عليه وتعداد مناقبة واستعظام المصيبة فيه"[٣] .

وقد عرفه الدكتور شوقى ضيف بأنه : بكاء يتعمق فى القدم منذ وجد الإنسان ووجد أمامه هذا المصير المحزن : مصير الموت والفناء الذى لابد أن يصير إليه فيصبح أثراً بعد عين وكأن لم يكن شيئاً مذكوراً"[٤] .

ويرى قدامة بن جعفر أنه لافرق بين الرثاء والمدح إلا فى اللفظ فقط حيث يقول : "إنه ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر فى اللفظ مايدل على أنه لهالك مثل : "كان" و "تولى" و "قضى نحبه" وماأشبه ذلك وهذا ليس يزيد فى المعنى ولاينقص منه، لأن تأبين الميت إنما هو بمثل ماكان يمدح به فى حياته، وقد يفعل فى التأبين بشىء ينفصل به لفظه عن لفظ المدح بغير "كان" وماجرى مجراها وهو أن يكون الحى وصف مثلاً بالجود فلا يقال "كان جواداً" ولكن بأن يقال : "ذهب الجود" أو فمن للجود بعده " ومثل : "تولى الجود"

---

(١) ينظر لسان العرب لابن منظور ط دار المعرف ص١٥٨٢ ومابعدها ج٣ .
(٢) ص ١٥٨٠ جـ٣ نفس المصدر .
(٣) ص ٣٨١ جـ٢ جواهر الأدب، لأحمد الهاشمى، الطبعة الثانية عشرة ١٣٣٨ هـ .
(٤) ص ٥ الرثاء "فنون الأدب العربى، الطبعة الثالثة . دار المعارف .

وماأشبه هذه الأشياء"[١] نرى قدامة بن جعفر لايفرق بين الرثاء والمدح إلا فى اللفظ فقط ونحن نتفق معه فى ذلك إذا كان الرثاء تأبيناً أو تعزية ولكننا لانتفق معه إذا كان الرثاء ندباً ونواحاً فبين الرثاء الندبى والمدح فرق كبير، ففى الأول يبكى الشاعر المرثى ويتوجع لفقده ويتفجع لموته ويعلن حزنه وألمه بخلاف المدح الذى يعبر الشاعر فيه عن الفرحة والبهجة ويصور الممدوح تصويراً بعيداً كل البعد فى اللفظ والمعنى عن الندب والبكاء والحزن والنواح .

وذهب ابن رشيق القيروانى مذهب قدامة حيث قال : وليس بين الرثاء والمدح فرق إلا أنه يخلط بالرثاء شيىء يدل على أن المقصود به ميت مثل : "كان" أو "عدمنا به كيت وكيت" ومايشاكل هذا ليعلم أنه ميت"[٢] .

ولكننى لاأتفق معه ومع صاحبه على إطلاق هذا القول على الرثاء بألوانه الثلاثة : الندب والتأبين والتعزية، فإن صح هذه القول على رثاء التأبين والتعزية فإنه لايتفق ورثاء الندب والبكاء كما قدمت .

ويكاد يتفق الرثاء بمعناه اللغوى فى المفهوم مع الرثاء بمعناه الاصطلاحى حيث الإشارة إلى معانى الوجع والحزن والألم إلى جانب ماتشير إليه المعانى الأخر من تعداد المحاسن والمناقب والتأسى والتعزية .

وينقسم الرثاء إلى ألوان ثلاثة : ندب وتأبين وتعزية .

---

(١) ص ١٠٠ نقد الشعر، لقدامة بن جعفر، تحقيق / كمال مصطفى، الطبعة الثالثة . مكتبة الخانجى بالقاهرة .

(٢) ص ١٤٧ جـ٢ العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده . تحقيق / محمد محى الدين عبد الحميد . دار الجيل ببيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢م.

أما الندب : فهو النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة التى تصدع القلوب القاسية وتذيب العيون الجامدة إذ يولول النائحون والباكون ويصيحون ويعولون مسرفين فى النحيب والنشيج وسكب الدموع"(١) .

والندب هو أقوى ألوان الرثاء تعبيراً عن الحزن والألم ولايكون غالباً إلا فى فقد عزيز يتحول الشاعر بعد فقده إلى مصاب بضربة قاسية أذ هلت عقله وفقدته لبه ويشعر بلطمة مروعة صوبت إلى قلبه، ويكون هذا غالباً حينما يفقد الشاعر ابنه أو أباه أو أمه أو زوجته أو أخاه أو غيرهم من أهله وأقاربه فيروح يبكهم بكاء "حاراً" بدموع غزار معبراً عن حرقة قلبه وعظيم مصيبته فى هذا العزيز الفقيد .

فالشاعر فى رثاء الندب يئن ويتوجع ويتفجع لفقد عزيز لديه ويبكى بكاءً حاراً بدموع غزار، يبكى ويلحن بكاءه على قيثارة نظمه تلحيناً حزيناً كله آهات وحسرات ووجع وزفرات .

ويتجلى هذا اللون غالباً فى رثاء الأقارب والأهل حينما يعصف بهم الموت أو فى رثاء من يتزلون من الشاعر منزلة الأهل والأقارب كرثاء الشيعة لأئمتهم ونحو ذلك .

أما التأبين : فهو أقرب إلى المدح منه إلى الحزن والبكاء والنواح التآكل فهو يعد ضرباً من التعاطف الإنسانى والتعاون الاجتماعى، حيث يأخذ المؤبن الرائى فى سرد فضائل الميت وتعداد مناقبة وذكر محاسنه وتسجيل فضائله، فالشاعر فيه لايعبر عن حزنه هو وإنما يعبر عن حزن الجماعة ومافقدته فى هذا الفرد المهم من أفرادها(٢)" .

---

(١) ص ١٢ الرثاء . د/ شوقى ضيف (من فنون الأدب العربى) .

(٢) ص ٦ فن الرثاء د / شوقى ضيف .

فالتأبين ليس نواحاً ولابكاءً كالندب بل هو تعداد لفضائل الميت وذكر لمحاسنه فى ظل علاقة اجتماعية وجماعية .

واللون الثالث من ألوان الرثاء : التعزية . وهى تختلف عن الندب والتأبين فلاهى نواح وبكاء ولاهى تعداد فضائل وذكر محاسن ومناقب بل هى تعبير عن حزن لفقد ميت ينفذ الشاعر من حادثة الموت التى هو بصددها إلى التفكير العميق فى حقيقة الموت والفناء وأحياناً ينتهى به التفكير فى حقيقة الموت إلى الغوص وراء معانٍ فلسفية عميقة قد تشتمل الوجود وحقيقة الوجود والعدم والحياة والخلق وماإلى ذلك .

وهكذا تتنوع فن الرثاء إلى أنواع ثلاثة : الندب والتأبين والتعزية.

وشعر الرثاء أشرف أشعار العرب لأنه بمنأى عن النفاق والخداع وغالباً مايصدر عن صدق شعور وعاطفة صادقة بخلاف شعر المدح مثلاً الذى يظهر فيه النفاق والكذب والتملق بوضوح. والرثاء أشرف أشعار العرب قاطبة، فقد قال الأصمعى : قلت لأعرابى : مابال المراثى أشرف أشعاركم ؟ قال : لأنا نقولها وقلوبنا محترقة".

أما سبيل الرثاء فهو كما يقول عنه ابن رشيق القيروانى : "وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام إن كان الميت ملكاً أو رئيساً كبيراً"[1]، إلا أننى أود أن أشير هنا أن هذه الأنواع الثلاثة للرثاء قد تأتى كل منها فى قصيدة مستقلة بعينها وقد يجتمع الندب والتأبين فى قصيدة واحدة وهذا هو ماعليه معظم الرثاء وقد يجتمع الندب والتعزية أو التأبين والتعزية وأحياناً تشتمل القصيدة الواحدة على ألوان الرثاء الثلاثة .

---

(١) ص ١٤٧ العمدة لابن رشيق الجزء الثانى .

«شعر الرثاء في العصر الجاهلي»

يعد الرثاء من أهم الأغراض التى عرفها العرب منذ العصر الجاهلى، حيث كانوا يبكون موتاهم ويندبونهم فضلاً عن أنهم كانوا يقفون على قبورهم يذكرون فضائلهم ويعددون محاسنهم متأملين حقيقة الموت عارفين أنه المصير الذى يصير إليه جميع البشر .

إذن عرف العرب منذ العصر الجاهلى الرثاء بألوانه الثلاثة : الندب حيث كانوا يندبون موتاهم وينوحون عليهم ويذرفون عليهم الدمع خاصة حينما يفقدون أبناءهم وأفلاذ أكبادهم، والتأبين : حيث كانوا يرثون الموتى معددين فضائلهم ومحاسنهم والثناء على خصالهم والإشادة بصفاتهم من الشجاعة والمروءة والوفاء والكرامة وماإلى ذلك، ويغلب هذا اللون فى رثاء الأصدقاء والأهل والأقارب فضلاً عن الأشراف من القوم .

والعزاء : حيث كانوا رثائهم هذا يدعون إلى التخلى بالصبر وتملك النفس فإن الموت كأس يشربه الجميع وهو ليس وقفاً على شخص دون آخر وأن الدنيا دار فناء وخراب لادار بقاء وعمران وليس أمام الإنسان إلا أن يصبر فلا راد للأقدار .

وبم أن الرثاء يتصل اتصالاً وثيقاً بالحماسة فقد أخذ الشعراء العرب فى العصر الجاهلى "يرثون أبطالهم فى قصائد حماسية يريدون بها أن يثيروا قبائلهم لتأخذ بثأرهم[١]" فضلاً عن أنهم كانوا يرثون بجوار أبطالهم الذين يقتلون فى الحروب والغارات يرثون أشرافهم وعظماءهم وإن ماتوا حتف أنوفهم معددين مناقبهم مشيدين بأعمالهم مفتخرين بأعمالهم وصفاتهم على القبائل الأخرى.

---

(١) ص ١٠٩ المفضليات .

وكان من عادة القدماء فى شعر الرثاء : "أن يضربوا الأمثال فى المراثى بالملوك الأعزة والأمم السالفة والوعول الممتنعة فى قلل الجبال والأسود الخادرة فى الغياض وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار والنسور والعقبان والحيات لبأسها وطول أعمارها. وذلك فى أشعارهم كثير موجود لايكاد يخلو منه شعر"(١) .

ومن شعر الرثاء فى العصر الجاهلى قول المهلهل التغلبى يرثى أخاه كليباً ويبكيه فيقول :

أهاج قذاء عينى الإدكار ؟ ... هدوءاً فالدموع لها انهمار
وصار الليل مشتملاً علينا ... كأن الليل ليس له نهار
وبت أراقب الجوزاء حتى ... تقارب من أوائلها انحدار
وأبكى والنجوم مطلعات ... كأن لم تحوها عنى البحار
على من لو نعيت وكان حيا ... لعاد الخيل يحجبها الغبار
دعوتك ياكليب فلم تجبنى ... وكيف يجبنى البلد القفار ؟
أجبنى ياكليب خلاك ذم ... لقد فجعت بفارسها نزار
سقاك الغيث إنك كنت غيثاً ... ويسرا حين يلتمس اليسار
أبت عيناى بعدك أن تكفا ... كأن غضا القتاد لها شفار
وإنك كنت تحلم عن رجال ... وتعفو عنهم ولك اقتدار
وتمنع أن يمسهم لسان ... مخافة من يجير ولايجار
أرى طول الحياة وقد تولى ... كما قد يسلب الشىء المعار
كأنى إذ نعى الناعى كليبا ... تطاير بين جنبى الشرار
فدرت وقد غش بصرى عليه ... كما دارت بشاربها العقار
سألت الحى : أين دفنتموه ؟ ... فقالوا لى : بأقصى الحى دار
فسرت إليه من بلدى حثيثاً ... وطار النوم وامتنع القرار
وحادت ناقتى عن ظل قبر ... ثوى فيه المكارم والفخار
أتغدو ياكليب معى إذا ما ... جبان القوم أنجاه الفرار ؟

خذ العهد الأكيد عليّ عمري | بتركي كل ماحوت الديار
ولست بخالع درعي وسيفي | إلى أن يخلع الليل النهار

المرثية بكاء حار على أخيه الذى قتل وأحزان وآلام لا تنتهى حتى يقتص من قاتليه ونحيب وعويل على فقده لأخيه وهو لايحس للحياة طعماً ولاللنوم راحة وكيف يفكر فى النوم وأخوه مفقود ؟ وكيف يهدأ بالراحة وأخوه قد امتدت عليه يد البغى فأصبح وراء حجب وأستار وتراب وأحجار ؟

إنه يبكى بكاءً شديداً لفقد أخيه هذا الأخ الشجاع الكريم الجواد فارس قبيلته وقومه، هذا الرجل الكريم الحليم ذو العفو عند المقدرة .

فالشاعر يبكى أخاه ويعدد مناقبه ويذكر فضائله ويصور عظم الفجيعة فيه والمصيبة التى لحقته ولحقت قومه بسبب فقده ويخبره أنه سيظل يطلب ثأره وهذا عهد بينه وبينه أنه لن يترك درعه وسيفه حتى يشفى علته وتهدأ النيران ويطفى شررها بأخذ الثأر لأخيه.وكان من عادة الشعراء العرب فى الجاهلية أن يبتدئوا قصائد المدح والفخر والهجاء ونحوها بالنسيب والوقوف على الديار وبكاء الأطلال فقلما قصيدة خلو من ذلك إلا أنهم لم يؤثروا هذا النهج وهذه الطريقة حينما كانوا يرثون كما يقول ابن رشيق : "وليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيباً كما يصنعون ذلك فى المدح والهجاء"(١) .

ومع ذلك نجد بعض النماذج لشعر الرثاء وقد استهلها الشعراء بالغزل والنسيب، مثل قصيدة دريد بن الصمة فى رثاء أخيه حيث يقول :

---

(١) ص ١٥١ جـ٢ العمدة .

أرثّ جديد الحبل من أم معبد ... بعاقبة أم أخلفت كل موعد (١)
وبانت ولم أحمد إليك نوالها ... ولم ترج منّاردة اليوم أوغد
كأن حمول الحى إذ متع الضحى ... بناصية الشحناء عصبة مذود (٢)
أو الأثأب العم المحرم سوقه ... بكابة لم يخبط ولم يتعضد
فقلت لعارض وأصحاب عارض ... ورهط بنى السوداء والقوم شُهدى

ويمضى دريد بن الصمة فى قصيدته الرثائية الطويلة يرثى أخاه عبد الله رثاءاً حاراً مصوراً حبه لأخيه وفقده له ومصوراً مقتله وحزنه عليه معدداً لصفاته الحميدة ومآثره ومناقبه : من شجاعة وقوة وكرم وشدة بأس وقوة عزيمة وصبر عند الشدائد :

فإن يك عبد الله خلى مكانه ... فما كان وقافاً ولاطائش اليد
ولابرماً إما الرياح تناوحت ... برطب العضا والضريع المعضد
وتخرج منه صرة القر جرأة ... وطول السرى درى عضب مهند
كميش الإزار خارج نصف ساقه ... صبور على الضراء طلاع أنجد
قليل تشكيه المصيبات ذاكر ... من اليوم أعقاب الأحاديث فى غد
إذا هبط الأرض الفضاء تزينت ... لرؤيته كالمأتم المتندد (٣)

ويمضى على هذه الشاكلة مصوراً حزنه وجزعه عليه ومعدداً مناقبه وفضائله .

---

(١) رث الحبل : بلى . والاستفهام من باب تجاهل العارف .

(٢) الحمول : جمع حمل وهو مايحمل على الإبل . متع الضحى : بلغ آخر غايته. العصبة : الشجرة تعلق فى شيىء عال فتكون كالخيمة . مذود: إسم جبل .

(٣) ص ٥٤ جـ٤ المنتخب من أدب العرب . شرح / لجنة من الأساتذة/ أحمد الاسكندرى وأحمد أمين وعلى الجارم وعبد العزيز البشرى ود / أحمد ضيف . المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٢ م .

ومن شعر الرثاء فى العصر الجاهلى قول ذى الإصبع العدوانى "وهو شاعر فارس من قدماء الشعراء فى الجاهلية وله غارات كثيرة فى العرب ووقائع مشهورة يقول يرثى قومه "عدوان" حيث وقع بأسهم بينهم فتفانوا :

عذيـر الحـى مـن عـدوا	ن كانـــوا حيـــة الأرض
بغـى بعضهـم بعضـاً	فلـم يبغـوا على بعـض
فقـد صـاروا أحاديـث	برفـع القـول والخفـض
فمنهـم كانت السـادا	ت والموفـون بالقـرض
ومنهـم مـن يجيـز النـا	س بالسنـة والفـرض
ومنهـم حكـم يقضـى	ولا ينقـض ما يقضـى (١)

فالمرثية تعداد لفضائل قوم الشاعر وذكر محاسنهم ومناقبهم فضلاً عن تصوير موتهم، وقد رثاهم الشاعر بغير ذلك كما رثتهم ابنته أمامة بنت ذى الإصبع وكانت شاعرة - حيث ذكرت محاسن قومها وعددت مناقبهم وصورت موتهم وحزنها نحوهم(٢) .

والنابغة الذبيانى يرثى النعمان بن الحارث بقصيدة يستهلها بالغزل على خلاف المألوف عند شعراء العصر الجاهلى ثم يتخلص منه إلى الرثاء فيقول :(٣)

فـلا تبعـدن إن المنيـة موعـد	وكـل امرىء يوماً به الحال زائل
فما كان بين الخير لو جاء سالماً	أبـو حجـر إلا ليـال قلائـل
فإن تحى لا أملل حياتى وإن تمت	فما فى حياة بعد موتك طائـل

---

(١) ص ٣٥٣ جـ١ القسم الأول تجريد الأغانى لابن واصل الحموى / تحقيق / د طه حسن وإبراهيم الأبيارى مطبعة مصر عام ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م.

(٢) ينظر ص ٣٦٣ المصدر السابق .

(٣) ص ١١٥ - ١٢٢ ديوان النابغة الذبيانى تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم طبع دار المعارف، الطبعة الثانية .

فآب مصلوه بعين جلية ... وغودر بالجولان حزم ونائل
سقى الغيث قبراً بين بصرى وجاسم ... بغيث من الوسمى قطر ووابل
ولازال ريحان ومسك وعنبر ... على منتهاه ديمة ثم هاطل
وينبت حوذانا وعوفاً منوراً ... سأتبعه من خير ماقال قائل
بكى حارث الجولان من فقد ربه ... وحوران منه موحش متضائل
قعوداً له غسان يرجون أوبه ... وترك ورهط الأعجمين وكابل

يرثى النابغة النعمان بن الحارث رثاءً تقليدياً ليس فيه توهج عاطفة ولاتفجع لمحزون فقد حبيبه، بل الأبيات من الرثاء الرسمى الذى لابد لقائله أن يقوله فى زعيم أو عظيم .

ونراه فى الأبيات يدعو له بعدم الهلاك مع أنه هلك على عادة الشعراء وهو كلام كثر استعمالهم له حتى أصبح مثلاً. وقد وضح ذلك مالك بن الريب فى قوله :

يقولون :لاتبعدْوهم يدفنوننى ... وأين مكان البعد إلا مكانيا[١]

ثم يستطرد النابغة فيقول إنه لايستجاب لدعائه لأن المنية أنفذت حكمها ولاراد لها وإنها ستطول كل إنسان، ثم يتعرض الشاعر لحياته التى كانت مع المرثى حيث كانت كلها أنسى وبهجة، ثم أخذ يصور دفنه والصلاة عليه ويدعو لقبره بالسقيا وأن الريحان والمسك والعنبر يعطرون قبره مع كل سحابة ممطرة، كما ينبت على قبره الحوذان والعوف ثم أخذ يصور حزن قومه الغساسنة عليه وأنهم محزونون لايصدقون أن النعمان فاتهم وتركهم إلى الأبد ويشاركهم حزنهم أقوام آخرون كالترك والفرس والأفغان وكثير من بنى العجم لأن المصاب جلل عظيم فهو ملك عظيم محبب إلى الجميع .

---

(١) ص ١٣٧ ذيل الأمالى .

ويقول امرؤا القيس حين بلغه أن بنى أسد قتلت أباه : [(١)].

والله لايذهب شيخى باطلاً .

حتى أبير مالكاً وكاهلاً [(٢)]

القاتلين الملك الملاحلا [(٣)]

خير معد حسباً ونائلا

يالهف هند إذ خطئن كاهلاً [(٤)]

نحن جلبنا القرح القوافلا [(٥)]

يحملننا والأسل النواهلا [(٦)]

مستفرمات بالحصى جوافلا [(٧)]

تستثغر الأواخر الأوائلا [(٨)]

نرى امرؤ القيس فى رثائه لأبيه لايتوجع ولايتفجع ولايندب ولايبكى وكأن الأنفة والكبرياء لاتسمحان له بذلك وكيف يبكى ويتفجع لمقتل أبيه وعند قومه من القوة والبأس مايستطيع أن يأخذ الثأر ويقتص لأبيه ؟

---

(١) ص ١٣٤ - ١٣٥ ديوان امرؤ القيس. تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم طبع دار المعارف الطبعة الرابعة .

(٢) أبير : أهلك . ومالك وكاهل : من بنى أسد .

(٣) الحلاحل : السيد الشريف . ويقصد أباه .

(٤) هند : أخته .

(٥) القرح القوافلا : الخيل المسنة الضامرة .

(٦) الأسل : الرماح الرقاق . النواهلا : العطاش .

(٧) مستفرمات : أى تغرم . الجوافل : السراع .

(٨) تستثغر : أى يتلو أواخر الخيل أوائلها .

وهو فى رثائه أيضاً يعدد بعض فضائل أبيه فهو السيد الشريف فى قومه وهو خير معد حسبا ونسباً .

وامرؤ القيس قليل الرثاء فى شعره وكأنه عاش حياته للهو والعبث لاغير فليس له فى الرثاء باع طويل، وكما رثى أباه رثى قومه(١) ورثى الحارث بن حبيب السلمى(٢) .

ومن شعر الرثاء فى العصر الجاهلى قول عنترة بن شداد العبسى يرثى الملك زهير بن جذيمة العبسى بقصيدته التى يقول فيها: (٣)

خسف البدر حين كان تماماً	وخفى نوره فعاد ظلاماً
ودرارى النجوم غارت وغابت	وضياء الآفاق صار قتاما
حين قالوا زهيراً ولى قتيلا	خيم الحزن عندنا وأقاما
قد سقاه الزمان كأس حمام	وكذاك الزمان يسقى الحماما

ويمضى عنترة فى رثائه للملك زهير يصور عظم المصيبة التى حلت بفقده ويصور المأساة تصويراً يمتزج بالحزن والأسى لفقد هذا الملك العظيم، ثم يدعو عينيه أن تجودا بالدمع لفقده مطالباً بأخذ الثأر من قتلته وأنه سيظل شاهراً سيفه حتى يقتص من الجناة فيقول:

قسما بالذى أمات وأحيا	وتولى الأرواح والأجساما
لارفعت الحسام فى الحرب حتى	أترك القوم فى الفيافى عظاما
يابنى عامر ستلقون برقا	من حسامى يجرى الدماء سجاما
وتضج النساء من خفية السبى	وتبكى على الصغار اليتامى

---

(١) ص ٢٠٠ ديوانه .

(٢) ص ٣٤٧ ديوانه .

(٣) ص ١٣٧ ديوان عنتره . طبعه دار الكتب العلمية ببيروت ، الطبعة الأولى عام ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

فالمرثية ليست بكاءً خالصاً بل هى بكاء مشوب بالحماسة وإظهار القوة والفخر بها .

وكما رثى عنترة الملك زهير رثى أيضاً تماضر زوجة الملك زهير وبكاها وصور قتلتها تصويراً يمتزج بالحزن والأسى ودعا لقبرها بالسقيا واتجه إلى الطبيعة التى شاركته حزنه وبكاءه وألقت بظلها على القبر تنسج من أكفانها حللا والربيع يكسو ربوع القبر بأنواره ويسرى النسيم فيعطر أرجاءه ثم يصور المصيبة التى حلت على القوم لفقدها فهى الكريمة العزيزة ثم يدعو القوم للنهوض بأخذ الثأر لها(١) .

وإذا كان شعراء العصر الجاهلى قد عرفوا فن الرثاء بألوانه الثلاثة وإذا كانوا قد رثوا فى أشعارهم الأهل والأحباب والأصدقاء وسادة القوم فإنهم أيضاً عرفوا رثاء النفس، حيث يأخذ الشاعر فى رثاء نفسه ويتصور أنه مات وفارق الحياة ويتصور مايفعله أهله وبنوه به حين موته ويتصور تكفينه ودفنه"(٢) .

وإذا كان الشعراء الجاهليون قد نظموا فن الرثاء دون تمهيد غزلى فى مقدمة القصيدة الرثائية غالباً وإذا كانوا قد مهدوا لبعض قصائد الرثاء بذكر النسيب والغزل أحياناً فإنهم كذلك قد عددوا موضوعات القصيدة الرثائية بأكثر من موضوع بجوار الرثاء حيث نرى القصيدة المشتملة على الرثاء والمديح والفخر والهجاء إلا أن ذلك كان نادراً(٣) .

وهكذا عرف الشعر الجاهلى فن الرثاء بألوانه الثلاثة وجاءت القصيدة غالباً دون تمهيد وأحياناً بتمهيد غزلى ونادراً متعددة

---

(١) ص ٤٩ ديوان عنترة .

(٢) ص ٣٠٠ المفضليات .

(٣) ينظر على سبيل المثال ص ٢٣٧ المفضليات .

الأغراض إلا أنه يلاحظ على شعر الرثاء فى ذلك العصر أنه لم يأخذ حقه من حيث الكم والكثرة مثل بقية الأغراض الشعرية الأخرى كالمدح والفخر والهجاء والغزل ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى تأبى النفس العربية وتعففها عن البكاء والعويل والنحيب والبكاء. وكيف يبكى العربى الجاهلى وقد أحاط نفسه بلباس الأنفة والعزة والكبرياء والشجاعة والفتوة ؟ فضلاً عن هذه الطبيعة الجافية الغليظة والرثاء تمليه رقة الطبع ورقة العاطفة ورهافة الإحساس والشعور .

«الفصل الثاني»

«الرثاء في العصر الإسلامي والأموي»

«شعر الرثاء في العصر الإسلامي»

يختلف شعر الرثاء فى العصر الإسلامى عن مثيله فى العصر الجاهلى اختلافاً واضحاً تبعاً لاختلاف المجتمع والعادات والتقاليد فقد كان العصر الجاهلى عصر العنجهية القبلية والمفاخرة والتباهى بالشجاعة والقوة وتتابع الغارات على القبائل الأخرى فضلاً عن غلظة القلوب وصلابة العقول مما لم يجعل لهذا الفن الشعرى سوقاً رائجة فى هذا العصر الجاهلى حيث لم يؤثر الجاهليون الرثاء لأنهم كانوا يرونه ضعفاً يتناقض مع عاداتهم وتقاليدهم .

فلما جاء الإسلام بمبادئه السمحة التى خاطبت العقول فهدتها وخاطبت القلوب فرققتها والعواطف والمشاعر فأرهفتها وجعلت المسلمين كلهم أخوة يتأثر المسلم بأخيه المسلم فرحاً وحزناً وحاربت العنجهية والعنصرية والطبقية بين أبناء المجتمع الإسلامى فتغيرت تبعاً لذلك تقاليد المجتمع وعاداته وتحول المجتمع الإسلامى تحولاً كبيراً وخطيراً فى شتى مناحى الحياة .

من هنا اختلفت النظرة إلى الرثاء والبكاء والتعبير عن الأحزان والمصائب، فرقت القلوب وأرهفت الأحاسيس ولم يعد الرثاء ضعفاً أو تعبيراً عن الضعف بل أصبح تعبيراً عن الوفاء والحب وقوة الإيمان بل أصبح تعبيراً عن رقة القلوب ولين العاطفة وتعبيراً عن الأحاسيس والمشاعر الصادقة دون خجل أو نظرة عنجهية .

وتبعاً لذلك انطلق شعراء العصر الإسلامى يعبرون عن أحزانهم وآلامهم ومصائبهم حينما يفقدون عزيزاً لديهم سواء كان من أهليهم وأقاربهم أو من أصدقائهم وأصحابهم أو زعيماً دينياً وسياسياً، فنجدهم يرثون الأبناء والآباء والإخوة والأخوات والأزواج والزوجات والأصدقاء والأصحاب فضلاً عن شعر الرثاء العظيم الذى رثوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاءه الراشدين ورثاء

شهداء الغزوات والسرايا والمعارك التى دارت بين المسلمين والكافرين .

وقد تأثر شعر الرثاء فى العصر الإسلامى من حيث الشكل والمضمون بمبادىء الإسلام وعقائده فأحل الشعراء فى مراثيهم ماأحله الإسلام وأباحه ونزعوا منه ماحرمه الإسلام وانتزعه وبدأت معانى الرثاء - والشعر بوجه عام - تتجه نحو العمق والدقة وترتيب الأفكار واستقصائها متأثرة بمعانى الإسلام وأفكاره، فضلاً عن أنها اصطبغت بالروح الدينية والمعانى الإسلامية، كما أخذ الشعراء يهجرون الألفاظ الغريبة الحوشية واتجهوا بها نحو العذوبة والرقة والسلاسة، وأخذت الأساليب تميل إلى جمال السبك وسماحة الديباجة والاقتباس من القرآن الكريم واستخدام ألفاظه وعباراته والتأثير بأساليبه وتشبيهاته تأثيراً عظيماً .

وتعد الخنساء أشهر من رثت وبكت وعبرت عن أحزانها وآلامها فى شعر كله آهات وأنات وعبرات وزفرات تحوطه العاطفة الصادقة والمشاعر القوية المعبرة وذلك فى رثائها لأبيها عمرو وأخويها معاوية وصخر حيث بكتهم بكاءً مراً وجزعت عليهم جزعاً شديداً وكان أشد حزنها ووجدها على أخيها صخر "لأنه شاطرها هى وزوجها أمواله مراراً"[١]، مما جعل له منزلة خاصة فى قلبها فعاشت حياتها حزينة مكلومة بعد فقدها له وظلت تبكيه قبل الإسلام وبعده حتى فقدت نور عينيها" وقد طال بها العمر حتى شهدت حرب القادسية مع أولادها الأربعة فأوصتهم وصيتها المشهورة وحضتهم على الصبر عند الزحف فقتلوا جميعاً فقالت: الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ولـم تحزن عليهم حزنهـا على أخويهـا[٢] وظلت

---

(١) ص ١٣٩ جـ ٢ جواهر الأدب ، للسيد الهاشمى .

(٢) ص ١٤٠ جـ٢ نفس المصدر .

الخنساء تبكى أخويها وأولادها حتى توفيت عام ٤٦ هـ فى خلافة معاوية(١).

ومن جيد شعر الخنساء فى رثاء أخيها صخر : (٢)

أعينـى جـودا ولا تجمـدا ... ألا تبكيـان لصخـر النـدى
ألا تبكيـان الجـرىء الجميـل ... ألا تبكيـان الفتـى السيـدا
رفيـع العمـاد طويـل النجـا ... د سـاد عشيرتـه أمـردا
إذا القـوم مـدوا بأيديهـم ... إلـى المجـد مـد إليـه يـدا
فنـال الـذى فـوق أيديهـم ... مـن المجـد ثم انتمى مصعـدا
وإن ذكـر المجـد ألفيتـه ... تـأذر بالمجـد ثـم ارتـدى

إن الأبيات تفيض بالمشاعر والأحاسيس الصادقة، مشاعر تنبىء عن قلب حزين مكلوم وتوحى باكتواء قلبها بنيران فقد أخيها، فهى حزينة ملتاعة مهمومة والهة تعلو بالنواح وتفرط وتردد آهاتها بين أبياتها وترتفع بنشيجها وبكائها، كل ذلك بأسلوب واضح وألفاظ سهلة معددة صفات أخيها مثنية عليه .

ومن رثائها لأخيها صخر قولها : (٣)

ماهاج حزنك ؟ أم بالعيـن عـوار ... أم ذرفـت أن خلت من أهلها الـدار
كـأن عينـى لذكراه إذا خطـرت ... فيض يسيل على الخديـن مـدرار
تبكى لصخر هى العبرى وقد ولهت ... ودونـه من جديـد الترب أستـار
تبكى خناس فما تنفـك ماعمـرت ... لها عليـه رنيـن وهـى مقتـار
تبكى خناس على صخر وحق لها ... إذ رابهـا الدهـر إن الدهـر ضـرار
ياصخـر وراد مـاء قـد تنـاذره ... أهل المـوارد مافـى ورده عـار

---

(١) ص ١٤٠ جـ٢ المصدر السابق .

(٢) ص ٨٣ ومابعدها ديوان الخنساء، تحقيق / الدكتور إبراهيم عوضين، الطبعة الأولى عام ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م، طبع مطبعة السعادة .

(٣) ص ٩٧ جـ٤ المنتخب من أدب العرب .

فنحس فى الآبيات لوعة متقدة ونيراناً تفوح بين ثناياها ودموعاً غزيرة تنسكب على الخدود فتحرقها من شدة لهيبها وعاطفة صادقة تمتلىء بمشاعر الأسى والحزن العميق، إن الخنساء ترفع صوتها بالأنين والبكاء لفقد أخيها وتسيل دموعها منحدرة على الخدين على أخيها الذى بعد عنها وكان كل أملها فى الحياة وأصبح فى لحظة بين ترب وخلف أحجار فلم تعد تراه ولايراها، إنه الموت الذى فرق بينهما، ثم تبكيه وتندبه وتتفجع عليه ويحق لها ذلك فقد كان لها العون والنصير فى هذه الحياة، ثم تمضى بعد ذلك معددة صفاته ومناقبه فتقول :

وإن صخراً لكافينا وسيدنا ... وإن صخراً إذا نشتو لنحار
وإن صخراً لمقدام إذا ركبوا ... وإن صخراً إذا جاعوا لعقار
أغر أبلج تأتم الهداة به ... كأنه علم فى رأسه نار
جلد جميل المحيا كامل ورع ... وللحروب غداة الروع مسعار
حمال ألوية هباط أودية ... شهاد أندية للجيش جرار
لايمنع القوم إن سألوه خلعته ... ولايجاوزها الليل مرار

وهكذا أخذت الخنساء تنوح وتبكى أخاها وتؤبنه تأبيناً حاراً معددة مآثره وصفاته بعاطفة حزينة مكلومة يحوطها الصدق ويسكنها الحزن الدفين .

وإذا كانت الخنساء الشاعرة المسلمة قد أخذت تبكى أخاها صخراً وتندبه فإنها أيضاً رثت أباها عمراً وأخاها معاوية(١) كما رثت أبناءها رثاءاً حاراً وكأنها عاشت للبكاء وبالبكاء وقضت أيامها حزينة مكلومة ترثى أهلها بكل الصدق والوفاء ومن بينهم زوجها وابن أخيها كرزا(٢) إلا أن أكثر رثائها كان لأخيها صخر وكان أروع شعر فى فن الرثاء عندها .

---

(١) ينظر على سبيل المثال : ديوان الخنساء ص ٢٧ .
(٢) ينظر على سبيل المثال : ديوان الخنساء ص ١٣٣ و ص ١٢٦ .

فالخنساء كانت أبرع شاعرة فى فن الرثاء ولم تكن امرأة قبلها ولابعدها أشعر منها ومن فضل عليها ليلى الأخيلية فى الشاعرية فلم ينكر أنها أرثى النساء جميعاً .

ومن شعر الرثاء فى العصر الإسلامى قول قتيلة بنت النضر بن الحارث ترثى أخاها وكان النصر مع قريش فى غزوة بدر فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتله فقالت تبكيه :(١)

ياراكباً إن الأثيل مظنة ... من صبح خامسة وأنت موفق(٢)
أبلغ بها ميتاً بأن تحية ... ماإن تزال بها النجائب تخفق
منى إليك وعبرةً مسفوحة ... جادت بواكفها وأخرى تخنق(٣)
هل يسمعنى النضر إن ناديته ... أم كيف يسمع ميت لاينطق
أمحمدٌ ياخير ضنىءٍ كريمة ... فى قومها والفحل فحلٌ معرق(٤)
ماكان ضرك لو مننت ؟ وربما ... من الفتى وهو المغيظ المحنق
أو كنت قابل فدية فلينفقن ... بأعز مايغلو به ماينفق
فالنصر أقرب من أسرت قرابة ... وأحقهم إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق
صبراً يقاد إلى المنية متعباً ... رسف المقيد وهو عان موثق(٥)

---

(١) ص ٨٥ - ٨٦ جـ٤ المنتخب من أدب العرب . و ص١٢ جـ١ تجريد الأغانى .
(٢) الأثيل : موضع به قبر النصر .
(٣) المسفوحة : المعيوبة .
(٤) الضنء : الأصل والولد .
(٥) صبراً : أى حبساً حتى يقتل .

ترثى الشاعرة أخاها وترسل له التحية وتقول : إن الأثيل يظن أن تبلغه فى صبح الليلة الخامسة إذا وقفت ولم يعقك عائق ثم تسفح عليه الدموع التي سالت وأخرى جمدت وأخذ الحزن بالحلق منها فخنقته حزناً على أخيها، ثم أخذت تعدد عليه وتبكى وتنوح وتذكر أسر الرسول له وقتله وتتمنى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لو كان أطلق سراحه .

وهناك كثير من الشعراء المخضرمين رثوا وبكوا وأسالوا الدمع وعبروا عن أحزانهم لفقدهم الأهل والأحباب والأصدقاء والأصحاب، بكوا الأبناء والأخوة والآباء والأزواج والزوجات أمثال : أبى ذؤيب الهزلى الذى رثى أولاده بقصيدة رائعة يقال : إنه تقدم بها على جميع شعراء هذيل[1] ويفتتحها بقوله :[2]

آمن المنون وريبه تتوجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع
قالت أميمة مالجسمك شاحباً ... منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع

وتعد هذه القصيدة من عيون شعر الرثاء فى الأدب العربى حيث بلغ أبو ذؤيب فى رثائه من التعبير عن حزنه ولوعته على فقد أبنائه السبعة الذين اختطفهم الموت بين عشية وأخرى واحداً بعد واحد أمام عينيه مالم يبلغه شاعر مثله، فالقصيدة كلها رثاء وبكاء وتفجع وتوجع وأخران وآلام وآهات وحسرات، فهى صيحة حسرة خرجت من أحشاء الشاعر ونبضة حزن نبض بها قلبه .

وقد صور فيها الشاعر عظم المصيبة التى لحقته بفقد أبنائه عن طبع وسجية "والمراثى إنما تقال على السجية إذا كان الشاعر قد فجع بفقد أهله والفقيد هنا ليس أهله فقط بل سويداء قلبه ولبه وفلذة كبده إنهم أبناؤه وليس هناك من هو أعز وأغلى من الأبناء .

---

(١) ص ٧٨٥ تجريد الأغانى .

(٢) ص ٧٨٥ المصدر السابق .

فضلاً عن شعراء آخرين من المخضرمين الذين لهم باع طويل فى شعر الرثاء أمثال : مالك بن الريب التيمى وأمية بن أبى الصلت وكعب بن مالك وكعب بن زهير وأعشى باهلة وغيرهم من الشعراء المخضرمين الذين راحوا يبكون أبناءهم وإخوانهم وآباءهم وأزواجهم وأهليهم وأصدقائهم .

ومن أروع شعر الرثاء وأعظمه فى العصر الإسلامى رثاء النبى محمد صلى الله عليه وسلم أعظم الخلق وسيد البشر، فقد كان موته صلى الله عليه، مصيبة كبرى ألمت بالمسلمين ونازلة عظمى داهمتهم وهزت مشاعرهم وعقولهم حتى أنكر البعض منهم موته صلى الله عليه وسلم كعمر بن الخطاب وهو من هو دينا ومكانة بين المسلمين حتى جاء أبو بكر الصديق رضى الله عنه وخطب فى جموع المسلمين وأخذ يتلو قول الله تعالى : "ومامحمدٌ إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين"(١) .

عندئذ أفاق المسلمون وخبروا الحقيقة وواجهوا الفجيعة التى لحقت بهم بموته صلى الله عليه وسلم .

ورثاء الرسول صلى الله عليه وسلم ينبىء عن حب عميق يتملك أفئدة الشعراء بل والمسلمين جميعاً وكيف لايكون ذلك كذلك والفقيد أعظم من استولى على قلوب المسلمين وأحب إنسان لديهم، إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أحببناه بكل مشاعرنا وجوار حنا .

ومن رثاء النبى صلى الله عليه وسلم قول ابنته فاطمة الزهراء رضى الله عنها تبكيه وقد جزعت جزعاً شديداً "وعلى شدة الجزع يبنى الرثاء كما يقولون" :(٢)

---

(١) الآية :١٤٤ سورة آل عمران .

(٢) ص ١٥٣ جـ٢ العمدة لابن رشيق .

إغبــر آفــاق السمــاء وكــورت　　شمس النهــار وأظلـم العصـران
فالأرض من بعـد النبـى كئيبــة　　أسفــا عليــه كثيــرة الرجفــان
فليبكــه شـرق البــلاد وغربهــا　　وليبكــه مضــر وكــل يمانــى
وليبكــه الطــود المعظـم جــوه　　والبيــت ذو الأستــار والأركــان
ياخاتــم الرســل المبــارك صنــوه　　صلــى عليــه منــزل القــرآن

إنها مرثية حارة خرجت من قلب حزين مكلوم عبرت عن حزن فاطمة رضى الله عنها على أبيها الرسول العظيم، بل عبرت عن الحزن الذى خيم على الكون : على السماء والأرض والشمس والنهار خيم على الأرض شرقها وغربها، بل حزنت الجبال لفقده وشاركها البيت الحرام، فالكون حزين مكلوم وكيف لايحزن الكون على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أعظم من جاء إليه وشرفه؟

ومن أبرع شعر الرثاء النبوى وأروعه رثاء حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه لنبيه صلى الله عليه وسلم بل يعد شعر الرثاء فى النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته أروع شعر الرثاء عند حسان بن ثابت حيث لم يصل إلينا شعر رثائى قيم فى الجاهلية لحسان .

وشعر الرثاء النبوى عند حسان كله هموم وأحزان وآلام وأشجان وحب وإيمان وحنين وتحنان وتعبير عن عظم المصيبة وهول الفجيعة بموت الرسول صلى الله عليه وسلم وتعداد لفضائل الرسول ومناقبه وتصوير مكانته وفضله وعظمته .

ولم يستطع حسان بن ثابت رثاء النبى صلى الله عليه وسلم يوم موته لغلبة حزنه وهول فجيعته وعظم مصيبته إلا ببيت واحد هو قوله : (١)

---

(١) ص ٣٨٠ ديوان حسان بن ثابت / تحقيق / د سيد حنفى حسنين طبعة : دار المعارف .

ألا دفنتم رسول الله في سفط من الألوة والكافور منضود ؟ (١)

ويذكر حسان بن ثابت في رثائه للنبي صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كل همه وشغله وهو نور عينيه وليس له أحد سواه وإنه لن يحزن على أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولايهمه أحد غيره فيقول في رثائه له : (٢) .

كنت السواد لناظري ... فعمى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت ... فعليك كنت أحاذر

ومن روائع شعر الرثاء المحمدي قول حسان يرثيه صلى الله عليه وسلم : (٣) .

بطيبة رسم للرسول ومعهد ... منير وقد تعفو الرسوم وتهمد
ولاتنمحي الآيات من دار حرمة ... بها منبر الهادي الذي كان يصعد
وواضح آثار وباقي معالم ... وربع له فيه مصلى ومسجد
بها حجرات كان ينزل وسطها ... من الله نور يستضاء ويوقد
معارف لم تطمس على العهد آيها ... أتاها البلى فالآى تجدد
عرفت بها رسم الرسول وعهده ... وقبراً بها وأراه في الترب ملحد
ظللت بها أبكي الرسول فأسعدت ... عيون ومثلاها من الجفن تسعد
مفجعة قد شفها فقد أحمد ... فظللت لآلاء الرسول نعدد
فبوركت ياقبر الرسول وبوركت ... بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
وبورك لحد منك ضمن طيباً ... عليه بناء من صفيح منضدد
تهيل عليه الترب أيد وأعين ... عليه وقد غارت بذلك أسعد
لقد غيبوا حلماً وعلماً ورحمة ... عشية علوه الثرى لايوسّد
وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم ... وقد وهت منهم ظهور وأعضد
يبكون من تبكي السماوات يومه ... ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد

---

(١) سفط : وعاء الطيب . الألوة : عود الطيب .

(٢) ص ٣٨٣ ديوان حسان بن ثابت .

(٣) ص ٣٨٧ ومابعدها ديوان حسان بن ثابت .

إلى أن قال :

فبكى رسول اللـه ياعين عبـرة ... ولاأعرفنـك الدهر دمعك يجمد

ومالك لاتبكين ذا النعمة التى ... على الناس منها سابـغ يتغمـد

فجودى عليـه بالدمـوع وأعولى ... لفقـد الذى لامثله الدهـر يوجد

ومافقـد الماضـون مثـل محمـد ... ولامثلـه حتـى القيامـة يفقـد

إلى أن قال :

وليـس هوائـى نازعـاً عـن ثنائه ... لعلـى بـه فـى جنـة الخلـد أخلد

مع المصطفـى أرجو بذاك جواره ... وفـى نيـل ذاك اليوم أسعى وأجهد

المرثية طويلة تبلغ ستة وأربعين بيتاً اخترت منها الأبيات التى تعبر عن حزن حسان بن ثابت وامتلاء نفسه بذكرى الرسول صلى الله عليه وسلم وماكان يمثله النبى صلى الله عليه وسلم له فهو نبيه وحبيبه وصديقه وعديله فى تزوج الأختين القبطيتين بل هو كل شىء فى حياته .

والمرثية بكاء حار على الرسول صلى الله عليه وسلم وندب وعويل وتوجع وتفجع عليه صلى الله عليه وسلم، وفيها إيمان وحب وحنين ودمع وفيها الوفاء والولاء وفيها اللوعة الملتاعة والعين النازفة للدمع والقلب الحزين المكلوم .

وقد صور حسان فى مرثيته عظم المصيبة وعظمة الفقيد إنه ليس أى فقيد، إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنه الحلم والعلم والرحمة، إنه الإمام الحق، المعلم الصدق، إنه النعمة العامة إنه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقيد الذى لايعد له فقيد منذ خلق الله الدنيا إلى يوم القيامة .

وحسان فى مرثيته يعدد بعضاً من صفات النبى الكريمة التى لاتحصى ولاتعد ثم يبكى عليه بل يدعو عينيه إلى البكاء وإسالة الدموع .

وقد تأثر حسان فى مرثيته بمعانى الإسلام ومبادئه بل تأثر بالألفاظ الإسلامية والأفكار الإسلامية إلى حد بعيد، بل إننا لانغالى إذا قلنا إن الإسلام بمعانيه وأفكاره ومبادئه وتعاليمه وعقائده يسيطر على المرثية سيطرة كاملة .

ولعل شاعراً إسلامياً لم يرث النبى صلى الله عليه وسلم كما رثاه حسان فقد رثاه بجملة قصائد يفوح منها الحزن والبكاء والعويل والندب والتفجع والحسرة والجراح الغائرة التى لاتشفى، ولاغرو فى ذلك فهو شاعره الخاص الذى وقف بجانبه يدفع كيد الكافرين عنه بشعره ويدعو إلى دعوته ويشرح شرع الله عنه ويمدحه بكل الصدق والوفاء والحب والولاء .

ومن شعر المراثى المحمدية قول الإمام على بن أبى طالب يرثى الرسول صلى الله عليه وسلم : (١)

أمن بعد تكفين النبى ودفنه ... نعيش بآلاء ونجنح للسلوى،
رزئنا رسول الله حقاً فلن نرى ... بذاك عديلاً ماحيينا من الورى
وكنت لنا كالحصن من دون أهله ... له معقل حرز حريز من العدوى
وكنا بمرآه نرى النور والهدى ... صباح مساء راح فينا أو اغتدى
لقد غشينا ظلمة بعد موته ... نهاراً وقد زادت على ظلمة الدجى
فياخير من ضم الجوانح والحشا ... وياخير ميت ضمة الترب والثرى
كأن أمور الناس بعدك ضمنت ... سفينة موج حين فى البحر قد رسا
وضاق فضاء الأرض عنا برحبه ... لفقد رسول الله إذ قيل قد مضى
فقد نزلت بالمسلمين مصيبة ... كصدع الصفا لاشعب للصدع فى الصفا (٢)

---

(١) ص ٨ ديوان الإمام على ، تحقيق الدكتور / محمد عبد المنعم خفاجى طبع : دار ابن زيدون ببيروت .

(٢) الصدع : الشق . الصفا : حجارة ملساء قوية . الشعب : الالتحام والضم والجمع .

في مرثية للرسول صلى الله عليه وسلم يوضح على بن أبى طالب عظم المصيبة وهول الفجيعة التى حدثت للمسلمين بموته صلى الله عليه وسلم، ثم يعدد رضى الله عنه بعض صفاته صلى الله عليه وسلم فكان صلى الله عليه وسلم الحصن الحصين للإسلام والمسلمين والمعقل الذى يحتمى به وكان النور الذى يضىء والهدى الهادى للضالين. ثم يوضح الإمام على حالة المسلمين بعد فقده صلى الله عليه وسلم حيث عاشوا فى ظلام بعد موته صلى الله عليه وسلم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وأصبحت الأمور غير مستقرة فكان صلى الله عليه وسلم النور المضىء والمفرج للكروب والمثبت للقلوب والأفئدة .

هذا وقد رثى الرسول صلى الله عليه وسلم بمراث كثيرة عديدة من كثير من الشعراء الآخرين أمثال : كعب بن زهير وعبد الله بن رواحة وشعراء آخرين كثيرين .

وإذا كان شعراء العصر الإسلامى قد رثوا نبيهم العظيم صلوات الله وسلامه عليه فإنهم كذلك رثوا خلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم وبكوهم وأزرفوا عليهم الدموع وأشادوا بفضائلهم، من ذلك قول حسان بن ثابت يرثى أبا بكر الصديق : (١)

إذا تذكرت شجواً من أخى ثقـة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

خير البريـة أتقاهـا وأعدلهـا ... بعد النبى وأوفاها بما حملا

والثانى الصادق المحمود مشهده ... وأول الناس منهم صدق الرسلا

عاش حميداً لأمر اللـه متبعـاً ... بهدى صاحبه الماضى ومانتقلا

يرثى حسان أبا بكر رضى الله عنه فيذكر فضائله ويعدد مناقبه فهو خير الخلق وأعدلهم وأوفاهم بعد النبى صلى الله عليه وسلم وأنه أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه عاش متبعاً أمر الله تعالى وهدى نبيه طيلة حياته .

---

(١) ص ٢١١ - ٢١٢ ديوان حسان بن ثابت .

ويلاحظ على الأبيات تأثرها بالإسلام تأثيراً واضحاً فى الأفكار والمعانى، فأبو بكر كان تقياً عادلاً متبعاً أوامر الله وهدى رسوله صلى الله عليه وسلم، والمرثية تأبين لأبى بكر وسرد لمميزاته وصفاته وتعداد لفضائله وسماته .

كذلك رثى الشعراء الإسلاميون ثانى الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وبكوا عليه وعددوا مناقبه وفضائله، وقد كان لموت عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقع خاص يختلف عن موت أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما لأنه مات مقتولاً بطعنة آثمة سددها إليه أبو لؤلؤة المجوسى وهو يصلى فى المحراب.

يرثى حسان بن ثابت عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسى مولى المغيرة بن شعبة وهو يصلى بالناس إماما فيقول :

فجعنـــا فيـــروز لادرّدرّه ... بيأ بيض يتلو المحكمـات منيـب
رءوف على الأدنى غليظ على العدا ... أخى ثقة فـى النائبـات نجيـب
حتى مايقـل لايكـذب القول فعلـه ... سريـــع إلى الخيـرات غير قطوب
مطيع لأمر اللـــه بالحق عـــارف ... بعيـد الأنـام عنـده كقريب(١)

نرى الشاعر فى رثائه عمر بن الخطاب رضى الله عنه يبين عظم المصيبة التى حلت بفقده ثم أخذ يعدد صفاته وفضائله وكلها صفات وفضائل إسلامية دعا إليها الإسلام وحض عليها : فهو رءوف على الأدنى غليظ على العدا كما قال الله تعالى فى صفات المؤمنين " أشداء على الكفار رحماء بينهم"(٢) وأنه يصدق القول، يسرع إلى الخيرات مطيع لأوامر الله يعرف الحق ويعدل بين الناس جميعاً .

(١) ص ٢١٢ ديوان حسان بن ثابت .
(٢) الآيـــة : ٢٩ سورة الفتح .

وقالت عاتكة بنت زيد ترثيه وكان قد تزوجها رضى الله عنه وهو ابن عم أبيها زيد بن عمرو بن نفيل : (١)

عيـن جـودى بعبـرة ونحيـب لاتملـى علـى الإمـام النجيـب
فجعتنـا المنون بالفـارس المعـ ـلم يـوم الهيـاج والتلبيـب
عصمة الله والمعين علـى الدهـ ـر غيـاث المنتـاب والمحروب
قل لأهل الضراء والبؤس موتوا قـد سقتـه المنون كـأس شعـوب

تدعو عاتكة عينيها أن تجودا بالدمع على عمر رضى الله تعالى الله وتندبه وتنعاه وتوضح بعض صفاته ومميزاته، فهو الفارس المغوار فى الحرب وهو عصمة الله والمعين على نوائب الدهر.

ويقول جزء بن ضرار يرثى عمر بن الخطاب رضى الله عنه: (٢)

جـزى الله خيراً من أميـر وباركت يد اللـه فـى ذاك الأديـم الممـزق
فمن يسعى أو يركب جناحى نعامة ليـدرك ماحاولت بالأمـس يسبـق
قضيت أموراً ثم غـادرت بعدهـا بوائـق فـى أكمامهـا لـم تفتـق
وماكنت أخشـى أن تكـون وفاتـه بكفى سنبتى أزرق العيد مطرق (٣)

أبيات جيدة رائعة فى رثاء عمر رضى الله عنه يبتدئها الشاعر بالدعاء له أن يجزيه الله خير الجزاء وأن يبارك الله فى جلده الممزق الذى مزقه الكلب المجوسى أبو لؤلؤة - ثم يوضح الشاعر فضل الخليفة المقتول فى حسن سياسة المسلمين ويرى أنه لم يتعلق به أو يصل إلى درجته فى ذلك أى شخص حتى لو ركب جناحى نعامة فإنه سيبقى مسبوقاً فإنه رضى الله عنه لم يسبقه فى ذلك سابق ولم يتعلق بأطرافه لاحق، ثم يتوجه الشاعر إليه بالخطاب معلنـاً أن

---

(١) ص ١٩٢٠ تجريد الأغانى . القسم الثانى الجزء الثانى .
(٢) ص ١٣٣ جـ١ طبقات فحول الشعراء، لابن سلام ، شرح / محمود محمد شاكر طبع : مطبعة المدنى .
(٣) السنبتى : النمر وهو لئيم خبيث الطبع .

الخليفة الشهيد قد قدر الأمور وأحكمها بحسن رأيه وصواب عقله وترك خلفه غوائل عظاماً لاتزال فى أكمامها لم تظهر وتضح .

وقد صدق الشاعر فى قوله فقد ترك عمر بن الخطاب الدنيا وغادرها وترك بعده أكماماً تفتقت عن أعظم الدواهى والبوائق، ثم يذكر الشاعر أنه ماكان يظن أن تكون نهاية هذا الخليفة العظيم على يد لئيم جبان غادر كأبى لؤلؤة اللئيم الذليل صاحب الغدر والغيلة .

وهكذا صور الشاعر عظم المصيبة بصورة جديدة لم يألفها الشعراء الجاهليون حيث دعا الشاعر الله له بأن يعمه برحمته ويظله بظله ولم يدع لقبره بأن تسقيه السحب كما يدعو شعراء الجاهلية .

وإن كان يلاحظ عليه استخدامه لبعض الألفاظ المعجمية الغامضة إلا أن للشاعر عذره فى ذلك فقد كان شاعراً مخضرماً عاش عيشة الجاهليين قبل الإسلام .

كذلك رثى الشعراء الإسلاميون عثمان بن عفان رضى الله عنه وقد أصابه ماأصاب سابقه عمر بن الخطاب حيث قتل على يد طائفة وهو يقرأ كتاب الله تعالى، فمن ذلك قول حسان بن ثابت يرثيه: (١)

إن تُمس دار بنى عثمان خاوية ... باب صريع وباب محرق خرب
فقد يصادف باغى الخير حاجته ... فيها ويأوى إليها العرف والحسب
ياأيها الناس أبدوا ذات أنفسكم ... لايستوى الصدق عند الله والكذب
إلا تنيبوا لأمر الله تعترفوا ... كتائبا عصبا من خلفها عصب
فيهم حبيب شهاب الحرب يقدمهم ... مستلئماً قد بدا فى وجهه الغضب

يرثى حسان بن ثابت عثمان بن عفان رضى الله تعالى ويصور الفجيعة ويصف داره التى قتل فيها ثم يقرع حسان أولئك الذى اغتالوه. ثم نراه كذلك يقرع أولئك الذين قتلوا عثمان وتركوا الجهاد فى سبيل الله وأخذ بعضهم ينحر بعضاً ثم يطلب من نفسه أن تبكى

---

(١) ص ٢١٢ ديوان حسان بن ثابت .

على الخليفة المقتول لصبره وماقدمه للإسلام والمسلمين، وقد استقر في "بقيع الفرقد" وهو المكان الذى دفن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول :[١]

أتركتتم غـزو الـدروب وجئتـم	لقتـال قـوم عنـد قبـر محمـد
فلبئس هـدى الصالحين هديتـم	ولبئـس فعـل الجاهـل المتعمد
وكأن أصحاب النبـى عشيـة	بـدن تنحـر عنـد بـاب المسجد
فابكوا أبا عمر ويحسن بلائـه	أمسـى مقيمـاً فى بقيع الفرقد

وقد رثى الشاعر الخليفة بأشعار أخرى يلوم فيها الأنصار الذين كانوا بجواره وتقاعسوا عن نصرته[٢] كما نراه يرثيه بأشعار يتخذ فيها موقفاً محدداً من الفتنة بعد مقتل عثمان رضى الله تعالى عنه حيث نراه يحض على القصاص من قتلة عثمان ويقف جنباً إلى جنب مع هؤلاء الذين يطالبون بأخذ الثأر من قتلة عثمان رضى الله عنه[٣] .

ويقول أيمن بن حزيم يرثيه أيضاً ويهاجم هؤلاء القتلة ويهجوهم ويدعو الله عليهم فيقول : [٤]

ضحوا بعثمان فى الشهر الحرام ضحى	وأى ذبـح حـرام لهـم ذبحـوا
إن الذيـن تولـوا قتلـه سفهـا	لاقـوا أثامـاً وخسراناً فما ربحوا
مـاذا أرادوا أضـل الله سعيهـم	بسفحهـم للدم الزاكى الذى سفحوا

ولما قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه أرسل على بن أبى طالب كرم الله وجه فأخذ ماكان فى داره وإبلاً من إبل الصدقة فقال الوليد بن عقبة أخو عثمـان بن عفان يرثيه ويعرض بعلى رضى الله

(١) ص ٢١٦ ديوان حسان بن ثابت
(٢) ينظر ديوان ص ٢١٤ .
(٣) ينظر ديوانه ص ٢١٥ - ٢١٦ .
(٤) ص ٤٩٣ الاستيعاب .

عنه فيقول : (١)

ألا من لليل لاتغور كواكبه إذا غار نجم لاح نجم يراقبه

بنى هاشم ردوا سلاح ابن أختكم ولاتنهبوه لاتحل مناهبه

بنى هاشم لاتعجلونا فإنه سواء علينا قاتلاه وسالبه

ويمضى الوليد بن عقبة يعرض بالهاشميين ويرى أنهم قتلوا عثمان كى يكونوا مكانه ثم يهددهم ويتوعدهم .

وبعد مقتل عثمان بن عفان تولى على بن أبى طالب خلافة المسلمين إلا أنها لم تدم طويلاً فقد قتل كرم الله وجهه بعد مسألة التحكيم حيث قتله عبد الرحمن بن ملجم غيلة ليلة الجمعة فى الثالث عشر من شهر رمضان فبكاه كثير من الشعراء بكاءً حاراً على رأس هؤلاء أبو الأسود الدؤلى حيث يقول فى ذلك حين بلغة أن معاوية بن أبى سفيان قد أظهر الشماته بقتله :

ألا أبلغ معاوية بن حرب فلا قرت عيون الشامتينا

أفى شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس طراً أجمعينا

قتلتم خير من ركب المطايا وخيّسها ومن ركب السفينا

ومن لبس النعال ومن حذاها ومن قرأ المثانى والمئينا

إذا استقبلت وجه أبى حسن رأيت البدر راق الناظرينا

لقد علمت قريش حيث كانت بأنك خيرها حسباً وديناً

فالمرثية تأبين الخليفة على بن أبى طالب وتعداد لفضائله ومناقبه. تأبين جديد يختلف عن تأبين الجاهليين حيث يتحدث حديث المسلمين عن موتاهم لاحديث الجاهليين عن موتاهم تحدث وعدد الفضائل الإسلامية التى غرثها الإسلام فى أتباعه فالإمام على هو خير الناس دنيا ودين، يقرأ القرآن ويرتل آياته وهو الخليفة التقى الذى سار على طريق الإسلام وشريعته.

---

(١) ص ٦٤٥ تجريد الأغانى ، القسم الأول .

وهكذا أخذ الشعراء فى العصر الإسلامى يرثون الخلفاء الراشدين رثاءً حاراً مؤبنين لهم نادبين إياهم بصورة جديدة مختلفة عن صورة الرثاء فى العصر الجاهلى حيث تأثروا بالإسلام ومبادئه فى رثائهم وبكائهم فى الشكل والمضمون والمعانى والأفكار والصور.

وإذا كان شعر الرثاء فى العصر الإسلامى قد عرف رثاء الأنبياء والأزواج والأهل والإخوة والخلفاء وكبار الدولة خاصة رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه قد عرف رثاء قتلى المعارك والغزوات والحروب وندبهم وتأبينهم متأثرين فى ذلك بقيم الإسلام ومبادئه[(١)] فضلاً عن رثاء النفس قبل موتها[(٢)].

---

(١) ينظر على سبيل المثال ديوان حسان ص٣٧٤ وتجريد الأغانى ص١٥١٦ وطبقات فحول الشعراء جـ١ ص٢٦٣ .

(٢) ينظر ص٨٩ المنتخب الجزء الرابع .

«شعر الرثاء فى العصر الأموى»

بدأ العصر الإسلامى برسول الله صلى الله عليه وسلم وانتهى بمقتل ابن عمه على بن أبى طالب كرم الله وجهه هذا الخليفة التقى الورع الفقيه الذى لاحقته الفتنة العثمانية وأودت به قتيلاً وهو يؤم المسلمين للصلاة .

ويتنازل الحسن بن على عن الخلافة لمعاوية عام ٤١ من الهجرة النبوية بدأ العصر الأموى الذى ظل يحكم المسلمين أكثر من تسعين عاماً فى المشرق حدثت أثناءها تغييرات سياسية وثقافية، فقد تعددت الأحزاب المعارضة وأعلنت ظهورها وتكوينها ورفعت راية العصيان فى وجه الأمويين : منهم الحزب الشيعى الذى يرى الخلافة حق آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحزب الخوارج الذى يرى الخلافة حقاً عاماً للمسلم الكفء، وحزب الزبيرين الذى يرى الخلافة حق آل الزبير، والحزب الأموى الحاكم الذى يرى الخلافة حقه دون سواه عن بقية الأحزاب الأخرى المعارضة وكان لكل حزب من الأحزاب شعراوءه الذين يثبتون حقه ويدافعون عن مبادئه .

وحدثت صراعات وحروب طويلة بين الأحزاب المعارضة وقع خلالها كثير من القتلى من بين صفوف سائر الأحزاب فأخذ الشعراء يبكونهم ويرثونهم رثاءاً حاراً نادبين ومؤبنين ومعزين .

مما فتح المجال واسعاً لشعر الرثاء فى هذا العصر، فقد انتشر انتشاراً كبيراً عما كان عليه من قبل فى العصر الجاهلى والعصر الإسلامى ووجد كثير من شعر المراثى السياسية التى تفيض بها كتب الأدب والتاريخ، هذا فضلاً عن شعر الرثاء الإجتماعى الذى نظمه شعراء العصر يبكون فيها الأنباء والآباء والأمهات والأزواج والزوجات والأخوة والأخوات والأصدقاء والأصحاب، ويندبونهم ويؤبنونهم ويرسلون أشعار التعازى إلى أهاليهم .

فالعصر الأموى عرف شعر الرثاء بنوعيه : السياسى الذى نظم فى رثاء الخلفاء وقتلى الحروب الحزبية بين الأحزاب المتصارعة وقتلى الحروب التى دارت بين المسلمين وغيرهم فى الفتوحات الإسلامية، والاجتماعى الذى نظم فى رثاء الأهل والأقارب والأصدقاء .

فمن شعر الرثاء الاجتماعى فى العصر الأموى قول الفرزدق يرثى ابنيه :(١)

أبى الحزن أن أسلى بنىّ وسوْرَةً ... أراها إذا الأيدي تلاقت غضابها
ومالبناى إلا مثل من قد أصابه ... حبال المنايا مَرُّها واشتعابها
ثوى ابناى فى بيتى مقام كلاهما ... أخلته عنى بطىء ذهابها
ومحفورة لاماء فيها مهيبة ... يغطى بأعواد المنية نابها
أناخ إليها ابناى ضيفى مقامة ... إلى عصبية ماتستعار ثيابها

إلى أن قال :

وكانوا هم المال الذى لاأبيعه ... ودرعى إذا ماالحرب هرت كلابها
إذا ذكرت أسماهم أو دعوا بها ... تكاد حيازيى تفرى صلابها

المرثية طويلة تبلغ ثلاثين بيتاً كلها ندب وبكاء وعويل وتفجع على ابنى الشاعر، فالحزن مقيم فى قلبه لايسلوه على فقدهما، وكيف لايكون كذلك وقد فجع الشاعر فى أعز شىء لديه؟ فجع فى أبنائه فلذة كبده وسويداء قلبه ونور عينيه، وقد أخذ الشاعر يوضح عظم المصيبة التى لحقت به فهما المال الذى لايبيعه والدرع الذى يحميه عند الشدائد وهما كل فكره وعقله وهمه فلن ينساهما حتى يموت .

يبكى الفرزدق ابنيه بكاءاً عنيفاً بعاطفة صادقة تملك عليه قلبه وعقله وجوارحه يبكيهما عن طبع وسجية وكيف لايبكيهما كذلك وقد فجع فى أعز شىء لديه والمراثى إنما تقال على السجية إذا فجع الشاعر ببعض أهله والفرزدق فجع فى أعز شىء من أهله .

---

(١) ص ٣٤٨ جـ٢ ديوان الفرزدق، طبعة : دار صادر بيروت .

وقد رثى الفرزدق كذلك أربعة أولاد رزء بهم وفقدهم فى حياته وبكاءهم وأذرف عليهم الدمع وندبهم وتفجع عليهم وتوجع من أول الأبيات حتى نهايتها (١).

ومن رثاء الأنباء فى العصر الأموى ماقاله جرير يرثى ابنه سوادة بمرثية حارة كلها بكاء وعويل وآهات وآنات فيقول : (٢)

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم   كيف العزاء وقد فارقت أشبالى
لكن سوادة يجلو مقلتى لحم   باز يصرصر فوق المرقب العالى (٣)
قد كنت أعرفه منى إذا غلقت   رهن الجياد ومد الغاية الغالى
إلا تكن لك بالديرين معولة   فرب باكية بالرمل معوال
كأم بو (٤) عجول عند معهده   حنت إلى جلد منه وأوصال
فارقتنى حين كف الدهر من بصرى   وحين صرت كعظم الرمة البالى
إن الثوى بذى الزيتون فاحتسبى   قد أسرع اليوم فى عقلى وفى حالى

يرثى جرير ولده وكله حزن وهم من رأسه حتى قدميه ويبكيه وينعى حظه فيه هذا الحظ العاثر الذي حرمه من أعز مخلوق عنده وقد بين عظم المصيب التى أحلت بفقده خاصة فى هذه الظروف الحالكة التى فقد الشاعر فيها بصره .

إنها عاطفة الحزن الشديدة من أب نحو ولده وفلذة كبده الذى رزء به وفقده ، عاطفة الحزن الصادقة التى توحى بتقطع قلب الشاعر وتمزقه على ولده .

---

(١) ينظر ديوانه ص٢١٩ و ص٤١٠ جـ١.

(٢) ص٤٣٠ ديوان جرير/ تحقيق / محمد إسماعيل عبد الله الصاوى، مكتبة الحياة ببيروت .

(٣) يجلو مقلتى لحم : أراد يحلو بمقلتى لحم من جلى البازى ببصره إذا آنسى الصيد فرفع طرفه ورأسه . والمقلة : شحمة العين التى تجمع السواد والبياض .

(٤) البو : ولد الناقة .

هذا ورثاء الأبناء كثير فى شعر الرثاء فى هذا العصر ويمتاز بأنه الشعر الصادق العاطفة لاشك فيها ولاغرو فى ذلك فكيف يشك فى عاطفة شاعر يبكى أبناءه وفلذة كبده ؟

كذلك رثى شعراء العصر الأموى الآباء وبكوهم وأزرفوا الدمع عليهم وأبنوهم وذكروا فضائلهم وعددوا مناقبهم، ومن هذا القبيل قول الفرزدق يرثى أباه فى مقطوعة قصيرة :[1]

نعم أبو الأضياف فى المحل غالب ... إذا لبس الغادى يديه من البرد
وماكان وقافاً على الضيف محجما ... إذا جاءه يوماً ولاكابى الزند
وكان إذا ماأصدرته مكارم ... وساور أخرى غير مجتنح الورد [2]

الفرزدق يرثى أباه ويؤبنه ويعدد فضائله وصفاته ويبرزها ويذكر من أهمها أنه كان كريماً جواداً يغمر الضيوف بكرمه الواسع.

ونراه يرثى أباه فى أكثر من موضع فى ديوانه ويبكيه ويندبه ويتفجع عليه ويؤبنه ويعود فضائله وصفاته وكلها صفات وفضائل إسلامية تأثر بها الشاعر من مبادىء الإسلام[3] .

ومن أبرز موضوعات الرثاء الاجتماعى فى العصر الأموى رثاء الإخوة حيث يحتل المرتبة الثانية من حيث الكم بعد رثاء الأبناء.

ومن رثاء الإخوة فى هذا العصر قول المرار بن سعيد الأسدى يرثى أخاه : [4]

ألا قاتل الله المقادير والمنى ... وطيراً جرت بين السعافات والحبر [5]

---

(١) ص١٣٨ جـ١ ديوان الفرزدق .
(٢) ساور : واثب . المحتج : المائل على أحد جنبيه .
(٣) ينظر على سبيل المثال ديوانه جـ٢ ص٦٥ ، ص١١٥ ، ص١١٨ .
(٤) ص١٢٤٣ القسم الأول من تجريد الأغانى .
(٥) السعافات والحبر : موضعان .

تذكرني بــدراً زعـــازع لزبـــه … إذا عصفت إحدى عشياتها الغبـر
تذكرت بـدراً بعد ماقيـل عـارف … لما نابـه يالهـف نفـس علـى بـدر
إذا خطـرت منه على النفس خطرة … مرت دمع عيني فاستهل على نحري
أعينـي إنـي شاكـر مافعلتمـا … وحـق لمـا أبليتمانـي بالشكـر
سألتكمـا أن تسعدانـي فجدتمـا … عرانيـن بالشجام باقية القطـر (١)

هذه الأبيات من مرثية طويلة كلها ندب وبكاء وعويل من الشاعر على أخيه الذى قتل فى حرب وقعت بين قومه وقبيلة أخرى، نظمها الشاعر وكله حزن وألم لمصابه فى أخيه وتزخر الأبيات بزفرات الحزن ونيران الجوى، كما تفيض بعاطفة جياشة صادقة إلا أنه يؤخذ على الأبيات حشوها بالألفاظ المعجمية التى تحتاج إلى التوضيح والتى تدل فى نفس الوقت على تملك الشاعر من اللغة وتراكيبها .

وإذا كانت الآبيات السابقة ندباً وبكاءً وعويلاً على أخ فقده الشاعر فإننا نرى الفرزدق يرثى أخاه ويؤبنه ويعدد فضائله ويذكر مناقبه فيقول :

أبى الصبر أني لاأرى البدر طالعاً … ولاالشمـس إلا ذكرتـي بغالـب
شبيهين كانا بابـن ليلى ومـن يكـن … شبيه ابن ليلى يمح ضوء الكواكب
فتى كان أهـل الملك لايحجبونـه … إذا قاد يوماً بيـن بـاب وحاجـب
كـأن تميمـاً لـم تصبهـا مصيبـة … ولاحدثـان قبـل يـوم ابـن غالـب
ولـو شعـر الأجبال ومخ ويذيـل … لما لا بأعـراف الـذرى والمناكـب

نجد المرثية تعداداً لفضائل الميت وذكراً لمناقبه وصفاته فالميت كان معروفاً مشهوراً بين قومه بل بين أصحاب الملك، وأنه كان عزيزاً عند قومه وقبيلته .

---

(١) العرانين : أوائل المطر .

إلا أنه يلاحظ على الأبيات نزعة العصبية القبلية التى ظلت موجودة فى العصر الأموى والتى أحياها وعمل على استمرارها الخلفاء الأمويون حتى يشغلوا العرب عن الملك والخلافة، كما يلاحظ عليها استخدام بعض الألفاظ المعجمية البدوية التى تحتاج إلى معاجم اللغة لشرحها وتوضيحها والتى تدل على مقدرة الشاعر اللغوية وتملكه من ناحية اللغة ودرايته الواسعة بتراكيبها وألفاظها.

هذا ورثاء الأخوة كثير فى شعر الرثاء الأموى والمجال هنا ليس مجال الإفاضة والاستغراق[١] .

ومن أبرز موضوعات شعر الرثاء فى العصر الأموى رثاء الأزواج والزوجات، ورثاء الأزواج أو الزوجات يدل على الوفاء والحب العظيم من الزوج لزوجته أو العكس لأنه تعبير عن عظم الشعور ورقته وتعلق قلب أحدهما بالآخر تعلقاً يملك عليه قلبه وعقله وحواسه .

ومن شعر الرثاء فى الأزواج ماقالته عاتكة ترثى زوجها الزبير وتصور مقتله فتقول :[٢]

غدراً بن جرموز بفارس بهمة ... يوم اللقاء وكان غير معرد

ياعمرو لو نبهته لوجدته ... لاطائشا عش الجنان ولاأليد

شلت يمينك إن قتلت لمسلما ... حلت عليك عقوبة المتعمد

إن الزبير لذو بلاء صادق ... سمح سجيته كريم المشهد

فاذهب فماظفرت يداك بمثله ... فيما مضى ممن يروح ويغتدى

---

(١) ينظر على سبيل المثال . تجريد الأغانى ص١٢٤٢ و ص١٤٧٨ و ص ١٩٠٩ وديوان الفرزدق ص٢٧٩ ج١ . وديوان جرير ص٢٢٢ .

(٢) ص١٩١٧ تجريد الأغا فى القسم الثانى .

نجد عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل - التى تزوجت كثيراً من الرجال منهم الزبير - ترثى زوجها وتبكى لمقتله على أيد أعوانه وتدعو الله عليهم لأنهم قتلوا مسلماً عمداً ثم أخذت تعدد فضائل زوجها الميت وتذكر مناقبه : حيث كان صاحب بلاء حق وكان سمح الطبع كريم المشهد وأنه لامثيل له على وجه الأرض، ويلاحظ على الأبيات تأثرها بالإسلام وحدوده، فقد حلت على القاتل عقوبة القتل العمد .

ومن رثاء الأزواج مارثت به عاتكة زوجها الإمام الحسين بن على حيث تزوجها فيمن تزوجوها من الرجال وكانت أول من رفع حده الكريم من التراب يوم قتله وتأيمت بعده فلم تتزوج أحداً، فقالت تندبه وترثيه :[١] .

واحسينـــاه فلا نسيت حسينا أقصدتـــه أسنـــة الأعـــداء
غـــادروه بكربـــلاء صريعـــاً جـادت المـزن فى ذرى كربـلاء

فعاتكة حزينة لما أصاب زوجها سليل الشجرة المحمدية محبة لزوجها وفية له حتى انها لما جاء مروان بن الحكم يخطبها بعد الحسين رضى الله عنه رفضت وقالت : ماكنت لأتخذ حماً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم"[٢].

ومن أروع شعر الرثاء فى الزوجات مارثى به جرير زوجته خالدة بنت سعد وهى قصيدة طويلة رائعة تعد من عيون الرثاء فى الشعر العربى ولجودتها وروعتها ناح بها النائحون وبكوا بها على هوالك الفرزدق وسارت أبياتها بين البلاد وذاعت شهرتها شهرة واسعة وفيها يقول :[٣]

---

(١) ص١٩٢١ القسم الثانى من تجريد الأغانى و ص٥٨ ص١٨ الأغانى.
(٢) نفس المصدر السابق .
(٣) ص١٩٩ ومابعدها ديوان جرير .

لـولا الحيـاء لعادنـي استعبار ... ولـزرت قبـرك والحبيب يـزار(١)
ولقـد نظـرت وماتمتـع نظـرة ... فـي اللحد حيث تمكن المحفـار(٢)
فجـزاك ربـك في عشيرك نظـرة ... وسقـى صـداك مجلجـل مـدرار
ولهـت قلبـي إذ علتنـي كبـرة ... وذوو التمائـم من بنيك صغار(٣)

إلى أن قال :

نعم القرين وكنت علق مضنـة ... وأرى بنعـف بليـة الأحجـار(٤)

إلى أن قال :

صلـى الملائكـة الذيـن تخيـروا ... والصالحـون عليـك والأبـرار(٥)
وعليـك من صلوات ربـك كلمـا ... نصـب الحجيج ملبدين وغـاروا(٦)
يانظـرة لـك يـوم هاجت عبـرة ... مـن أم حـرزة بالنميـرة دار(٧)
تحـي الروامـس ربعهـا فتجـدّه ... بعـد البلـى وتميته الأمطـار(٨)

إلى أن قال :

لايلبـث القرنـاء أن يتفرقـوا ... ليـل يكـر عليهـم ونهـار(٩)

---

(١) استعبار : حزن ودمع .
(٢) الأحفار : جمع حفرة والمراد هنا : القبر .
(٣) ولهت : حيرت من الحزن . كبرة : ضعف
(٤) القرين : الزوج والصديق . العلق : النفيس . المضنة : مايضن به نعف بلية : مكان قبرها .
(٥) الأبرار : جمع بار وهو الصالح وكثيراً الإحسان .
(٦) نصب : جدو تعب . ملبدين : محرمين . غاروا : نزلوا الغور .
(٧) النجدة : جبل .
(٨) الروامس : الرياح . الربع : الدار .
(٩) لايلبث : لايمهلهم حتى يفرقهم . القرناء : جمع قرين وهو المصاحب .

وهكذا يمضى جرير فى مرثيته الرائعة يرثى زوجته ويندبها ويبكيها ويذرف عليها الدمع حزناً وحسرة وألماً، ثم أخذ يعدد فضائلها ويذكر خلالها متأثراً بتعاليم الإسلام ومبادئه فى مرثيته التى تبدو فيها عذوبة نفسه وشجو أنينه وتأثره بآيات القرآن الكريم.

وقد أشاد بها كثير من الأدباء والنقاد ورفعوها منزلة عالية حيث جعلوها من جيد شعر الرثاء فى الأدب العربى كله .

وكما رثى شعراء العصر الأموى الأهل والأقارب وندبوهم وأبنوهم فإنهم كذلك رثوا أنفسهم وبكوها وهم مايزالون على قيد الحياة، رثوا أنفسهم حينما أحسوا الموت ووصلوا إلى النهاية والمصير المحتوم الذى لابد منه لكل حى على وجه الأرض .

ومن الشعراء الذين رثوا أنفسهم فى هذا العصر الصمة بن عبد الله القشيرى حيث يقول حين حضره الموت فى معسكر المسلمين لغزو الديلم وهو بطبرستان :(١)

تعزّ بصبر لا وجدك لاترى ... بشام الحمى أخرى الليالى الغوابر
كأن فؤادى من تذكره الحمى ... وأهل الحمى يهفو به ريش طائر

ومازال الشاعر يردد هذين البيتين حتى فاضت روحه كما روى صاحب الأغانى .

وممن رثى نفسه أيضاً مالك بن الريب حينما أشرف على الموت وأحس بأنه مفارق الحياة قال يرثى نفسه ويبكيها :

أيا صاحبى رحلى دنا الموت فانزلا ... برابية إنى مقيم لياليا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعى ... وردا على عينى فضل ردائيا
ولاتحسدانى بارك الله فيكما ... على الأرض ذات العرض أن توسعا ليا

---

(١) ص٧١٦ تجريد الأغانى .

لعمرى لئن غالت خراسان هامتــى لقـد كنت عـن بابَى خراسـان نائيـــاً
فياليـت شعــرى هــل أبيتــن ليلة بجنب الغضى أزجى القلاص النواحيا

وإذا كان شعراء العصر الأموى قد رثوا الأهل والأحباب والنفس فإنهم كذلك رثوا أصدقاءهم وأحبابهم الذين كانت بينهم علاقات طيبة ودواوين شعراء العصر تزخر بمثل هذا اللون من فن الرثاء[1] .

وإذا كان الشعراء الأمويون قد أكثروا من شعر الرثاء الاجتماعى بموضوعاته العديدة فإنهم كذلك أكثروا القول من شعر الرثاء السياسى الذى دعت إليه العقيدة السياسية واستدعته الحاجة لرثاء رجال السياسة والملك وكبار رجال الدولة الأموية .

ويعد شعراء الشيعة في العصر الأموى من أبرع شعراء العصر وأروعهم وأصدقهم فى رثاء أئمتهم من آل البيت لما للأئمة من منزلة مقدسة عندهم ولما تحوطه العقيدة الشيعية للأئمة من منزلة دينية رفيعة بل جعلوا الإمامة والاعتراف بالإمام ركناً من أركان الإسلام بل الركن الركين منه .

وجاء رثاء الشيعة لأئمتهم مفجعاً باكياً ملتاع الزفرات ملتهب العبرات لأنه صدر عن حب ووفاء تجاه هؤلاء الأئمة الذين لاقوا من المآسى والفواجع مالم يحدث لقوم من بنى الإنسان، حيث قتلوا وصلبوا وذبحوا وسجنوا وشردوا وفعل بهم مالم يفعله حيوان مفترس بفريسته .

---

(١) ينظر على سبيل المثال : ديوان الفرزدق جـ١ ص٨٩ و ص١٢٢ وص١٣١ و ص٣٨٢ . وديوان جرير ص٨٨ و ص٢١٥ و ص٤٠١ وتجريد الأغا فى ص ١٥٧٩ .

وكان رثاء الشيعة لآل البيت رثاءاً حزيناً قاتماً يدعو القلوب لتذوب والأكباد لتتمزق والعقول لتذهب حيرة ودهشة لما أصاب آل البيت النبوى .

وأحياناً كانوا يمزجون البكاء بالدعاء لأخذ الثأر من القتلة الظالمين والنعمة على الغاصب الباغى، فضلاً عن تعداد فضائل آل البيت ومناقبهم وأحقيتهم للخلافة وأنهم أصحاب الحق الشرعى فيها وقد اغتصبه الأمويون ونصبوا أنفسهم عليها عنوة وظلماً .

ويعد الإمام الحسين بن على رضى الله عنهما أكثر بكاء ورثاءً حاراً من جانب الشعراء وأكثر تفجعاً وتوجعاً وندباً فقد قتل الحسين قتلة لاتزال ترتعد منها فرائص الدهر ونوائبه حيث ديس بسنابك الخيل حتى تكسرت أعضاؤه وفرك لحمه فى التراب وفصلت رأسه عن جسده ورفعت على خشبة وذهب بها إلى يزيد بن معاوية.

وقد رثاه الشعراء رثاءً حاراً وأكثروا من ذلك ومنه ماقاله عبد الله بن الأحمر يرثيه ويدعو لأخذ الثأر من قتلته :(١) .

صحوت وقد صيحوا الصبا والعواليا	وقلت لأصحابى : أجيبوا المناديا
وقولوا له إذ قام يدعو إلى الهـدى	وقبل الدعاء : لبيك لبيك داعيا
ألا وانع خير النـاس جداً ووالداً	حسيناً لأهل الدين إن كنت ناعيا
وأضحى حسين للرماح درئية	وغودر مسلوباً لدى الطف ثاويا

إلى أن قال :

سقى الله قبر اضمن المجد والتقى	بغربية الطف الغمام الغواديا
فياأمة تاهت وضلت سفاهة	أنيبوا فأرضوا الواحد المتعاليا

رثاء حار وبكاء وعويل من الشاعر على الإمام الحسين ودعوة واضحة للمسلمين أن يهبوا ويأخذوا الثأر من قتلته، ووصف حالتـه

---

(١) ص ١١٠ جـ٢ مروج الذهب للمسعودى، المطبعة البهية المصرية طبع عام ١٣٤٦ هـ .

حينما قتل بأرض كربلاء، ودعاء وتضرع إلى الله أن يسقى قبر الإمام المقتول، هذا القبر الذى ضم المجد والتقى بضمه للحسين الشهيد خير الناس جداً ووالدا .

ومن أروع الأبيات التى رثى بها الإمام الحسين مارثته به زوجته "الرباب" تنعاه وتبكيه وتندبه وكلها حزن وحسرة وآلام لما أصاب زوجها، فتقول فى ذلك : (١)

إن الـذى كان نوراً يستضاء به　　بكربـلاء قتيـل غيـر مدفـون
سبـط النبى جزاك اللـه صالحة　　عنـا وجنبـت خسـران الموازيـن
قد كنت لى حبلا صعباً ألوذ به　　وكنت تصحبنا بالرحـم والديـن
من لليتامى ومن للسائلين ومن　　يعنـى ويـأوى إليـه كل مسكين
واللـه لاأبتغـى صهراً بصهركم　　حتـى أغيّـب بيـن الرمل والطين

وقد رثى الحسين كثير من شعراء عصره - وليس المجال هنا مجال إفاضة حتى استقصى شعر الرثاء فيه وآل بيته - أمثال : زيد بن على ومحمد بن عبد الله وغيرهم من أئمة آل البيت النبوى إلا أننى أحب أن أشير إلى أن الإمام الحسين على الأخص "كان مثاراً لقصائد رثائية طويلة وقصص خيالية رائعة فى هذا العصر بل ومختلف العصور الأخرى"(٢).

كذلك يعد رثاء الخوارج فى قتلاهم من أروع شعر الرثاء فى العصر الأموى وأقواه قلباً وقالباً، حيث كان كثيرون يقتلون فى الحروب فكان الشعراء يندبونهم ندباً حاراً مازجين ندبهم بما ينتظرهم من نعيم الخلد"(٣) وظهرت الروح الدينية ظهوراً واضحاً فى رثائهم

(١) ص١٧٠٥ تجريد الأغانى، القسم الثانى .

(٢) ص٣٠٣ جـ٣ ضحى الإسلام لأحمد أمين، الطبعة العاشرة . مكتبة النهضة المصرية .

(٣) ص١٨١ العصر الإسلامى، للدكتور شوقى ضيف ، الطبعة التاسعة طبع دار المعارف .

لقتلاهم حيث عمت شعرهم الرثائى كله بل كل مانظموه من شعر لأنهم كانوا يحاربون عن عقيدة إيمانية قوية ومبدء راسخ لايلين ولاينثنى .

ومن شعر الرثاء عندهم قول عمر ان بن حطان (أحد شعراء الخوارج) يرثى أبا بلال مرداس بن أدية الخارجى الذى قتل فى معركة نشبت بينهم وبين عبيد الله بين زياد وبقيادة عباد بن علقمة المازنى الذى داهم الخوارج أثناء صلاة الجمعة بعد أن هادنهم للصلاة ومال عليهم وهم بين راكع وقائم وساجد وقاعد[1]، فقتلهم وأتى برأس أبا بلال، وفيه يقول الشاعر :

ياعين بكى لمرداس ومصرعه	يارب مرداس اجعلنى كمرداس
تركتنى هائماً أبكى لمرزئتى	فى منزل موحش من بعد إيناس
أنكرت بعدك ماقد كنت أعرفه	ماالناس بعدك يامرداس بالناس
إما شربت بكأس دار أولها	على القرون فذاقوا جرعة الكاس
فكل من لم يذقها شاربٌ عجلاً	منها بأنفاس ورد بعد أنفاس[3]

يرثى الشاعر الخارجى أحد قواد الخوارج ويكبيه بكاءً حاراً ويرى أن الدنيا موحشة سيئة بعد مرداس وأنه لايدوم فيها إنسان فكل حى لابد وأن يشرب من كأس الموت لامحالة. وقال يرثيه بمقطوعة أخرى :[4] .

لقد زاد الحياة إلىَّ بغضا	وحباً للخروج أبو بلال[5]

---

(١) ص٢٥٤ جـ٣ الكامل للمبرد . تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته مطبعة نهضة مصر .

(٢) ص١٥٠ جـ٤ المنتخب من أدب العرب .

(٣) الورد : يقصد به الموت .

(٤) ص ١٤٩ جـ٤ المنتخب من أدب العرب .

(٥) الخروج : الانضمام للخوارج .

أحـاذر أن أمـوت على فـراشى	وأرجـو الموت تحت ذرا العوالى[(١)]
ولو أنـى علمـت بـأن حتفـى	كحتـف أبـى بـلال لم أبـال[(٢)]
فمـن يـك همـه الدنيـا فإنـى	لهـا واللـه رب البيـت قالـى[(٣)]

الشاعر فى رثائه لمرداس الخارجى يحسده على هذه الميتة التى ماتها ويتمنى أن ينال الشهادة التى نالها مرداس، بل إنه يخاف أن يموت جباناً على فراشه ويتمنى الموت فى ساحات المعارك، ولو أنه علم أنه سيموت كمرداس لايبالى بشىء لأن همه كله الآخرة ولايرجو الدنيا ولايحبها .

نرى إلى أى حد كان الخوارج يستعذبون الموت ويرون الشهادة حلوة المذاق ويتهافتون على القتال دون خوف أو مبالاه ؟ وكان هذا شأن كل خارجى لأن أخلاقهم قامت على دعامتين اثنتين هما : التقوى والشجاعة، وظلوا طيلة حياتهم متمسكين بدينهم محافظين على عبادتهم صوامين قوامين، متمسكين بالقرآن الكريم والعمل بأحكامه والخشية الشديدة من عذاب الله تعالى يوم القيامة. فهم لاينتظرون ثواباً ولاجزاء إلا من الله تعالى فى جنان الخلد كما يقول الضحاك بن قيس فى رثاء بهول الضفرى أحد قواد الخوارج :[(٤)]

ياعين جودى دموعاً منك تهتانا	وابكـى لنا صحبة بانوا وإخوانا
خلو لنـا ظاهـر الدنيـا وباطنهـا	وأصبحوا فى جنان الخلد جيرانا

---

(١) ذرا العوالى : ظل الأرماح .

(٢) الحتف : الموت والهلاك .

(٣) قالى : كاره ومبغض .

(٤) ص٤٦٠ ج٥ تاريخ الطبرى .

ومن شعر الرثاء السياسى فى العصر الأموى مارثى به رجل من بنى أسد مصعباً ابن الزبير بعد مقتله فيقول : (١)

لعمرك إن الموت منا لمولع	بكل فتىً رحب الذراع أريب
فإن يك أمس مصعب نال حتفه	لقد كان صلب العود غير هيوب
جميل المحيا يوهن القرن غربه	وإن عضه دهر فغير رهوب
أتاه حمام الموت وسط جنوده	فطاروا شلالاً واستقى بذنوب (٢)
ولو صبروا نالوا حباً وكرامة	ولكنهم ولوا بغير قلوب (٣)

يرثى الشاعر مصعباً ويندبه ويؤبنه معدداً مناقبه وفضائله : فقد كان صلب العود جميل المحيا غير رهوب ثم أخذ يصور قتلة حيث قتل بين جنوده الذين فروا هاربين من حوله ولم يصبروا ويصابروا ويقاتلوا ولو أنهم صبروا لنالوا الجزاء والكرامة .

ومنه أيضا رثاء جرير للخليفة الأموى الورع عمر بن عبد العزيز خير من أناب إلى الله ورعى حقوقه وأقام شرعه وحدوده وأدى الأمانة العظمى صابراً فحزنت الدنيا كلها لوفاته وبكت الشمس لموته وغيابه ونجوم الليل لأفوله واحتجابه : (٤)

تنعى النعاة أمير المؤمنين لنا	ياخير من حج بيت الله واعتمرا
حملت أمراً عظيماً فاصطبرت له	وقمت فيه بأمر الله ياعمرا (٥)
فالشمس كاسفة ليست بطالعة	تبكى عليك نجوم الليل والقمرا

فيرثى جرير عمر بن عبد العزيز رثاء تعمه الروح الدينية ومحملاً بعاطفة صادقة جياشة وممتزجاً بالخيال والتصوير الرائع :

---

(١) ص١٣١ جـ١٩ الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى طبع دار الكتب المصرية.
(٢) طاروا شلالاً : فروا متفرقين .
(٣) الحبا : جمع حبوة وهى العطية .
(٤) ص ٣٠٤ ديوان جرير .
(٥) نصب عمر على الندبة أى ياعمراه

حيث نرى الشمس تبكى لفقده ونجوم الليل والقمر يشاركون فى البكاء، والشاعر يفضل الخليفة على سائر المسلمين فى تقواه وعبادته ويشيد به فى حسن تدبير السياسة واطلاعه بأمور الرعية بأمر الله وشريعته .

فجرير يرثى الخليفة ويؤبنه بمناقب إسلامية خالصة إلا أنه لم يقل إلا صدقاً وعدلاً فقد كان عمر بن عبد العزيز ورعاً تقياً زاهداً يخشى الله ويرجو ثوابه رحمه الله تعالى .

كما رثى الفرزدق سليمان بن عبد الملك وأبنه وعدد فضائله ومآثره ويرى أنه ورث النبوة وملأ البلاد بجهوداته فيقول : (١)

ماللمنيـــة لاتــــزال ملحـــة	تعـدو علـىَّ وماأطيـق قتالهـا
تسقى الملوك بكـأس حتـف مـرة	ولتلبسنك إن بقيـت جلالهـا (٢)
أردت أغـر مـن الملــوك متوجـاً	ورث النبــوة بدرهـا وهلالهـا
أغنـى العفـاة بنائــل متدفــق	مـلأ البـلاد دوافعاً فأسالهـا (٣)

فالمرثية رثاء رسمى نرى الشاعر قد اضطر لنظمها مما أفقدها صدق العاطفة وحرارة الرثاء .

وهكذا عرف الرثاء بنوعيه : الاجتماعى والسياسى فى العصر الأموى وتعددت موضوعات الرثاء فى ذلك من رثاء : الأبناء والبنات والإخوة والآباء والأزواج والزوجات والأصدقاء والأحباب ورثاء الأئمة من آل البيت والخلفاء وكبار رجال الدولة الأموية وقتلى الحروب والمعارك الداخلية منها والخارجية .

وعرف الرثاء بألوانه الثلاثة : الندب والتأبين والتعزية وقد سادها كلها أو معظمها الروح الدينية وقيم الإسلام ومثله .

---

(١) ص٨٣ جـ٢ ديوان الفرزدق .

(٢) جلالها : ثيابها .

(٣) الدوافع : الأنهار .

«الرثاء في العصر العباسي الأول»



بعد شعر الرثاء من أهم الأغراض الشعرية وأبرزها فى العصر العباسى الأول، فقد انتشر انتشاراً واسعاً واحتل مرتبة متقدمة بين أغراض الشعر العربى فى ذلك العصر، ونشط شعراء العصر نشاطاً ملحوظاً فيه فلم يمت خليفة ولاأمير ولاوزير ولا قائد ولاعالم ولافقيه إلا وتنافس الشعراء فى رثائه وتأبينه وتقديم العزاء لأهله ويرجع ذلك إلى زيادة الاتصال الوثيق بين خلفاء العصر وشعرائه وإغداق الأموال الطائلة عليهم فى حياتهم مما جعلهم يشيدون بهم مادحين فى حياتهم راثين مؤبنين معزين بعد مماتهم .

فضلاً عن تسابق الشعراء فى رثائهم لقتلى المعارك الحربية التى دارت بين المسلمين وغيرهم ورثائهم لتلك المدن الإسلامية التى خربها أهل الكفر والشرك ودمروها تدميراً، فضلاً عن هذا الكم الهائل من شعر الرثاء الذى ذرفه شعراء الشيعة على أئمتهم من آل البيت يصورون فيه مآسيهم وفواجعهم تصويراً حزيناً باكياً مثبتين أحقيتهم فى الخلافة دون غيرهم .

وفضلاً عن هذا الكم الهائل من شعر الرثاء الاجتماعى الذى بعد عن مناصب الدولة والتيارات السياسية فيها، حيث أخذ الشعراء يبكون أهلهم وأقاربهم وأصدقائهم على اختلاف أعمارهم وقرابتهم، فقد رثوا الأبناء والبنات والآباء والأمهات والأزواج والزوجات والإخوة والأخوات والأعمام والأخوال والخالات وغيرهم من الأهل والأقارب ورثوا أصدقاءهم وكل من اتصل بهم اتصالاً وثيقاً من أبناء الأمة، كما رثوا العبيد والجوارى، فضلاً عن رثائهم لأنفسهم قبل مماتهم ورثائهم للحيوانات والطيور والزروع وغيرها مما هو شائع ومنتشر فى شعر شعراء العصر .

وبرع كثير من شعراء العصر فى فن الرثاء براعة معدومة النظير وأصبحت قصائدهم الرثائية أو أصبح بعضها مضرب الأمثال وسار بها الركبان شرقاً وغرباً، كمرثية ابن الرومى فى لده الأوسط ومرثية دعبل الخزاعى فى آل البيت ومرثية أبى تمام فى محمد بن حميد الطوس ومرثية البحترى للمتوكل وغيرها الكثير والكثير مما تزخر بها دووابن شعراء العصر العباسى الأول .

الفصل الثالث

«الرثاء الإجتماعي في العصر العباسي»



«الرثاء الإجتماعي في الشعر العباسي»

استطيع أن أقسم الرثاء فى شعر العصر العباسى الأول إلى : رثاء سياسى ورثاء اجتماعى، فالرثاء السياسى : هو هذا اللون من الرثاء الذى يتعلق برجال السياسة فى الدولة من خلفاء أو أمراء أو وزراء أو قواد للجيش أو كبار المسئولين فى الدولة أو يتعلق بعقيدة سياسية بشأن الخلافة أو الحكم كرثاء الأئمة من آل البيت .

أما الرثاء الاجتماعى : فهو هذا اللون من الرثاء الذى تحكمه العلاقات الاجتماعية بعيداً عن شئون السياسة والجهة الرسمية للدولة كرثاء الأهل والأصدقاء ونحو ذلك .

وإن كانت طبيعة الرثاء تجعله اجتماعياً مهما يكن متصلاً بفرد من الأفراد لأنه يتحدث عن الحياة والموت وفراق الأبناء والأهل والأصدقاء والأعلام النابهين وكل ذلك يشترك فيه أفراد المجتمع.[1] إلا أن النوعين يختلفان فى الباعث والداعى فالأول باعثه سياسى . والثانى باعثه اجتماعى يبعد عن السياسة والجهة الرسمية للدولة .

فضلاً عن الاختلاف فى الغالب فى كيفية الرثاء وصوره وصفات المرثى .

والرثاء الاجتماعى يحتل مكانة عظيمة فى شعر الرثاء فى ذلك العصر نظراً للترابط الوثيق بين أفراد المجتمع الإسلامى ونظراً للصحبة والصداقة التى كانت تربط بين الشعراء وكثير من أبناء الأمة العباسية، ونظراً للعلاقة الوثيقة بين الشعراء وأهلهم وذويهم ونظراً لما طرأ على المجتمع من تقدم حضارى وثقافى وتغيير فى العادات والتقاليد الاجتماعية، فلم يعد رثاء الشعراء لأهليهم دليلاً

---

(١) ص ١١٠ الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور/ د/ شوقى ضيف، دار المعارف .

على الضعف المناقض للعزة والأنفة والكبرياء التى عرفت عن العرب فى عصر الجاهلية، بل أصبح رثاء الشاعر لأهله دليلاً على رهافة الإحساس والمشاعر ورقة العاطفة والوجدان .

ويضم الرثاء الاجتماعى موضوعات متعددة بين طياته فيتناول رثاء الأبناء والبنات ورثاء الآباء والأمهات ورثاء الأزواج والزوجات ورثاء الإخوة والأخوات والأعمام والأخوال والخالات ورثاء الجوارى والعبيد فضلاً عن رثاء الأدباء والعلماء .

وسوف أتناول بعون الله كل موضوع منها تناولاً منفرداً عن بقية الموضوعات الأخرى بشىء من التفصيل واستيفاء الموضوع بقدر المستطاع .

رثاء الأبناء والبنات :

يعد رثاء الأبناء من أهم موضوعات الرثاء الاجتماعى وأبرز موضوع فيه كما وكيفا حيث يحتل أكثر الصفحات المحزونة من رثاء الأهل والأقارب جميعاً فضلاً عن هذه الحرقة ولهيب الحزن ونيران الألم التى تفوح بها قصائد الرثاء فى الأبناء، هذه الحرقة وهذا اللهيب اللذان ينبعان من قلب مكلوم حزين تغشاه الحسرة والفجيعة على فراق عضو منه وفضلاً عن صدق العاطفة الموغلة فى صدقها حيث تنبع الأشعار فى رثاء الأبناء من بين طيات قلب الشاعر معبرة عن أحاسيس الشاعر بكل الصدق الذى لايشوبه أدنى شك، وكيف لا يكون ذلك كذلك وقد فجع الشاعر فى أغلى شىء لديه إنه كبده وفؤاده ونور عينيه .

إن أصوات الآباء الشعراء قد بحت من البكاء والندب والعويل مع موت أبنائهم وأفلاذ أكبادهم لأنهم يرون فيهم قطعة من أجسادهم وعضوا من أعضائهم قد بترت بتراً وانتزعت انتزاعاً منهم وأمام عيونهم .

فرثاء الأبناء أبكى وأندب وأفجع الرثاء كله سواء كان هذا الرثاء اجتماعياً أو سياسياً ففيه الأهات الحزينة والآلام الدفينة بل هو عصارة نفس خيم عليها الحزن وتمكن منها كل تمكن .

ورثاء الأبناء موضوع شعرى تناوله معظم شعراء العصر العباسى الأول إن لم يكونوا كلهم تناولاً رائعاً مبرزين عظم الفجيعة وأهات الحزن والحسرات فى تصوير رائع وصور بارعة مع تباين بينهم فى عظم الروعة والبراعة .

وسعر موت الأبناء قلوب الشعراء فبكوهم بدموع غزار وأنوا أنيناً حاراً من قلوب جريحة كوتها نار الفراق الملتهبة ومضوا يتأوهون وجذوات الحزن الممض تلذع أفئدتهم لذعاً"[1] واشتهر كثير من شعراء العصر فى هذا الرثاء وتزخر بها دواوينهم .

فمن رثاء الأبناء قول بشار يرثى محمداً ابنه ويبكيه بكاءً حاراً فيقول :

أجارتنا لاتجزعى وأنيبى	أتانى من الموت المطل نصيبى
بنىٌ على قلبى وعينى كأنه	ثوى رهن أحجارٍ وجار قليب[2]
كأنى غريب بعد موت محمد	وماالموت فينا بعده بغريب
صبرت على خير الفتو رزئته	ولولا اتقاء الله طال نحيبى[3]
لعمرى لقد دافعت موت محمد	لو أن المنايا ترعوى لطبيب
وماجزعى من زائل عم فجعه	ومن ورد آبارى وقصد شعيبى[4]

---

(١) ص٢١٦ العصر العباسى الثانى د / شوقى ضيف ، الطبعة الخامسة. طبع دار المعارف بمصر .

(٢) فى الكلام تقديم وتأخير وأصله : بنى كأنه ثوى على قلبى وعينى . والقليب : البئر والمراد هنا : القبر .

(٣) الفتو : جمع الفتى .

(٤) الشعيب : مزادة الماء .

يذكرني نوح الحمام فراقه ... وإرنان أبكار النساء وثيب[1]
ولي كل يوم عبرة لا أفيضها ... لأحظى بصبر أو بحط ذنوب
إلى الله أشكو حاجة قد تقادمت ... على حدث في القلب غير مريب
دعته المنايا فاستجاب لصوتها ... فلله من داع دعا ومجيب
أظل لأحداث المنون مروعاً ... كأن فؤادي في جناح طلوب
عجبت لإسراع المنية نحوه ... وماكان لو مليته بعجيب[2]
رزئت بني حين أورق عوده ... وألقى على الهم كل قريب[3]
وقد كنت أرجو أن يكون محمد ... لنا كافياً من فارس وخطيب
وكان كريحان العروس بقاؤه ... ذوي بعد إشراق الغصون وطيب[4]
أغرُّ طويل الساعدين سميدع ... كسيف المحامي هز غير كذوب[5]
غدا سلف منا وهجر رائح ... على أثر الغادين قود جنيب[6]
ومانحن إلا كالخليط الذي مضى ... فرائس دهر مخطىء ومصيب[7]
نؤمل عيشاً في حياة ذميمة ... أضرت بأبدانٍ لنا وقلوب
وماخير عيش لايزال مفجعاً ... بموت نعيم أو فراق حبيب؟
إذا شئت راعتني مقيماً وظاعناً ... مصارع شبانٍ لدى وشيب[8]

---

(١) الإرنان : الصياح .
(٢) مليته : تمتعت به .
(٣) رزئت : أصبت بفقده .
(٤) بعد إشراق الغصون : ارتفاعها .
(٥) السميذع : السيد الشريف . كذب السيف : عدم قطعة ماضرب به .
(٦) هجر : سار نصف النهار . الرائح : الخارج في الماء .
(٧) الفرائس : جمع فريسة وهي التي يفترسها السبع .
(٨) ص٢٧٨ جـ١ ديوان بشار بن برد / تحقيق / الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية بالجزائر .

المرثية طويلة ومن بحر الطويل وقد أثبتها بأكملها لروعتها وبراعتها نسجاً وتصويراً ومعانٍ وصورا شعرية رائقة .

والشاعر يبكى ابنه بقصيدة كلها ندب وحزن وتوجع وتفجع على هذا الفقيد الذى رزء به ويتحسر عليه ويذرف الدمع أنهاراً . إنها تصور مأساة حزينة باكية قد حدثت للشاعر وفجع بها على غير توقع مما جعله يفقد اتزانه ويختل توازنه فى الحياة، فهو الأب الكبير يحس أنه غريب فى الحياة بعد فقد ابنه وهو الشاعر المسلم الذى يؤمن بقضاء الله وقدره يذكر أنه دافع القدر والموت عن ابنه ويجزع جزعاً شديداً ويبكى بكاءاً حاراً مع أن البكاء لن يفيده فى شىء، ثم يأخذ الشاعر فى تصوير حالته بعد فقدانه ولده فهو دائم التذكر له لاينساه، ويتجلد ويصبر لعل الله تعالى يكفر من خطاياه، ثم بعد ذلك يغلب عليه الحزن ويسيطر عليه الأسى فيأخذ فى البكاء والعويل والتعديد ويخبرنا أنه سيظل مروعاً منذ اختطاف الموت لابنه .

ثم يأخذ فى تعداد فضائل ابنه ومناقبه ويرى أنه كان كريحان العروس وأغر وسيد شريف، ثم يرضى بقضاء الله وقدره ويرى الحياة لاطعم لها وأن الناس متلاحقون فى غمار الموت وأن الموت لن يفلت من يده شخص شاباً كان أو كهلاً .

إن الأبيات عصارة نفس حزينة فقدت عضواً من أعضائها فيها البكاء والعويل والآهات والآلام وفيها الأنين والتوجع والحسرة والتفجع، وفيها العاطفة الصادقة: عاطفة الحزن والحب: الحزن لفقد ابنه والحب الخالص له، ومع أن بشارا عاش حياته فى اللهو والمجون ولم تكن نفسه مطبوعة على الحزن إلا أننا نرى أن موت ابنه قد حرك قلبه وعقله ونفسه وهزهم هزاً .

ومن جيد شعر رثاء الأبناء فى العصر العباسى الأول قصيدة أبى تمام التى رثى فيها ولده فقال :

كـان الـذى خفـت أن يكونـا	إنـا إلـى اللـه راجعونـا
أمسـى المرجـى أبـو علـى	موسـداً فـى الثـرى يمينـا
حيـن انتهـى واستـوى شبابـاً	وحقـق الـرأى والظنونـا
أصبـت فيـه وكـان عنـدى	علـى المصيبـات أن يعينـا
كنـت عزيـزاً بـه كثيـراً	وكنـت صبـاً بـه ضنينـا
دافعـت إلا المنـون عنـه	والمـرء لايدفـع المنونـا

يصور أبو تمام فى هذا الجزء من المرثية ابنه الذى كان أمام عينيه يراه ويبصره ويخاف عليه من الموت إلا أنه بين عشية وضحاها قد فارقه وغادر الحياة وسكن الثرى بالرغم من مجالدته للموت ومقاومته بكل مايستطيع إلا أن الموت غالبه وصرعه فرضى بقضاء الله تعالى وقدره فالموت لايغالبه إنسان مهما كانت قوته لأنه أمر الله الذى أراده وإذا قضى الله أمراً قال له كن فيكون .

ثم أخذ بعد ذلك يصور لحظة الاحتضار وماصاحبها من ضربات الموت فيقول :

آخـر عهـدى بـه صريعـاً	للمـوت بالـداء مستكينـا
إذا شكـا غصـة وكربـاً	لاحـظ أو راجـع الأنينـا
يديـر فـى رجعـه لسانـاً	يمنعـه المـوت أن يبينـا
يشخـص طـوراً بناظريـه	وتـارة يطبـق الجفونـا
ثـم قضـى نحبـه فأمسـى	فـى حـدث للثـرى دفينـا

إنه - وهو الشاعر البارع المصور الذى برع فى تصوير لحظة الاحتضار تصويراً لم يقدر عليه إلا ذو موهبة فذة - استطاع أن يصور لنا لحظة احتضار ابنه وصرع الموت له وهو يسدد إلى ابنه الضربات المتتالية وهو لايستطيع أن يفعل شيئاً تجاهها ويتألم ويتوجع ويشكو ويفتح عينيه ويطبقها حتى غلبه الموت وفارق الحياة.

ثم أخذ يصور حالته بعد فقد ابنه وبعد أن سكن القبور وبعد عنه إلى دار بعيدة وألقى بوجهه على التراب وهو الوجه الذى كان مصوناً طيلة حياته فيقول :

بعيد دار قريب جار ... فى حدث للثرى دفينا
باشر يرد الثرى بوجه ... قد كان من قبله مصونا
بنى ياواحد البنينا ... غادرتنى مفرداً حزيناً
هون رزئى بك الرزايا ... علىّ فى الناس أجمعينا
آليت أنساك ماتجلى ... صبح نهار لمصبحينا
ومادعا طائر هديلا ... ورجعت واله حنينا
تصرف الدهر بى صروفا ... وعاد لى شانه شئونا
وحز فى اللحم بل براه ... واحتث من طلحتى فنونا
أصاب منى صميم قلبى ... وخفت أن يقطع الوتينا
فالمرء رهن بحالتيه ... فشدة مرةً ولينا(١)

يصور أبو تمام حالته بعد فقد ابنه فيقول : إن موت ابنه قد خلف له الأوجاع والهموم والأحزان وأنه سيظل فى فكره وقلبه لن ينساه مادامت به الحياة، ويرى أن موت ابنه قد أثر فى نفسه تأثيراً كبيراً ويرى لحمه وجسده بل أصابه فى صميم قلبه ونياط فؤاده إلا أنه مع كل هذه المصائب وهذه المآسى والفواجع صابر راض بقضاء الله تعالى فكل نفس ذائقة الموت وقد يهون عليه حزنه بعض الشىء أنه يرى الموت كأساً يشرب منه جميع الخلق وسائر البشر.

وهكذا برع أبو تمام فى تصوير الاحتضار وصرع الموت لولده وفلذة كبده، وبرع فى تصوير حالته بعد موت ولده وفقده، وبرع فى تأثيره بشعره فى الأخرين حيث استطاع أن يجعلهم يحزنون لحزنه ويبكون ولده ويشاركونه همومه وأوجاعه .

---

(١) صـ

وليس هذا غريباً على أبى تمام وهو الذى برع فى شعر الرثاء براعة معدومة النظير فى كل موضوعاته وأنواعه، واستطاع برثائياته أن يقف فى الصف الأول مع شعراء الرثاء المجيدين فى الأدب العربى .

ولعل هذه البراعة وتلك الروعة لرثاء أبى تمام ترجع إلى نظرة الشاعر للحياة وخبرته بحقيقة الموت ومرضه الطويل الذى عاش به وكثرة الفواجع التي لحقت أسرته وأهله فقد فقد أبناءه وزوجته وإخوته وكثيراً من أهل بيته الذين رزء بهم فى حياته وشاهد موتهم وحضر استحضارهم، كما ترجع أيضاً إلى نفسية أبى تمام التى كانت تحس الموت دائماً فى نفسها وأولاده أكثر مما تحس بالحياة .

ويتجلى فى مرثية أبى تمام شيوع الروح الإسلامية والإيمان بقضاء الله وقدره "فكل من عليها فان" و "كل نفس ذائقة الموت" مما جعله يبعد فى قصيدته عن البكاء والصراخ والعويل الذى اعتاد عليه معظم الشعراء فى رثائهم خاصة لأهليهم وأقاربهم. كما استطاع أبو تمام أن يجعل مأساته الخاصة "موت ولده" مأساة عامة حيث أعطانا الإحساس بأن الإنسان مخلوق ضعيف يستطيع الموت أن يفترسه بين لحظة وأخرى ولامرد لأمر الله فى ذلك .

والقصيدة من مخلع "البسيط" وتفعيلاته :

مستفعلن فاعلن فعولن مرتين .

وقد صرّع الشاعر - كما هو معروف عنه - فى البيت الأول ثم يعود إلى التصريع ويكرره كلما يقتضى الموقف ذلك التصريع، كما يلاحظ على الأبيات خلوها من الصناعة والتكلف البديعى الذى عرف به الشاعر وجاءت الأبيات بلغة سهلة واضحة بعيدة عن الفلسفة والعمق والغوص وراء المعانى .

وهكذا كان أبو تمام رائعاً فى رثائه لابنه بل فى رثائه كله فمراثيه لاتقل عن مدائحه روعة وبراعة .

ومن روائع شعر الرثاء في الأبناء قصيدة "ابن الرومي" الذى يرثى فيها ولده الأوسط "محمداً" وقد مات منزوفاً وهو لم يزل صبياً فأحس بأن الموت قد اختطفه منه وانتزع منه نياط القلب وفلذة الكبد فراح يبكيه بكاءً حاراً بدموع غزار وكله حزن وألم وحسرة على ماأصابه فى ولده ، فيقول :(١)

بكاؤكما يشفى وإن كان لايجدى	فجودا فقد أودى نظيركما عندى
بنى الذى أهدته كفّاى للثرى	فياعزة المُهدى وياحسرة المهدى
ألا قاتل الله المنايا ورميها	من القوم حبات القلوب على عمد (٢)
توخى حمام الموت أوسط صبيتى	فلله كيف اختار واسطة العقد (٣)
على حين شمت الخير من لمحاته	وآنست من أفعاله آية الرشد (٤)
طواه الردى عنى فأضحى مزاره	بعيداً على قرب قريباً على بعد (٥)
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها	وأخلفت الآمال ماكان من وعد
لقد قل بين المهد واللحد لبثه	فلم ينس عهد المهد إذ ضم فى اللحد

ففى هذا الجزء من المرثية يتحسر الشاعر ويتوجع لموت ابنه ويسخط على المنايا التى رمته بمصائبها فى ولده وكأنها أماتته عن عمد وسبق إصرار، هذا الفقيد الذى كان يحى الأمل فى نفس أبيه لما كان يحسه فيه من الخير إلا أن الموت عاجله وداهمه على غرة وباعد بين الأب وولده واستطاع الموت أن ينفذ وعيده لولده أما هو فقد أخلفت الآمال ماكان يرجوه منه .

---

(١) ص٦٢٤ جـ٢ ديوان ابن الرومى ، تحقيق / د / حسين نصار طبع : مطبعة دار الكتب . عام ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

(٢) قاتل الله المنايا : لعنها حبات القلوب : سويداؤه .

(٣) توخى : تحراه وقصده عن عمد . واسطة العقد : أعظم جوهرة فيه .

(٤) شمت توقعت .

(٥) يريد بالقرب : قرب المكان ، وبالبعد : بعد اللقاء .

ثم أخذ الشاعر بعد ذلك يصور مرضه وحالته قبل موته وبيان أعراض المرض التى صاحبته فيقول :

تنغص قبل الرى ماء حياته ... وفجع منه بالعذوبة والبرد [(١)]
ألح عليه النزف حتى أحاله ... إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد [(٢)]
وظل على الأيدى تساقط نفسه ... ويذوى كما يذوى القضيب من الرند [(٣)]
فيالك من نفس تساقط أنفساً ... تساقط در من نظام بلا عقد [(٤)]

الشاعر قلبه محترق على ابنه الذى يراه أمامه وهو فى غرغرة الموت ويجود بأنفاسه الأخيرة أمام عينيه، ويراه والنزيف المستمر قد قضى عليه وأحاله من حمرة الورد التى كان عليها إلى صفرة الزعفران ثم يصور استمرار مصارعة الموت لابنه حيث جعله يرتعش فى يده وكأنه مقاتل سل سيفه على ولده، ثم يندب نفسه ويصور أحاسيسه تجاه مايحدث لولده فكأن نفسه تتساقط من بين جنبيه وهو يرى ولده يزبل ويموت أمام عينيه، إنها فجيعة مابعدها فجيعة ومصيبة مابعدها مصيبة حين يرى الإنسان ولده على هذه الشاكلة وهو لم يستطع فعل شىء .

إنه التصوير الرائع والصور البارعة التى جاءت بها مخيلة الشاعر وجادت بها براعته فى النفاذ إلى دقائق الأشياء وعمقها. فابن الرومى لايبارى فى تصويره ولايجارى فى براعته وروعته.

ثم أخذ بعد ذلك يصور عظم الفجيعة وهول المصيبة وشدة وقعها وتأثيرها على قلبه ونفسه، حيث أخذ يتعجب من أن قلبه

---

(١) الرى : الارتواء بالماء . والمراد : زهرة الشباب .
(٢) الجادى : الزعفران وهو أصفر .
(٣) الرند : نوع من الريحان .
(٤) النظام : الخيط .

لم يتقطع حزناً وكمداً على ولده حتى ولو كان أصلب من الحجر؟ ويتمنى الشاعر أنه لو كان مات قبل ولده ولم ير موته أمام عينيه وهنا يخرج الشاعر من شدة الصدمة فيفقد صوابه وعقله، ثم يعود إليهما ويرى أن الله يفعل مايشاء ويختار وبيده الموت والبقاء ثم يعود ثانية إلى فقدان صوابه وعقله فلا يرض بابنه بديلاً حتى ولو كانت جنة الخلد :

وماسرنـــي أن بعتــه بثوابــه	ولو أنه التخليد فى جنة الخلد
ولابعتـه طوعاً ولكـن غصبتـه	وليس على ظلم الحوادث من معدى

إنها صيحة حسرة وألم خرجت من أحشاء الشاعر ونياط قلبه حزناً منه على ولده الذى فقده أمام عينيه .

ثم يصور ابن الرومى معزة الأبناء ومكانتهم من قلوب آبائهم وأنهم لابديل لهم ولايسد أحد مكانهم بل لكل ولد مكانته لايغنى عنه بقية إخوته فيقول فى تصوير رائع :

وأولادنـا مثـل الجـوارح أيهـا	فقدنـاه كان الفاجع البيـن الفقـد
لكـل مكـان لايسـد اختلالـه	مكـان أخيـه فى جزوع ولاجلد
هل العين بعد السمع تكفى مكانه	أم السمع بعد العين يهدى كما تهدى؟

فالأولاد كالأعضاء فى الجسم الواحد لكل منهم مكانته ومنزلته ولايغنى عنه غيره كما لايغنى السمع عن البصر والبصر عن السمع فلكل وظيفته ومكانته .

ثم يأخذ الشاعر بعد ذلك فى بكاء ولده وذرف الدموع عليه بل يطلب من عينيه أن تغزر الدمع على هذا الحبيب الذى فقده والذى هو أغلى من عينيه .

ثم أخذ ينوح ويعدد مثل الثكالى ويصيح بصوت مرتفع مصوراً شعوره وأحاسيسه بعد موت ابنه وكأنه كان حلماً لاحقيقة، ثم يوجه الخطاب لولده الفقيد بأنه سيظل يبكيه حتى آخر رمق فيه وأنه لايشغله وجود بقية أولاده عنه بل إنهم سيوقدون قلبه ناراً على

نيران كلما رآهم يلعبون فى ملعبه. ثم يعود إلى تحية ولده ويستسقى له الغيث على عادة العرب القدماء :

عليك سلام الله منى تحية ... ومن كل غيث صادق البرق والرعد

إن مرثية ابن الرومى هذه تعد أروع قصيدة فى رثاء الأبناء وأصدقها عاطفة وحزناً وأبرعها تصويراً وصوراً قيلت فى هذا العصر، بل تعد من عيون قصائد الرثاء فى الأدب العربى كله، وقد أخذت من الشهرة والمدح مالم تنله قصيدة أخرى وقد تناولها الباحثون والدارسون والنقاد واهتموا بها اهتماماً ملحوظاً لروعتها وبراعتها فى التصوير والأفكار والمعانى بل والأسلوب والألفاظ، فابن الرومى لايبارى فى تصويره وصوره وأفكاره ومعانيه .

ورثاء الأبناء فى العصر العباسى الأول جاء أحياناً فى قصائد طويلة متمثلاً فى النماذج السابقة وأحياناً يأتى فى مقطوعات قصيرة يعبر بها الشاعر عن حزنه وألمه دون إطالة، من ذلك رثاء عبد الله ابن أيوب التيمى يرثى ابناً له يسمى "حبان" مات وهو حديث السن فجزع عليه وقال يرثيه :(١)

أودى بحبان مالم يترك الناسا ... فامنح فؤادك من أحبابك الياسا
لما رمته المنايا إذ قصدن له ... أصبن منى سواد القلب والراسا
وإذ يقول لى العواد إذ حضروا ... لاتأس أبشرْ أبا حبان لاتاس
فبت أرعى نجوم الليل مكتئبا ... إخاله سنته فى الليل قرطاسا

فرق كبير بين هذه الأبيات والأبيات السابقة فشاعرية الشاعر دون شاعرية ابن الرومى بكثير ولذلك لم يستطع اللحاق بابن الرومى فى تصويره أو أفكاره أو معانيه، بل لم يبلغ تصوير ابن الرومى لحزنه وأساه على نياط قلبه فى تصويره حزنه وألمه على ولده، فقد استطاع ابن الرومى أن يؤثر فينا ويهز مشاعرنا وقلوبنا هزاً

---

(١) ص ٤٥ جـ٢٠ الأغانى .

واستطاع أن يجعلنا نحزن لحزنه ونأس لأساه فضلاً عن براعته فى التصوير .

وقالت جارية ديك الجن ترثى ولدها منه وتبكيه فتقول : (١)

بأبـــى نبذتـــك بالعـــراء المقفـــر	وستـرت وجهتـك بالتراب الأعفـر
بأبـــى بذلتــك بعـــد صــون للبلـــى	ورجعـت عنك صبـرت أو لـم أصبـر
ولـــو كنت أقدر أن أرى أثر البلى	لتركـت وجهـك ضاحيـاً لـم يقبـر

ترثى الأم ولدها التى تفتديه بأبيها وتصور دفنها لابنها حيث سترت وجهه بالتراب الأعفر وقدمته بنفسها للقبر وهى التى عاشت تصونه وتحفظه من كل سوء طوال حياته، وتصور معزته عندها ومكانته من قلبها وتتمنى أن تراه دائماً حتى ولو كان ميتاً إلا أن آثار البلى ستظهر عليه وهى لاتقدر أن تراها .

هذا والأمثلة على ذلك كثيرة من رثاء الأبناء فى العصر العباسى الأول ولاأستطيع سردها كلها فى البحث وإنما ذكرت عدة نماذج منها تصور مدى ماوصل إليه شعراء العصر فى رثاء أبنائهم من براعة فى التصوير والصور والأفكار والمعانى وروعة فى إجادة هذا اللون من الرثاء فى هذا العصر .

وإذا كان شعراء العصر العباسى الأول قد رثوا أبنائهم وبكوهم وندبوهم وتفجعوا عليهم وأظهروا عظم المصيبة والفجيعة فيهم وأكثروا من ذلك فإنهم أيضاً قد رثوا بناتهم وبكوهن وتفجعوا عليهن وفى ذلك دليل على مانالته الأبنة من حظ فى الرثاء العربى ولم تعد البنت عاراً ومصيبة كما كان ذلك فى عصر الجاهلية فقد كرمها الشعراء فرثوها كما رثوا الأبناء وهذا يرجع إلى الأثر العظيم للإسلام ومبادئه التى أعطت للبنت حقها وردت إليها كرامتها ومكانتها فى المجتمع .

---

(١) ص١٨٧ جـ٣ وفيات الأعيان لابن خلكان .

ومن شعر رثاء للبنت قول بشار بن برد يرثى ابنته : (١)

يابنت من لم يكن يهوى بنتا	ماكنت إلا خمسة أو ستا
حى ولدت فى الحشى وحتى	فتت قلبى من جوى فانفتا
لأنت خير من غلام بتا	يصبح سكران ويمسى بهتا

صحيح لم يبلغ بشار فى رثائه لابنته مابلغه فى رثائه ابنه من تحسر وتوجع وتعبير عن شدة الحزن والألم وعاطفة متوهجة وأحزان ملتهبة إلا أنه قد رثاها وأعلن أنه حزن لفقدها وأثر موتها فى أبيها وجعلته يعترف بمكانتها على الرغم من أنه لم يكن يهوى البنات كعادة الرجل العربى على الرغم من أنه ليس من العرب .

ومن رثوا بناتهم أيضاً فى هذا العصر الشاعر العباسى المشهور عبد الله بن المعتز حيث يقول فى رثائها : (٢)

وغرثٍ من الأحباب غيبت فى الثرى	وأسقته أجفانى بسح وقاطر
فأثمرهما لايبيد وحسرة	لقلبى يجنبها بأيدى الخواطر
أيا شعبة النفس التى ليس غيرها	سقطت فقد أفردت عودى لكاسر
ويادهر حتى هذه قد فعلتها	على مثلها كانت تدور دوائرى

يبكى عبد الله بن المعتز ابنته ويذرف عليها دموعه ويرى أنه بفقدها قد أصبح فى هم وحسرة يسيطران على قلبه، ثم يصور عظم المصيبة فى فقدها ويشكو الدهر على فعلته وموت ابنته .

ويلاحظ أن هذه الأبيات أروع تصويراً وأعظم حزناً وأصدق عاطفة من أبيات بشار فى رثاء ابنته .

وكما رثى الشعراء أبناءهم وبناتهم فإنهم أيضاً رثوا أبناء وبنات أصدقائهم وذويهم وأبنوهم وعددوا فضائلهم ومآثرهم ودعوا

---

(١) ص٢٢٤ جـ٣ الأغانى لأبى الفرج الاصفهانى .

(٢) ص٣٤٣ جـ٢ ديوان عبد الله بن المعتز، تحقيق / د / محمد بديع شريف طبع : دار المعارف .

أهلهم إلى التأسى والصبر فكل إنسان مصيره الموت وأن الدنيا دار متاع زائل ودار فناء لامحالة[١] .

وهكذا رثى الشعراء الأبناء والبنات وبكوهم وإن كان رثاء البنت قليلاً - وأذرفوا عليهم الدمع وندبوهم بكاءاً حاراً كله حزن وآلام وأوجاع وبرعوا فى تصوير صورهم وتوضيح عظم المصيبة والفجيعة التى أحلت بفقد الأبناء فضلاً عن تعداد فضائلهم وشمائلهم وماكانوا يمثلونه بالنسبة لآبائهم مكانة ومنزلة .

---

(١) ينظر على سبيل المثال لاالحصر : ص٣٠٠ جـ٢ ديوان البحترى و ص٨٦ و ص٨٦ جـ٤ ديوان أبى تمام . و ص٩٥٢ جـ٣ ديوان ابن الرومى. و ص ٢٢٣ جـ١٨ الأغانى لأبى الفرج .

رثاء الآباء والأمهات :

يعد رثاء الآباء من الموضوعات الرثائية القديمة التى عرفها الشعر العربى منذ العصر الجاهلى ، وظل فى العصر الإسلامى والأموى إلا أنه كان من الموضوعات المقلة التى لم تأخذ حقها كبقية الموضوعات الرثائية الأخرى مثل: رثاء الأبناء والإخوة والأصدقاء، وظل رثاء الأباء على هذه الحالة المقلة فى العصر العباسى الأول فلم يحتل رثاء الآباء حيزاً كبيراً من جملة شعر الرثاء الاجتماعى فى العصر العباسى الأول ولعل ذلك يرجع إلى موت الآباء دون أن يراهم الأبناء الشعراء أو موتهم قبل أن يكونوا شعراء قادرين على نظم القريض أو لأسباب أخرى غير ذلك .

المهم أن شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول احتوى بين طياته رثاء الآباء وبكائهم والتفجع عليهم وندبهم ندباً حاراً وتأبينهم وذكر فضائلهم ومناقبهم وشمائلهم وتصوير عظيم المصيبة والفجيعة التى حلت بموتهم إلا أننا لم نجد هذه الحرقة وهذا الحزن الدفين والآهات الملتهبة التى تقطع الأحشاء والأكباد فى رثائهم الآباء والتى عهدناها فى رثاء الأبناء، فقد جاء رثاء الآباء خافتا بعض الشيء فى حرارته وعاطفته عن رثاء الأبناء .

ولاضير فى ذلك فالأبناء أغلى مايملك الإنسان وأعز من فى الوجود بالنسبة لآبائهم فضلاً عن أنهم يموتون وهم فى ريعان شبابهم أو قبل الشباب مما يجعل المصيبة أو هى وأعظم .

ومن شعر رثاء الآباء فى العصر قول الشاعر أبى محمد عبد الله بن يوسف يرثى أباه فيقول :[1]

تطاول فى بغداد ليلى وضافنى ... نزيلاً جوى بين الحشا والترائب
أناخا على صبرى فخلى مكانه ... لفقد أب بر جزيل المواهب

---

(١) ص٢٣٨ الأوراق ، للصولى .

أبـا جعفــر ياخيـر وائـل كلهــا إذا نزلــت بالنــاس إحـدى النوائب
وحاميهــم إن صبحتهــم مغيــرة عليهــا المنايــا فى صدور الكتائب
فتــى كان مثل السيف إن هزمنــه أتـى حـده دون الطلى والغـوارب
لـه شيمـة عنـد المحامـة فظـة تشيـم العـدا منهـا بـروق المعاطب
وتملكـه عنـد النـدى أريحيـة تحكـم فـى أموالـه كل راغب
تخـال بـه ليثـاً وغيثـاً وسنـة مـن البدر تجلو مسدفات الغياهب
إذا يـده بلـت بقائـم سيفـة هـوت قمـم الأعداء من كل جانب
وليـس بنـاج منـه قـرن يريده ولو حل بيـن الجاريـات الثواقـب
سـلامٌ علـى قبـر تضمن شلوه وجـادت عليـه هاطلات السحائب
بمثل ندى كفيـه أو مثـل عبرتـى عليـه فـرواه حيـاً غيـر ناضـب

يرثى الشاعر أباه ويعلن عن حزنه وأساه لفقده، هذا الأب الفقيد الذى أورث الشاعر السهر وعدم الراحة وأورثه الحزن الدفين بين حشاياه وترائبه، هذا الأب الذى كان عظيماً فى قبيلته وأهله شجاعاً مقداماً بحميهم ويرد عنهم الأعداء إن أصابهم مكروه، هذا الأب المقاتل الذى أفزع الأعداء بشجاعته وشدة بأسه، ومع شجاعته وقوة بأسه يتسم بالندى والأريحية، ثم يسلم الشاعر على قبر أبيه ويدعو له بالسقيا على عادة الشعراء العرب القدامى .

فالمرثية تقليدية فى صورها ومعانيها وأفكارها، وهى تأبين للفقيد وتعداد لفضائله ومميزاته وشمائله تسودها عاطفة حزينة صادقة كلها أسى وتحسر على هذا الأب الفقيد.

ويروى أنه قيل للشاعر حينما رثى أباه بهذه الأبيات : "وصفت أباك بالشجاعة والقتال وهو كاتب جبار ! فقال : والله ماوصفته إلا بما فيه ولقد حججت معه سنة فخرج علينا أعراب فما كان فى القافلة أشجع منه ، قتل فارساً وأسر فارساً ولكنه كان يكتم هذا ولايذكره"(١) .

(١) ص٢٣٨ الأوراق .

ويقول عبد الله بن المعتز يرثى أباه المعتز بالله :[١]

ربّ حتف بين أثناء الأمل ... وحياة المرء ظل ينتقل
لو نجا شىء نجت ضاربة ... تهجر السهل وتحتل القلل

إلى أن قال يرثى أباه :

أين من يسلم من صرف الردى ... حكم الموت علينا فعدل
وكأنا لا نرى ما قد نرى ... وخطوب الدهر فينا تتصل
إن بالكامل لى ذا حفرة ... سوف أبكيه بأطراف الأسل
ربما فوق سرير خلته ... عاقداً حبوته فوق جبل
ليديه بنداه عجل ... وله فى البطش والسطو مهل
ويرى القتل بقاء ثابتاً ... ويرى الموت قبيحاً بالرجل
إن يكن خضبه أعداؤه ... بدم فالدم حناء البطل
ولقد خلف منى بعدهم ... لهم صل أعاد أى صل
فرويداً بظلام صبحه ... فهى الأيام والدهر دول
كم أخ لى لم يلده والدى ... وابن قربى كان هما ووجل
ولقد أعجب من ذى بخل ... منع الناس نداه وسأل
كم بدار الموت من ذى إربة ... عجزات منه عن الموت الحيل
وملوك بليت أيديهم ... ولقد كانت مطايا للقبل
يا مكل العيش فى ديمومة ... يتبع الأمال كالباغى المضل
إن مفتاح الذى تطلبه ... بيد المقدار فاصبر واتكل
فرغ الله من الرزق ومن ... مدة العمر ومن وقت الأجل

هذه الأبيات من قصيدة مقيدة فى "الرمل" يتحسر فيها ابن المعتز لمقتل أبيه الذى قتل وخضب بدمه وتسير خيوط الحزن بين أبياتها متشابكة، فالحزن فيها دفين والألم فيها مسيطر إلا أن الشاعر يتجلد ويتكلف الصبر تكلفاً ويحاول أن يعزى نفسه فأبوه

---

(١) ص٣٦٠ ديوان عبد الله بن المعتز الجزء الثانى .

ليس الملك الوحيد الذى اغتاله الموت فكم من ملوك بليت أجسادهم وأن الموت أمر قدره الله تعالى وهو الذى حدد الآجال .

والشاعر يؤبن أباه فيعدد فضائله وشمائله فهو الكريم الجواد الشجاع القوى، وتفوح من الأبيات ثورة عارمة على هؤلاء القتلة وأنهم لن يفلتوا من أيد القدر فالأيام دول بين الناس .
والشاعر فى رثائه مقلد للأقدمين جرى على سنن من قبله من الشعراء اقتداء بهم وأخذاً بسنتهم، فقد ضرب المثل فى مرثيته بالملوك الأعزة والأمم السالفة، ويظهر فيها التأثير بالروح الإسلامية والدين الإسلامى الذى يقر أن الآجال والأعمار مقدرة "فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون" وأن كل العباد مصيرهم الموت "كل نفس ذائقة الوت" ، ولايعد رثاء الشاعر لأبيه من قبيل الرثاء السياسى لأن الدافع للرثاء لم يكن سياسياً فقد رثى أباه بعيداً عن السياسة .

ومن رثاء الآباء فى العصر العباسى الأول ماقاله اسحاق بن إبراهيم الموصلى يرثى أباه بقوله : (١)

سلامٌ على القبر الذى لايجيبنا	ونحن نحيى ربه ونخاطبه
ستبكيه أشراف الملوك إذا رأوا	محل التصابى قد خلا منه جانب
ويبكيه أهل الظرف طراً كما بكى	عليه أمير المؤمنين وصاحبه
ولما بدا لى اليأس منه وأنزفت	عيون بواكيه وملت نوادبه (٢)
وصار شفاء النفس من بعد فقده	إفاضة دمع تستهل سواكبه
جعلت على عينى للصبح عبرة	ولليل أخرى مابدت كواكبه

---

(١) ص٦٧٢ تجريد الأغانى، القسم الأول .
(٢) أنزفت العيون : فقد ماؤها .

يرثى الشاعر أباه (إبراهيم الموصلى أحد المشهورين بالغناء فى العصر العباسى) ويبكيه بكاءً حاراً وينزف عليه الدمع ليلاً ونهاراً، ويذكر عظم المصيبة فيه حيث خلت مجالس الأنس وأهل الظرف من طربه وغنائه لذلك فهم محزونون يبكون أيضاً معه، بل سيبكيه أمير المؤمنين وحاجبه حيث كانا يستمتعان بغنائه فى مجالسهما .

والشاعر حزين باك لفقد والده وفى مخلص له حيث أخذ العهد على نفسه بأنه سيظل يبكيه حتى آخر عمره، بكاه بعاطفة جياشة صادقة حيث عبرت الأبيات عن مشاعره وأحاسيسه بكل الصدق وكل الوفاء .

ثم قال يرثيه أيضاً على عادة القدماء من طلب السقيا لقبره فيقول :

عليك سلام الله من قبر فاجع	وجادك من نوء السماكين وابل
هل أنت محى القبر أم أنت سائل	وكيف تحيا تربة وجنادل
أظل كأنى لم تصبنى مصيبة	وبالصدر من وجد عليك بلابل
وهون عندى فقده أن شخصه	على كل حال بين عينى ماثل

يبعث الشاعر التحية لقبر أبيه ويدعو له بالسقيا على عادة الشعراء العرب القدامى ويعبر عن عظم حزنه وألمه لفقده بعاطفة ملتهبة جياشة .

وإذا كان الشعراء قد رثوا آباءهم وبكوهم فإنهم كذلك عزوا أصدقاءهم وأصحابهم فى موت آبائهم وطالبوهم بالصبر والسلوان معددين صفات المرثى ومناقبه مشيدين به ومثله التى كان يتحلى بها فى حياته، مصورين عظم الفجيعة وهول المصيبة التى حلت بفقده إلا أن ذلك كان قليلاً"(٢).

---

(١) ص٦٧٣ تجريد الأغانى ، القسم الأول .

(٢) ينظر على سبيل المثال : ديوان أبى تمام ص٤٧ جـ٣ .

كما ورد فى شعرهم رثاء الخال - الذى هو بمنزلة الأب - رثاءاً لايختلف عن رثائهم لآبائهم[(١)] .

وإذا كان شعراء العصر العباسى الأول قد بكوا آباءهم ورثوهم فإنهم مع ذلك بكوا أمهاتهم ورثوهن إلا أن ذلك كان نادراً. فقليل من شعراء العصر من رثى أمه، ولم يكن مثل ماذهب إليه الدكتور على إبراهيم أبو زيد "من أن صورة الأم شغلت الحيز الأكبر من وجدان الشعراء الذين رثوا أمهاتهم"[(٢)]، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى قصور الأبناء فى رثاء أمهاتهم تقليداً للعرب فى الجاهلية الذين كانوا لايؤثرون ذلك . ولاتبلغ مراثى الأمهات ماتبلغه مراثى الأبناء من حرارة التفجع واشتعال العاطفة ولم نجد هذه الحرقة التى تتقطع لها الأحشاء وتتمزق لها الأكباد .

وممن رثى أمه من شعراء العصر العباسى الأول الشاعر ابن الرومى حيث يقول فى رثائها :[(٣)]

رأيت طويل العمر مثل قصيره	إذا كان مفضاه إلى غاية تؤم
تعضعضه الأوقات وهى بقاؤه	وتغتاله الأوقات وهى له طعم
هو الواهب السلوان والصبر وحده	لذى الرزء والمهدى الشفاء لذى السقم
طوى الموت أسباب المحاباة بيننا	فلست وإن أطنبت فيك بمهتم
رجعنا وأفردناك غير فريدة	من البر والمعروف والخير والكرم
فلا تعدمى أنسى المحل فطالما	عكفت فآنست المحاربين فى الظلم

---

(١) ينظر على سبيل المثال : الأوراق للصولى ص٢٥٢ ، وديوان ابن الرومى ص١١٣١ جـ٣ .

(٢) ص٢٩٤ صورة المرأة فى الشعر العباسى، الطبعة الأول، عام ١٩٨٣ طبع : دار المعارف بمصر .

(٣) ص٤١٧ جـ٢ ديوان ابن الرومى .

يرثى ابن الرومى أمه فلانجد بكاءً ولاندباً ولاسكبا للدموع مثل مابكى وندب وسكب الدموع أنهاراً على ولده الأوسط "محمد" (وهى القصيدة التى مرت فى رثاء الأبناء) بل نجد عزاءً من الشاعر لنفسه فهو يذكر : أن العمر مهما كان طويلاً فهو كالقصير نهايتهما واحدة وهى الموت، وأن الله تعالى هو الذى يهب الصبر والسلوان لأهل المصائب والرزايا، وأن الحياة تنهب من الإنسان دون أن يدرى فهى تغتاله حينما تريد .

ثم يذكر الشاعر أنه ترك أمه وحيدة فى قبرها يؤنسها عملها الصالح الذى قدمته فى حياتها، وأنها كانت فى حياتها معتكفة للناس وفى قبرها معتكفة كذلك .

كل ذلك يسوقه الشاعر دون حرارة عاطفة أو لهيب حزن ونيران فجيعة، بأسلوب يغلب عليه الفكر والمنطق والفلسفة، فشتان بين رثاء الشاعر لولده ورثائه لأمه تصويراً وبراعة وروعة وأفكاراً ومعان وعاطفة بل وصياغة فنية محكمة .

وكما رثى ابن الرومى أمه رثى أم غيره[١] وعزى أهلها فيها وأبنها. كما رثى خالته - التى هى بمنزلة أمه - رثاء كله فكر وفلسفة ودعوة إلى الصبر والسلوان فالموت كأس يشربه الجميع[٢] .

ومن الشعراء الذين رثوا أمهات غيرهم: الشاعر البحترى فقد رثى أم المتوكل وكانت تدعى "السيدة" وكانت أم ولد صالحة تقية كثيرة الصدقات والمعروف، فقال فى رثائها :[٣]

---

(١) ص٣٧٤ جـ١ ديوان ابن الرومى .

(٢) ص٥٤٠ جـ١ ديوان ابن الرومى .

(٣) ص١٨٨٣ جـ٣ ديوان البحترى، تحقيق / حسن كامل الصيرفى، الطبعة الثالثة، دار المعارف .

غـروب دمـع من الأجفـان تنهـل ... وحرقــة بغليــل الحــزن تشتعــل
وليس يطفىء نـار الحزن إذ وقدت ... على الجوانـح إلا الواكـف الخضـل
إن لـج حـزن فلابـدع ولاعجــب ... أو قـل صبـر فلالــوم ولاعــذل
عمرى لقد فدح الخطب الذى طرقت ... بـه الليالى وجـل الحادث الجلـل
للـه أى يـد بـان الحمـام بهــا ... منـا وأيـة نفـس غالهـا الأجـل
سيـدة النـاس حقـاً بعد سيدهــم ... ومــن لهـا المأثـرات السبـق الأول
جـرى لهـا قـدر حتـم فحـل بهــا ... مكروهــة وقضـاء موشـك عجـل
فكــل عيــن لهـا من عبـرة درر ... وكل قلـب لـه من حسـرة شغـل
عم البكاء عليهـا والمصـاب بهـا ... كما يعم سحــاب الديمــة الهطـل
فالشرق والغرب مغموران من أسف ... بـاق لفقدانهـا، والسهـل والجبـل
مثوبـة اللـه ممـا فارقـت عـوض ... وجنـة الخلـد ممـا خلفـت بـدل

يعزى البحترى المتوكل فى موت أمه ويعبر عن حزنه وألمه لما أصاب المتوكل، ثم يذكر عظم المصيبة ويوضح هول الفجيعة التى حلت بفقدها، ثم يعدد صفاتها وشمائلها ويذكر مناقبها ومحاسنها فهى : سيدة الناس، صاحبة الأعمال الجليلة، ثم يعزى الشاعر المتوكل فيذكر أنه سيعوضه الله بها جنة الخلد .

وهكذا ورد رثاء الأمهات فى شعر الرثاء فى العصر العباسى قليلاً ونادراً للسبب الذى ذكرته فى بدء الكلام عنه، ولأنه أشد الرثاء صعوبة على الشاعر لضيق الكلام فيه وقلة الصفات " كما يقول صاحب كتاب العمدة " (١) .

رثـاء الأخـوة :

يعد رثاء الإخوة من الموضوعات القديمة فى شعر الرثاء فى الأدب العربى منذ العصر الجاهلى، حيث راح الشعراء يندبون إخوتهم ويبكونهم بكاءً حاراً موجعاً، بل إن ندب الأبناء والأخـوة

(١) ص١٥٤ جـ٢ العمدة لابن رشيق .

يحتل الجزء الأكبر من رثاء الأهل والأقارب وأوجعه ألماً وحسرة وأغزره سفكاً للدموع والعبرات وأفرطه نحيباً وشجواً ونواحاً وأصدقه عاطفة وأحزنه شعوراً وإحساساً .

فرثاء الإخوة لايقل توجعاً ولوعة ولهيباً ونيراناً موقدة فى الأحشاء عن رثاء الأبناء وذلك لما للأخ من مكانة عظيمة عند أخيه فهو - كعادة العرب - ساعده الأيمن ومعينه على حوادث الدهر ومصائب الأيام فضلاً عن هذا الدم الواحد الذى يجرى فى عروق الأخ وإخوته وفضلاً عن النشأة معاً منذ الصغر فى أسرة واحدة مع أب واحد وأم واحدة وفضلاً عن العادات والتقاليد العربية الموروثة التى تنزل الأخ من أخيه منزلة عظيمة، وفضلاً عن المبادىء الإسلامية التى تعظم الأخوة وترفع من شأنها .

كل هذا كان وراء هذا الكم الكبير من رثاء الإخوة فى العصر العباسى الأول حيث راح الشعراء يرثون إخوتهم ويبكونهم بكاءً حاراً ويزرفون عليهم الدمع أنهاراً وكلهم مشاعر ملتهبة وأحاسيس متوهجة ونيراناً موقدة تخرج من أفئدتهم وأحشائهم لموت إخوتهم وفقدهم، راحوا يبكونهم ويرثونهم عن طبع وعن سجية، والمراثى إنما تقال على السجية إذا فجع الشاعر ببعض أهله، والأخوة من أعز الأهل وأعظمهم مكانة لدى إخوتهم لذا جاءت أشعار الرثاء فى الإخوة أشعاراً كلها دموع وزفرات، وآلام وآهت، وأحزان، وحسرات، أشعاراً نابعة من أعماق المشاعر وصميم القلوب بكل الصدق والوفاء والولاء الذى لايعرف الزيف أو التصنع .

ومن شعر الرثاء فى الإخوة قول أبى تمام يرثى أخاه :[1]

إنى أظن البلى لو كان يفهمه	صد البلى عن بقايا وجهه الحسن
ياموته لم تدع ظرفاً ولاأدباً	إلا حكمت به للحد والكفن

---

(١) ص١٤٦ جـ٤ ديوان أبى تمام .

لله ألحاظه والموت يكسرها كأن أجفانه سكرى من الوسن
يرد أنفاسه كرهاً وتعطفها يد المنية عطف الريح للغصن
ياهول ماأبصرت عينى وماسمعت أذنى ، فلابقيت عينى ولاأذنى
لم يبق من بدنى جزء علمت به إلا وقد حله جزء من الحزن
كان اللحاق به أولى وأحسن بى من أن أعيش سقيم الروح والبدن

يبكى الشاعر أخاه وقد حضر ساعة احتضاره ويصور ببراعة ودقة كيفية الاحتضار وصرع الموت لأخيه أمام عينيه، إنه رأى أخاه فريسة للموت، حينما هجم عليه ورأى أخاه والموت يكسر ألحاظه وينتزع أنفاسه كرهاً وغصباً، إنها مصيبة مابعدها مصيبة ومنظر يفزع الإنسان ويقطع قلبه ألماً وحسرة وهماً وكمداً حتى يتمنى الشاعر أن يلحق بأخيه ويموت مثله أولى وأحسن من أن يعيش وتعاوده هذه الذكرى الحزينة وهذا المنظر البشع الذى رآه من احتضار أخيه .

الشاعر مصور بارع استطاع أن يصور المصيبة تصويراً دقيقاً وينقل إلينا الصورة نقلاً حياً بكل مافيها من جزع وآلام وأحزان واستطاع أن يؤثر فينا تأثيراً عظيماً حيث جعلنا نحزن لحزنه ونأسى لأساه ونتوجع لوجعه بل نبكى بكاءً حاراً ونزرف الدمع أنهاراً من هذه المأساة التى لن يفلت منها كائن حى.

فأبو تمام حينما رثا أخاه رثاه وكله مشاعر ملتهبة ونيران متوهجة رثاه بكل الصدق والوفاء وبكاه بكاءً ينزف معه دمعاً ودماً، فالحزن يخيم على الأبيات والحزن يقطع فؤاده ويذيبه ويفتته .

وأبو تمام فى أبياته يبكى حقاً ولايتباكى ويذرف الدموع أنهاراً على أخيه بعاطفة صادقة جياشة واستطاع بقدرته الفائقة أن يصور هذه المأساة التى تصيب الإنسان تصويراً دقيقاً، تصويراً يترك الأثر العميق فى النفس والفكر والقلب معاً .

ويقول محمد بن أبى عينية بن المهلب بن أبى صفرة يرثى أخاه "داود" وقد مات فى طريقه إليه : (١)

أنائحة الحمام قفى فنوحى	على داود رهنا فى ضريح
لدى الأجيال من همذان راحت	به الأيام للموت المريح
ولم يشهد جنازته البواكى	فتبكيه بمنهل سفوح
وكونى مثله إذ كان حياً	جواداً بالغبوق وبالصبوح
أنائحة الحمام فلاتشحى	عليه فليس بالرجل الشحيح
ولايثمر مالاً لدينا	ولافيها بغمار طموح
يبيع كثير مافيها بباق	ثمين من عواقبه ربيح
ومن آل المهلب فى لباب	لباب الخالص المحض الصريح
همو أبناء آخرة ودنيا	وأهداف المراثى والمديح

نرى الشاعر يبكى أخاه وينوح عليه ويطلب البكاء من النائحات على أخيه، ويصور موت أخيه الذى لم تشهد جنازته البواكى حتى يبكونه ويزرفون عليه الدموع، ثم أخذ يعدد فضائل أخيه ومناقبه ويصف المصيبة وصفاً يمتزج بالأسى والشجن، فأخوه كان كريماً جواداً لم يعبأ بالدنيا ولم يعمل لها بل كان كل همه الآخرة، حيث باع الدنيا واشترى الآخرة لأنها هى الباقية وهو هنا متأثر بتعاليم الإسلام ومبادئه حيث رغب الدين الإسلامى فى العمل الصالح وتفضيل الآخرة الباقية على الدنيا الفانية .

وإذا وازنا بين هذه الأبيات والأبيات السابقة لوجدنا فرقاً كبيراً بينهما، فأبو تمام كان يبكى ولايتباكى ولايطلب البكاء لأخيه من أحد بخلاف ابن أبى عينيه الذى طلب البكاء لأخيه من البواكى، وأبو تمام يصور المصيبة ويصف الفجيعة تصويراً ووصفاً ينم عن شاعرية فنان أصيل قد خبر سبل الرثاء وطرقه، واستطاع أن

---

(١) ص١٠٢ الأغانى لأبى الفرج الاصفهانى .

يؤثر فينا تأثيراً عظيماً حيث جعل من المصيبة الخاصة مصيبة عامة لكل البشر بخلاف ابن أبي عينية، إلا أننا نلاحظ صدق العاطفة تسود النموذجين وتسيطر عليهما وإن كنا نرى عظم الحرارة وتوهجها تبدو أوضح في أبيات أبي تمام .

ويقول أشجع السلمي يرثي أخاه ويبكيه ويصور عظم مصيبته فيه فيقول : (١)

خليلي لاتستبعدا ماانتظرتما ... فغير بعيد كل ماكان آتيا
ألا تريان الليل يطوى نهاره ... وضوء النهار كيف يطوى اللياليا
هما الفتيان المرديان إذا انقضت ... شبيبة يوم عاد آخر ناشيا(٢)
وعنعني من لذة العيش أنني ... أراه إذا فارقت لهواً برانيا
كأن يميني يوم فارقت أحمداً ... أخي وشقيقي فارقتها شمالياً

الشاعر يرثي أخاه ويعلن عن حزنه وألمه إلا أنه راض بقضاء الله تعالى وقدره، فكل إنسان مصيره إلى زوال وهذه طبيعة الكون الذي خلقه الله تعالى عليها، ثم يصور عظم مصيبته في أخيه وهول فجيعته فيه فيقول : إنه ماذاق طعماً للعيش منذ فارقه أخوه وشقيقه أحمد وأحس منذ فقده أنه فقد إحدى يديه وساعديه، فالشاعر حزين متألم لفقد أخيه مصور لعظم المصيبة فيه إلا أنه صابر على المصيبة راض بقضاء الله تعالى وقدره، فكل مافي الكون مصيره إلى فناء .

وقد رثى أشجع السلمي أخاه "أحمد" بأكثر من قصيدة رثاءً حاراً باكياً يصور عظم المصيبة التي أحلت بالشاعر بسبب فقده لأخيه

---

(١) ص٢٥٣ طبقات الشعراء لابن المعتز ، تحقيق / عبد الستار أحمد فراج، الطبعة الرابعة، دار المعارف .

(٢) ناشياً : تخفيف : ناشئاً .

معلناً شدة حزنه وألمه وأسفه لفقده، باكياً عليه بدموع غزار لاينفذ دمعها مصوراً مكانة أخيه لديه وماكان يمثله بالنسبة له فى حياته آخذاً العهد على نفسه بأنه سيظل يبكيه حتى آخر الحياة(١) .

وقال "أبو محمد القاسم بن يوسف" يرثى أخاه "أحمد بن يوسف" ويبكيه فيقول :(٢)

رماك الدهر بالخطب الجليل   فعز النفس بالصبر الجميل
فإن الدهر بالحدثان رهن   وكل سالك قصد السبيل
وإن الدهر لايبقى عزيزاً   ولا تنبو يداه من الذليل
عزاءك قد حدا بأخيك حاد   ونادا المنادى بالرحيل
ومالك بعد أحمد من عزاء   ومالك بعد أحمد من ذهول
فكيف عزاء ذى قلب قريح   من الفجعات والحزن الطويل
أترجو سلوة وأخوك ثاو   ببطن الأرض تحت ثرى مهيل
تبوأ منزلاً فى دار قفر   بمدرجة السوافى والسيول
رأيت السفر غابوا ثم آبوا   وغبت فلا إياب لذى القفول
وبات الركب أو قالوا فراحوا   وكم لك من مبيت أو مقيل
ألا ابك أخاك بالدمع الهمول   لعل الدمع يبرد من غليل
يروح عنك من كمد ووجد   كثكلى تستريح إلى العويل
ومثل أخيك فلتبكى البواكى   لمهمة تلبس بالعقول

إلى أن قال :

فتى سهل الخليقة والمحيا   يعاف ويحتوى خلق البخيل
إذا استمطرت راحته فدفق   سواكبها بغيث حيا هطول
على الحالين من يسر وعسر   إذا ضن الخليل عن الخليل
ثمال للأرامل واليتامى   وللجار المجاور والدخيل
حفىٌّ بالأقارب والأدانى   كفعل الوالد البر الوصول

---

(١) ينظر على سبيل المثال الأوراق للصولى : ص١٣٢ و ص١٣٣ .
(٢) ص١٨٥ ومابعدها الأوراق للصولى .

يضمهـم إلـى كنـف رحيـب ويؤويهـم إلـى ظـل ظليـل
ويقبـل منهم الحسنـى ويعفـو عن السو أى لدى جهل الجهول

هذه الأبيات الكثيرة من مرثية طويلة للشاعر أخذ يبكى فيها أخاه بكاءً حاراً ويندبه ويتفجع عليه مظهراً حزنه ولوعته وحسرته على أخيه الفقيد الذى اختطفه الدهر الذى لايبقى عزيزاً ولاذليلاً، والشاعر يندب أخاه كأنه ثكلى فقدت عزيزاً لديها حيث أخذ ينوح ويعدد كما تنوح الثكالى وتعدد، يبكى أخاه ويندبه وكله هم وحزن بل هموم وأحزان صبت عليه صباً من حيث لايدرى ولايرى، يبكيه ويندبه معدداً فضائله ومميزاته ومناقبه. وكلها فضائل إسلامية دعا إليها الإسلام وحض عليها : فهو سهل الطبيعة والمحيا كريم جواد فى حالتى اليسر والعسر على السواء، عطوف على الأرامل واليتامى والجيران، يحب أهله ويحتفل بهم احتفالاً عظيماً كما يغمر بعطفه الأباعد من الناس، يقبل الحسنى ويعفو عن السيئات، ويحمل كلهم والثقل عنهم غير ملول ولاسؤوم .

فالرثاء هنا بكاء وتأبين، وندب وعويل ولوعة وحسرة ووصف لعظم المصيبة وهول الفجيعة وصفاً يمتزج بالشكوى والعزاء والرضا بقضاء الله تعالى وقدره وهو متأثر فى أبياته بروح الإسلام وتعاليمه وقيمه السامية .

ومن شعر رثاء الإخوة فى العصر العباسى الأول مارثى به عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى أخاه "سعيد بن عبد الرحيم" حيث قال فيه يندبه ويبكيه : (١)

فمـا أم خشـف أودعتـه قـرارة من الأرض وانساحت لترعى وتهجعا
خليـس كلون الأيهقـان ابن ليلـة أمـر قـواه أن ينـوء فيركعـا (٢)

---

(١) ص٢٧٧ طبقات الشعراء، لابن المعتز .

(٢) الخليس : الأحمر . الأيهقان : عشب ، وأمر قواه : أقوى قواه .

ويهتز فى المشى القريب كأنه — قضيب من البان التوى فترعرعا
فظلت بمستنىء الصبا من أمامه — تنغم فى المرعى إليه ليسمعا (١)
إذا أغفلت نادت وإن ناب نبأة — على سمعها تذكره طلاها فتربعا (٢)
فخالفها عارى النواهق شاسب — أخو قفرة أضحى وأمسى مجوعا (٣)
فأنهل منه بعد عل ولم يدع — للتمسى إلا شريحاً مذعذعا (٤)
فجاء برياه نسيم من الصبا — صباحاً ودر حر ثكلا فأوجعا

هذه الأبيات من مرثية طويلة للشاعر يرثى فيها أخاه رثاءً حاراً باكياً وواضح أن الأبيات تفيض بالمشاعر الصادقة واللوعة المتقدمة فى قلب الشاعر لفقده أخاه وتزخر بالحرقة والألم وتفرط فى النحيب والنواح، وهى بحق مرثاة رائعة يعجز عن مثلها كثير من الشعراء ولاتصدر إلا من قلب مكلوم موجع وفؤاد مهموم ملتاع، إلا أننا نرى الشاعر قد جلب لأبياته كثيراً من الألفاظ الغامضة التى تحتاج إلى معاجم اللغة لينشرها القارىء بين يديه فيعرف معانيها، وهى مع ذلك تعد من عيون قصائد الرثاء فى العصر العباسى الأول، لروعة صورها ومعانيها وبراعة تصويرها وإحكام صنعتها وأسلوبها فضلاً عن هذه العاطفة الجياشة الموغلة فى الصدق والمعبرة عن المشاعر والأحاسيس الدفينة .

هذا والأمثلة كثيرة ومتنوعة فى شعر العصر العباسى الأول فى رثاء الإخوة من جانب إخوتهم الشعراء الذين رزئوا بهم وأصيبوا فيهم بموتهم .

---

(١) مستن الريح : موضع جريها .
(٢) ناب : من نبأ بمعنى : صوت صوتاً خفيفاً . النبأة : الصوت ليس بالشديد . والطلى : ولد الظبى وتربع : تتوقف .
(٣) النواهق : العظام الشاخصة بجوار العين . الشاسب : الضامر اليابس وبريد : الذئب .
(٤) المزعزع : المبدد المفرق .

وإذا كان كثير من شعراء العصر قد رثوا إخوتهم وبكوا عليهم فإن هناك بعض شاعرات العصر قد رثين إخوتهن وبكين عليهم بكاءاً حاراً مصورين عظيم المصيبة وهول الفجيعة التى حدثت لهن بموت إخوتهن والأخت أكبر رزءاً وأعظم مصيبة فى فقدها لأخيها نظراً لعاطفتها الرقيقة المرهفة ونظراً لما يمثله الأخ من مكانة كبيرة عند أخته، فهو ساعدها الأيمن ومعينها وحاميها فضلاً عن رباط الدم الذى يجمع بينهما والألفة والعشرة الطويلة التي ألفت بينهما منذ النشأة مع والديهما، والمرأة أكثر إذرافاً للدمع وأعظم حرقة وأشجى نحيباً وعويلاً من الرجل نظراً لفطرتها وطبيعة تكوينها .

ولعل أروع أبيات قيلت من أخت فى رثاء أخيها فى العصر العباسي الأول مارثت به "ليلى بنت طريف" أخاها "الوليد بن طريف" (وهو رأس الخوارج وأشدهم بأساً وصولة أيام "هارون الرشيد" الذى أهمه أمره فوجه إليه يزيد بن مزيد بن زائدة الشيبانى" وقاتله حتى ظفر بالخوارج وأخذ رأس "الوليد بن طريف"[(١)] .

وتقول ليلى فى رثاء أخيها :[(٢)]

بتل نباتى رسم قبر كأنه	على علم فوق الجبال منيف
تضمن جوداً حاتمياً ونائلاً	وسورة مقدام وقلت حصيف
ألا قاتل الله الجثا كيف أضمرت	فتى كان بالمعروف غير عفيف[(٣)]
فإن يك أرداه يزيد بن مزيد	فيارب خيل فضها وصفوف
ألا بالقوم للنوائب والردى	ودهر ملح بالكرام عنيف
وللبدر من بين الكواكب قد هوى	وللشمس همت بعده بكسوف
فياشجر الخابور مالك مورقاً	كأنك لم تحزن على ابن طريف

---

(١) ينظر تجريد الأغانى ص١٣٧٣ ومابعدها .

(٢) ص١٣٧٤ - ١٣٧٥ تجريد الأغانى .

(٣) الجثا : جمع جثوة وهى مايتجمع من حجارة أو تراب .

فتى لايحب الزاد إلا من التقى ... ولا المال إلا من قنا وسيوف
ولاالخيل إلا كل جرداء شطبة ... وكل حصان باليدين عزوف[1]
فلا تجزعا ياابنى طريف فإننى ... أرى الموت وقاعاً بكل شريف
فقدناك فقدان الربيع وليتنا ... فديناك من دهمائنا بألوف

هذه مرثية رائعة من مراثى الشاعرة - ليلى بنت طريق المسماة بالفارعة .. الخارجية المذهب مثل أخيها - لأخيها الوليد بن طريف الذى قتلته جيوش "هارون الرشيد" بقيادة "يزيد بن مزيد" حيث أخذت ترثى أخاها وتبكيه بكاءً حاراً وتذرف الدمع عليه أنهاراً مثلماً فعلت الخنساء مع أخويها صخر ومعاية .

تبكى الفارعة أخاها وكلها أحزان وأوجاع إلا أنها تبكيه فى شموخ وعزة وأنفة، وهى وإن كانت تبكيه وتندبه فإنها كذلك أظهرت شموخ أخيها وعظمته وعزته وشجاعته، فهو وإن قتل بيد "يزيد بن مزيد" فإنه كثيراً ماقتل الشجعان وبدد الصفوف .

والشاعرة فى رثائها لأخيها تصور عظم الفجيعة وهول المصيبة وتعدد صفات المرثى وتذكر فضائله ومناقبه، فهو الجواد المقدام صاحب المعروف والبر والتقوى، والشاعرة من شدة حزنها على أخيها ترى الحزن قد سيطر على الكون وخيم على الوجود، فهى تجزع عندما ترى شجر الخابور مورقاً نضرا فلم لم يحزن على أخيها ؟ ولماذا لم يتساقط أوراقه حزناً وألماً عليه ؟

إنها عاطفة مابعدها عاطفة، عاطفة الحزن وعاطفة الحب العنيفة معاً عاطفة الحزن على أخيها وعاطفة الحب الشديد لأخيها الذى أحبته بكل ماتملك .

---

(١) الجرداء: القصيرة الشعر وهو وصف مستحب. الشطبة : السبطة اللحم، وقيل : الطويلة . والغروف : التى تغرف الجرى غرفاً فتنهب الأرض نهباً فى سرعتها .

وهناك بعض شاعرات العصر الأخريات ممن بكين على إخوتهن(١) ورثتهم إلا أن الفارعة كانت أروع وأبرع شاعرة فى عصرها رثت أخاها حيث رثته بكل مشاعرها وأحاسيسها، مصورة حزنها وعظم مصيبتها تصويراً رائعاً بأسلوب محكم النسج متين العبارة واضح الألفاظ والعبارات .

وإذا كان شعر العصر العباسى الأول قد عرف رثاء الإخوة وأجاد فيه وأكثر وبرع فإنه قد عرف رثاء غير الأخوة من الأهل كرثاء ابن العم الذى هو بمنزلة الأخ(٢)، ورثاء إخوة الغير(٣) ، ورثاء غيرهم من الأهل والأقارب .(٤)

وهكذا كان رثاء الإخوة من أكثر موضوعات الرثاء فى العصر العباسى الأول وأروعه ندبا وبكاء وأصدقه عاطفة ولوعة، بل إن رثاء الأبناء والإخوة يستوفى أكثر الصفحات المخزونة من ندب الأهل والأقارب (٥) .

---

(١) ينظر على سبيل المثال : تجريد الأغانى ص٩٦١ . ونزهة الجلساء ص٣٦ .

(٢) ص١٣١ جـ٢٠ الأغانى . و ص٢٠٨٩ تجريد الأغانى .و ص٧٢ جـ٣ المنتخب .

(٣) ينظر ص٢٥٧ جـ٣ ديوان أبى تمام. و ص١٢٢٦جـ٣ ديوان ابن الرومى.

(٤) ينظر ديوان البحترى ص١٠٢٩ جـ٢ على سبيل المثال .

(٥) جـ٢٤ الرثاء .

رثاء الأزواج والزوجات :

رثاء الأزواج والزوجات موضوع من موضوعات الرثاء القديمة التى عرفها الشعر العربى إلا أنها قليلة لاتبلغ رثاء الأبناء والإخوة وبقى كذلك فى العصر العباسى الأول وإن أخذ حيزاً أكبر مما كان قبل ذلك وربما يرجع السبب فى قلة رثاء الأزواج فى العصر العباسى الأول حياء النساء الشاعرات من رثاء أزواجهن بعد مماتهم فضلاً عن قلة النساء الشاعرات عن الرجال فى العصر.

ويرجع السبب فى قلة رثاء الأزواج لأزواجهن فى العصر أن رثاء الزوجة لايصدر إلا عن زوج صادق فى حبه لزوجته وفىٌ لها حتى بعد مماتها كما كان وفياً مخلصاً لها وهى معه فى الحياة وعصر كالعصر العباسى الأول يقل فيه أمثال هؤلاء الشعراء لطغيان حياة اللهو والمجون والفحش والتهتك والخلاعة خاصة بين الشعراء، ويرجع ذلك إلى أن بعض الشعراء لم يتزوج وقضى حياته ماجناً عابثاً مثل: أبى نواس، وكثير من شعراء العصر العابثين لم يرثوا زوجاتهم لأنهم عاشوا حياة لاهية عابثة متخذين الصواحبات والعشيقات مثل "بشار بن برد" ووالية" ومطيع بن إياس" ومن سلك مسلكهم من شعراء اللهو والمجون فهؤلاء الشعراء الذين ملأوا الدنيا تهتكاً بمجونهم وأشعارهم الفاحشة فى الغزل والخمر والعبث لم يتعرضوا لرثاء زوجاتهم ولو بالقليل من الشعر .

ومع ذلك نجد بعض شعراء العصر يرثون زوجاتهم رثاءاً حاراً باكياً : أمثال : "ديك الجن" وابن الزيات "وأبى تمام" وابن الرومى" وغيرهم من شعراء العصر العباسى الأول وعلى الجملة فإن الزوجة كانت أكثر النساء رثاءاً وبكاءً من جانب الرجال فكان رثاؤها أكثر من رثاء الأمهات والبنات لأن الشاعر كان يرثى فيها حبيبته وصاحبته وأم ولده .

ورثاء الأزواج أقل من رثاء الزوجات في العصر فلم تكن المرأة أكثر وفاءً للرجل منه إليها، ومن رثاء الأزواج قول لبابة بنت على المهدى" ترثى زوجها "الأمين بن الرشيد" حينما قتل قبل أن يدخل بها فقالت ترثيه :

أبكيك لا للنعيم والأنس   بل للمعالى والرمح والفرس
أبكى على فارس فجعت به   أرملنى قبل ليلة العرس
يا فارساً بالعراء مطرحاً   خانته قواده مع الحرس
من لليتامى إذا هم سغبوا   وكل عان وكل محتبس ؟
أمّن لبر أمّن لفائدة   أمّن لذكر الإله والغلس ؟(١)

المرثية بكاء حار وندب وتحسر على الزوج من زوجته، فهى تزرف الدمع عليه وتتحسر وتتوجع لفقدها زوجها، وتعدد لفقدها حبيبها هذا الحبيب الذى تبكيه للمعالى لا للنعيم والأنس، إنها تبكى فارساً فجعت به وأرملها قبل أن يدخل بها، ثم أخذت تعدد فضائل زوجها الفقيد : فقد كان فارساً ويكرم اليتيم ويعين كل محتاج وكان صاحب الأعمال الصالحة دائم ذكر الله .

إن الأبيات تفوح منها نيران الحزن الموجع والحسرة الكبيرة وتخرج منها الآهات والآلام التى تعبر عن حزن عميق أصاب الزوجة لفقدها زوجها، إنها عاطفة الحزن الصادقة التى عبرت عن مشاعر الزوجة وأحاسيسها بكل الصدق والوفاء والولاء لزوجها بعد أن واراه التراب .

وهذه "بوران بنت الحسن بن سهل" زوجة "المأمون" ترثيه بقولها(٢) :

---

(١) ص٧٦ نزهة الجساء فى أشعار النساء، للسيوطى، تحقيق / عبد اللطيف عاشور، طبع : مكتبة القرآن بالقاهرة .

(٢) ص٣٣ نزهة الجلساء فى أشعار النساء .

أسعداني على البكا معلنينا	صرت بعد الإمام للهم قينا
كنت أسطو على الزمان فلما	مات صار الزمان يسطو علينا

صرخة بكاء ولطمة حزن تبعثها الزوجة على زوجها بعد أن فقدته فأورثها الهم والحزن طيلة حياتها .

وهذه فتاة رأت زوجها ميتاً فشهقت ثم أخذت ترثيه وتقول :

ياحسن لو بطل لكنه أجل	على الأثاية ماأودى به البطل [(١)]
ياحسن جمع أحشائي وقلقلها	وذاك ياحسن لولا غيره جلل
أضحت فتاة بني نهد علانية	وبعلها فوق أيدي القوم يحتمل

ترثي الزوجة زوجها وكلها حزن وحسرة وتعبر عن عظم حزنها بأن موت زوجها قد هزها وصدمها وأنها لاتستطيع أن تراه وهو محمول على أيدي الرجال لمثواه، إنها عاطفة الحزن الصادقة من الزوجة لزوجها .

أما رثاء الأزواج لزوجاتهم فهناك نماذج جيدة بكى فيها الشعراء زوجاتهم بكاءاً حاراً مصورين شدة جزعهم وحسرتهم نحوهن، ومن ذلك رثاء مسلم بن الوليد لزوجته التي جزع عليها جزعاً شديداً حين ماتت وتنسك بعد موتها مدة طويلة وعزم على ملازمة ذلك، فأقسم عليه بعض إخوانه ذات يوم أن يزوره ففعل فأكلوا وقدموا الشراب فامتنع عنه مسلم وأباه وأنشأ يقول :[(٢)]

بكاء وكأس كيف يتفقان	سبيلاهما في القلب مختلفان
دعاني وإفراط البكاء فإنني	أرى اليوم فيه غير ماتريان
دت والثرى أولى بها من وليها	إلى منزل ناء لعندك دان
فلاحزن حتى تذرف العين ماءها	وتعترف الأحشاء للخفقان
وكيف بدفع اليأس للوجد بعدها	وسهماهما في القلب يعتلجان

---

(١) الأثاية : موضع في طريق الجحفة بين الروثية والعرج، ص١٠٢١ تجريد الأغاني. القسم الأول .

(٢) ص٦٠ - ٦١ جـ١٩ الأغاني طبعة : دار الكتب .

يرثى مسلم بن الوليد زوجته ويعبر عن عظم حزنه وأساه فى هذا الموقف الذى دعى إليه مع صديقه. رثاها ولم يشعر بالحرج أمام صديقه وأعلن حزنه وأساه صراحة بل أذرف الدمع ولم يترفع مما يدل على صدق الشاعر فى رثائه لزوجته وعظم وفائه لها. فالمرثية تعبير عن الحزن والأسى واعتراف صريح بحب الشاعر ووفائه لزوجته حتى بعد وفاتها، إلا أنه لم يذكر فضائلها أو يعدد مناقبها ومثلها واكتفى بالتعبير عن حزنه وحسرته على زوجته، وهذه الأبيات هى كل ماقاله مسلم فى رثاء زوجته، فلم يعثر له على رثاء غيره نظمه فى الزوجة.

ومن أروع مارثى به الزوجات وأشجاه وأشده تأثيراً فى القلب وإثارة للحزن مرثية "ابن الزيات" فى زوجته حيث يقول فيها :(١)

ألا من رأى الطفل المفارق أمه ... بعيد الكرى عيناه تبتدران
رأى كل أم وابنها غير أمه ... يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبت وحيداً فى الفراش تحثه ... بلابل قلب دائم الخفقان
ألا إن سجلاً واحداً قد أرقته ... من الدمع أو سجلين قد شفيانى
فلا تلحيانى إن بكيت فإنما ... أداوى بهذا الدمع ماتريان
وإن مكاناً فى الثرى خط لحده ... لمن كان فى قلبى بكل مكان
أحق مكاناً بالزيارة والهوى ... فهل أنتما إن عجت منتظران؟
فهبنى عزمت الصبر عنها لأننى ... جليد، فمن بالصبر لابن ثمان؟؟
ضعيف القوى لايعرف الأجر حسبة ... ولايأتسى بالناس فى الحدثان
ألا من أمنيه المنى فأعده ... لعثرة أيامى وصرف زمانى
ألا من إذا ماجئت أكرم مجلس ... وإن غبت عنه حاطنى ورعانى
فلم أر كالأقدار كيف تصيبنى ... ولامثل هذا الدهر كيف رمانى

إلى أن قال :

ألا أن ميتاً لم أزره لشدة ما ... تلبس من قلبى به وعنانى
ألا أن ميتاً لم أزره لغرما ... تضمن منه فى الثرى الكفنان

---

(١) ص١٥٦ - ١٥٧ ج٢ العمدة لابن رشيق الطبعة الرابعة ١٩٧٢ تحقيق/ محمد محى الدين عبد الحميد ، دار الجبل ببيروت .

فالمرثية بكاء حار وعويل من الشاعر على زوجته، وهى مرثية تذيب القلب وتفتت الكبد ألماً وحسـرة على موت هذه الزوجة التـى رحلت وخلفت وراءها طفلاً صغيراً يبحث عنها فلايجدها فيبكى ليله. والمرثية فيها اللوعة والولع، لوعة الزوج الذى أوشك على الموت حزناً وحسرة على زوجته، وولعه بزوجته التى كان يحبها حباً جماً بل مازال حبها يسكن سويداء قلبه بعد رحيلها عنه .

والشاعر مخلص وفى لزوجته أعلن حزنه وأساه عن طبع وسجية وترك نفسه على طبيعتها معلنة عن عظم مصيبتها وكبر رزئها وفجيعتها حتى انه لم يعد يحتمل أن يزور قبرها، ويرى أنها فى قلبه دائماً لن ينساها طيلة حياته فهى مدفونة فى القلب لافى القبر .

ونرى الشاعر مجدداً فى مرثيته نائياً بها عن التقليد وتكرار مايقوله الشعراء فلم يعدد صفاتها أو يذكر شمائلها أو دعى إلى الصبر والتأسى أودعا بالسقيا لقبرها بل ترك العنان لنفسه تقول ماتشاء وتفصح عما يداخلها من آحزان دفينة حسبما تريد .

كذلك يلاحظ على الأبيات تركيز الشاعر على طفله الذى تركته أمه باحثاً عنها باكياً عليها، بينما يرى الأطفال من حوله وقد حضنتهم أمهاتهم .

فالمرثية رائعة فى صورها وأفكارها ومعانيها واستطاع الشاعر أن يهز لها الوجدان ويحرك بها المشاعر والقلوب ويسيل بها الدمع أنهاراً، إنها مأساة مابعدها مأساة ولوعة حقيقية بل هى مأتم منصوب لاينقضى .

وممن رثوا زوجاتهم فى هذا العصر أيضاً "ابن الرومى" حيث رثاها بأكثر من قصيدة ويعد من أبرز شعراء العصر رثاء لزوجاتهم، ومما رثى به زوجته قوله :

---

(١) ص٣٠٥ جـ٢ ديوان ابن الرومى .

عينـــي جـــودا علــى حبيبكمـــا   بالسجـل فالسجل من حبيبكمـا
فاستغـــزرا درة الشـؤون علــى   بدركمـا بـل علــى قيضكمـــا
هـــذا فــؤادى والـرزء رزؤكمـا   يبكـى لـه غيـر مستثيبكمـــا
فاستنكفا أن يكون غيـــر كمـــا   أبكـى لما فـات من نصيبكمـــا

يبكى ابن الرومى زوجته ويدعو عينيه أن تجود بالدمع كعادة الشعراء القدامى .

ويعلن عن حزنه وألمه لفراق زوجته، وشتان بين هذه المرثية ومرثية ابن الزيات فى زوجته فمرثية ابن الزيات أبرع وأروع تصويراً وصوراً وأفكاراً ومعان وصدق عاطفة من مرثية ابن الرومى .

وللشاعر نماذج أخرى فى رثاء زوجته على هذا النمط[1] .

رثـــاء الجـــوارى :

كثر الرقيق فى العصر العباسى الأول وازداد عددهم ازدياداً واضحاً وامتلأت القصور العباسية والأديرة والحانات بهذا الجنس من الرقيق من عبيد وإماء، إلا أن رقيق النساء كان أكثر عدداً وأعظم كثرة من رقيق الرجال وامتلأت بهن قصور الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة وفضلهن كثير من الرجال على الحرائر من النساء لأنهن كن من أجناس مختلفة، وتنافس الخلفاء وغيرهم من رجال الدولة على امتلاك أكبر عدد منهن وأكبوا عليهن إكباباً يسابقهم الخلفاء والوزراء حتى يروى أن الخليفة المتوكل كان يمتلك منهن أربعة آلاف جارية"[2] بل كانت الزوجة تهدى إلى زوجها معرضاً من الجوارى مثلما فعلت زبيدة مع الرشيد .

---

(١) ينظر ديوانه جـ١ ص٧٩ و جـ٣ ص١١٣٨ و جـ٥ ص٢١٣٠ .
(٢) ص٤٠ جـ٤ مروج الذهب للمسعودى .

وكان لهذه الكثرة من الجوارى فى العصر العباسى الأول أثر كبير فى الحياة الاجتماعية، حيث كثر نسل الجوارى واختلطت الدماء حتى الخلفاء أنفسهم كانوا فى هذا العصر من نسل الجوارى، وقال ابن حزم فى نقط العروس "لم يل الخلافة من بنى العباسى من أمة حرة حاشاً السفاح والمهدى والأمين"(١) .

وكانت كثير من هؤلاء الجوارى على ثقافة عالية وعلم كبير مما مما قربها من قلوب الشعراء وأستأثرت بقلوبهم ونظموا فيهن أشعاراً كثيرة تعبر عن عظم حبهم لهن فى حياتهن وأشعاراً تبكى عليهن وترثيهن بعد وفاتهن، وكان للجارية نصيب كبير من شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول ربما يفوق رثاء الزوجات والبنات والأخوات وقد يرجع هذا إلى الكثرة الغالبة لهذا النوع من النساء وإلى تعلق قلب الشاعر بأكثر من جارية منهن وإلى عدم تحرج الشاعر من رثاء الجارية وإلى تشجيع الخلفاء العباسين وطلبهم من الشعراء أن ينظموا شعراً فى رثاء جواريهم .

فكان للجارية نصيب كبير من وفاء أصحابهن ومحبيهن حتى كثر شعر شعراء العصر فيهن رثاءاً وبكاءً وندباً وتعبيراً واضحاً عن حزنهم البالغ تجاه هؤلاء الجوارى، اللاتى أصبحن عنصراً من أهم عناصر المجتمع الرفيع وأسطعه .

يختلف شعر الرثاء فى الجوارى عن شعر التغزل بهن حيث يخلو من الفحش والاسفاف والابتذال فكان يلتزم الشاعر بالمعانى الجادة البعيدة عن الهزل والإسفاف، إلا أن الشعراء قد تعرضوا لوصفهن وتصويرهن بالشمس والقمر وماإليها التصويرات التى

(١) ص١٢٤ ظهر الإسلام لأحمد أمين، الجزء الأول، الطبعة الخامسة عام ١٩٧٨م .

عرفت فى شعر الغزل وذلك مثل قول أبى نواس يرثى جارية: (١)

أقــول لقبــر زرتــه متلثمــاً سقى اللـه برد العفو صاحبة القبر
لقد غيبوا تحت الثرى قمر الدجـى وشمس الضحى بين الصفائح والقفر
عجبت لعيـن بعدهـا ملت البكـا وقلب عليهـا يرتجى راحـة الصبـر

فهذا أبو نواس الذى لم نعثر له على رثاء لابن أو ابنة أو زوجة أو أخت يرثى جارية من الجوارى ويعبر عن حزنه وألمه لفقدها بل نراه باكياً مكثراً لبكائها ولايعرف الصبر قلبه لفراقها.

وأبو نواس يدعو الله لجاريته بأن يعفو عنها ويغفر لها وهو فى ذلك متأثر بالروح الإسلامية والمبادىء الإسلامية إلا أنه قد شبهها بقمر الدجى وشمس الضحى حسناً وجمالاً .

ويقول أبو تمام يرثى جارية له توفيت : (١)

ألم ترنى خليت نفسـى وشانهـا ولـم أحفـل الدنيا ولاحدثاً فيها ؟
لقد خوفتنى النائبـات صروفهـا
وكيف على نار الليالى معـرس
أصبت بخود سوف أغبر بعدهـا حليف أسىً أبكى زمانـاً زمانهـا
عنان من اللذات قد كان فى يـدى فلـما مضـى الإلـف استردت عنانها
منحت الدمى هجرى فلا محسناتها أود ولايهــوى فــؤادى حسانهــا
يقولون : هل يبكى الفتى لخريدة متـى ماأراد اعتاض عشراً مكانها ؟
وهل يستعيض المرء من خمس كفه ولــو صاغ من حر اللجيــن بنانهـا ؟

أبو تمام حزين متألم لفقده جاريته فهو لم يعبأ بالدنيا ولم يعد لها طعم عنده بعد فراق جاريته التى تركته، إنه يبكى جاريته ويتأسـف لموتهـا ويعلـن أنـه سيظل حزينـاً عليها باكيـاً على أيامهـا

---

(١) ص٢٨٠ جـ٣ العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلس .

(٢) ص١٤٢ جـ٤ ديوان أبى تمام . و ص٢٢ جـ٥ نهاية الأرب للنويرى .

الماضية طيلة زمانه، ويرى أنها أثيرة عنده ولم يقدر أن ينساها ولايستطيع قلبه أن يهوى غيرها من هؤلاء الحسان الناعمات، إنها قد أصبحت جزءاً من جسده ولايستطيع أن يحل محلها سواها حتى ولو كانوا عشرة من الحسان الناعمات وكما أن المرء لايستطيع أن يستعيض عن إصبع من أصابعه فكذلك هو لايستطيع أن يستعيض عنها .

إنه الوفاء الحق الذى مابعده وفاء والحب الصادق المخلص فهو لم يستطع أن يفرط فى حبه لجارتيه حتى بعد وفاتها، بل إنه أسف وحزن حزناً شديداً وبكى عليها بكل الصدق والحب والوفاء .

والشاعر يمزج عاطفته بفلسفة الطبيعة، فالشىء الذى فقد لايمكن أن يعوضه شىء آخر مهما كانت قيمة هذا الشىء .

ومن الشعراء الذين رثوا جواريهم الشاعر "عبد السلام بن رغبان" ديك الجن" الذى رثى جارية له اسمها "دنيا" وكان يهواها فاتهمها بغلامه[١] وصيف وقيل إنه اتهمها بأخيه[٢] فقتلها ثم ندم على ذلك وقال يرثيها : [٣]

يامهجة جثم الحمام عليها	وجنى لها ثمر الردى بيديها
رويت من دمها التراب وربما	روى الهوى شفتى من شفتيها
حكمت سيفى فى مجال خناقها	ومدامعى تجرى على خديها
فوحق نعليها لما وطىء الحصى	شىء أعز على من نعليها
ماكان قتليها لأنى لم أكن	أخشى إذا سقط الغبار عليها
لكن بخلت على الأنام بحسنها	وأنفت من نظر العيون إليها

---

(١) ص١٨٦ جـ٣ وفيات الأعيان لابن خلكان .

(٢) ص١٤٩ جـ٢ العمدة لابن رشيق .

(٣) ص١٨٦ جـ٣ وفيات الأعيان وص١٤٩ جـ٢ العمدة .

يرثى الشاعر جاريته وكله حزن وأسى لفراقها وندم وألم لقتله إياها، ثم يصور كيفية قتله لها وسبب هذا القتل، فقد أحكم سيفه فى مجال خناقها ودموعه تجرى على خديها. قتلها بسبب حبه الشديد لها فقد كان يغار عليها غيرة شديدة حتى من هذا الغبار لو سقط عليها ومن نظر عيون الآخرين إليها، إنه الحب العنيف الذى يؤدى بصاحبه إلى الشر الذى لايدفع وإلى الخطأ الذى لايمنع .

ولم يقتصر رثاء الجوارى على رثاء شعراء العصر لجواريهم بل كثيراً ماكان يرثى الشعراء هؤلاء الجوارى على لسان الخلفاء العباسيين حينما كانوا يطلبون منهم ذلك، وهذا يؤكد الدور العظيم ومكانة الجارية عند الخلفاء العباسيين وتعلقهم العظيم بهؤلاء الجوارى .

ومن هذا القبيل ماجاء فى ديوان العباس بن الأحنف فى رثاء ثلاث جوارٍ فقدهن الخليفة الرشيد. إحداهن "هيلانة" حيث رثاها بأربعة أبيات والثانية "ضياء" حيث رثاها بثلاثة أبيات والثالثة لم يذكر اسمها رثاها بأربعة أبيات" .

فمن قوله فى رثاء "هيلانة" على لسان الرشيد : (١)

أأبغى حباً من بعـد هيلانـةٍ إذا	أرانى ملغى من وفـاء الحبائـب
سأوحش قلبى بعدها من سروره	وأونس عينى بالدموع السواكب
إذا ذرفـت عينـى لحـر مصيبةٍ	تمثلـت قـول المبتلى بالمصائـب
أجـدك ماتعفـو كلـوم مصيبـةٍ	على صاحبٍ إلا فجعت بصاحب

يرثى العباسى بن الأحنف جارية الرشيد "هيلانة" رثاء رسمياً ليس تابعاً من أحاسيسه ومصائبه فهو لم يعبر عن حزنه هو بل يعبر عن حزن الخليفة وأسفه لفراق جاريته مما لم يجعل للأبيات حرارة وحرقة فى عاطفتها.

---

(١) ص٧٩ ديوان العباسى الأضف . طبعة : دار صادر بيروت

وقال العباسى بن الأحنف يرثى "ضياء" جارية الرشيد :[١]

ألا إن صفو العيش بعدك أكدر ... وكل نعيم سوف يقلى ويهجر
لعمرى لنعم المستغاث به البكاء ... إذا فنى الصبر الذى كان يذخر
سأبكى ضياءً مستقلاً لها البكا ... ويسعدنى يحى وفضل وجعفر

فالشاعر فى رثائه للجارية يذكر أثر فقدها فيرى أن الحياة من بعدها كدرة لاتصفو صفاء وجودها، وأن كل نعيم زال وانتهى بانتهائها، ويذكر تأثر حياة المتعة عن الخليفة الرشيد لغياب جاريته ضياء، ومما لاشك فيه أن الأبيات تفقد صدق العاطفة وحرارة المشاعر وتوهج الأحاسيس فقد نظمت تعبيراً لشعور شخص آخر ولم تنظم للتعبير عن شعور الشاعر وأحاسيسه ومشاعره الذاتية .

وللشاعر مرثية أخرى على لسان "الرشيد" فى جارية له ذكر فيها الشاعر الأثر الذى تركه فراق الجارية على الخليفة وأن الخليفة لم يعد يرى هذا الأنيس الذى كان يؤنسه وأن الخليفة حزين لفراقها ولو استطاع أن يفتديها من الموت بكل مايملك لافتداها .[٢]

ومن هذا القبيل قول الشاعر "أبان اللاحقى" يرثى "هيلانة" جارية "الرشيد" على لسانه :[٣]

أعينى لقد جار الزمان فجودى ... ولاتطلبا لى راحةً بجمود
لقد بت ياهيلان منى فقيدة ... ورب قريب بان غير فقيد
سقى الله دهراً كان يجمع بيننا ... ويرغم فيه أنف كل حسود
تمر لنا طير الزمان سوانحاً ... وأنجمه تجرى لها بسعود
ففقدك ياهيلان كدر عيشتى ... وأخلق من دنياى كل جديد

---

(١) ص١٧٨ ديوان العباسى بن الأحنف .
(٢) ينظر ديوان العباسى بن الأحنف ص٢٣٤ .
(٣) ص١٨ الأوراق للصولى .

فالشاعر يرثى الجارية على لسان سيدها الخليفة ويوضح أثر فقدها وما تركته من حزن وألم لسيدها، مقلداً الشعراء السابقين فى بدئه بمخاطبة عينيه، داعياً الله عز وجل بالسقيا لهذه الأيام الذى قضاها معها الخليفة .

وللشاعر نماذج أخرى يرثى فيها "هيلانة" جارية الرشيد على لسانه[١] كما أنه عزى الرشيد فيها فقال :[٢] .

يا أميـــر المؤمنيـــن المرتضـــى ... احمـد اللـه على ماقـد قضـى
إن نكـن هيــلان وافـت قــدراً ... فاسـل يعقبـك بـه اللـه الرضـا
إنمـا يحـــزن مـــن ليـــس لـــه ... خلـف يسليـه عمـا قـد مضى
بـل أنا الباكى لشيـب راعنـــى ... وشبـاب بـان منـــى فانقضـى

يعزى الشاعر الخليفة "الرشيد" فى وفاة جاريته "هيلانة" ويدعوه أن يصبر ويرضى بقضاء الله تعالى وأن يترك الأحزان لينال الرضا من الله تعالى، ثم يذكر الشاعر أنه - أى الشاعر - هو الذى حق له أن يبكى للشيب الذى هجم عليه ويبكى على شبابه الذى انقضى وفات .

هذا وقد أخذت جارية الخليفة "الرشيد" "هيلانة" مالم تأخذه غيرها من الجوارى من اهتمام الشعراء برثائها والبكاء عليها نظراً للاهتمام الشديد والمكانة العظمية التى كانت تحظى بها عند الخليفة حيث وجد بها وجداً شديداً ولما رثاها الشعراء واصلهم بمنحة وعطاياه[٣]" .

وإذا كان الشعراء قد بكوا الجوارى على لسان الخلفاء فإننا نرى الخلفاء أنفسهم يبكون على جوايهم ويرثونهن رثاءً حاراً معبرين

---

(١) ينظر الأوراق للصولى ص١٩ .
(٢) ص١٨ الأوراق .
(٣) ينظر الأوراق ص١٨ .

عن عظم حبهم لهن وعن عظم المصيبة التى لحقت بهم فى فقدهن، ومن ذلك قول الخليفة الرشيد يرثى جاريته "هيلانة" معبراً عن حزنه وألمه:(١).

قاسيت أوجاعاً وأحزاناً	لما استخص الموت هيلاناً
فارقت عيشى حين فارقتها	فما أبالى كيف ماكانا
كانت هى الدنيا فلما ثوت	فى قبرها فارقت دنيانا
قد كثر الناس ولكننى	لست أرى بعدك إنساناً
والله لا أنساك ما حركت	ريح بأعلى نجد أغصانا

يبكى الخليفة جاريته ويعلن عن حزنه الشديد لفقدها وحبه العظيم لها ووفائه وإخلاصه لها حتى بعد وفاتها، يبكيها وهو الخليفة الذى هو من هو فى ملكه - ويتوجع ويتفجع وينعى حظه العاثر فى فقدها، ويصور عظم المصيبة التى لحقته وهول الفجيعة التى داهمته فهو فى حزن دائم. قد فارق حياة النعيم عند فراقها، فقد كانت هى الدنيا كلها بالنسبة له على الرغم مما فى الدنيا من كثرة الناس، فهو لايرى سواها ويحلف بالله أنه لن ينساها مدى الحياة .

فالخليفة يرثى جاريته وكله حزن وألم لفقدها ويبكيها بعاطفة صادقة معبراً عن عظم شعوره الصادق نحوها بكل الوفاء والإخلاص وعظم المشاعر .

ومن الخلفاء الذين رثوا جواريهم الخليفة "المأمون" حيث قال يرثى جارية له وقد حضر موتها وسلم عليها ولم تستطع رد السلام إلا بأصابعها إيماء فقال :(٢)

سلامٌ على من لم يُطق عند بينه	سلاماً فأومى بالبنان المخضب
فما اسطعت توديعاً سوى سرعة البكا	وذلك جهد المستهام المعذب

(١) ص٥٩٥ تاريخ الخلفاء . للسيوطى .

(٢) ص١٩٨١ تجريد الأغانى . القسم الثانى .

فالخليفة يرثى جاريته ويبكى لفراقها دون خشية أحد من الناس ، بل إنه أمر "مخارقاً" أن يغنى له هذين البيتين ويعيد فيهما ويكرر، وكان يبكى حينما يسمع هذا الغناء كما يروى صاحب كتاب الأغانى " .

ومن الخلفاء الذين رثوا جواريهم وبكوا عليهن وعبروا عن عظم حزنهم وألمهم لفقدهن، الخليفة "المعتضد" الذى رثى جاريته "دريرة"(١) ، والشاعر الخليفة عبد الله بن المعتز الذى رثى جارية له فى أكثر من مضوع فى ديوانه، ومما قاله يرثى جارية له أصيب بفقدها :

يادهـــر كيــف شققــت نفســاً	فخلسـت منهـا النصـف خلسـا
وتركـــت نصفـــاً للأســـى	جعـل البقــاء عليــه نحســا
سقيـــاً لوجــــه حبيبــةٍ	أودعنــه كفنـــاً ورمســـا
عهـــدى بــــه وكأنمـــا	ذر الحمـــام عليـــه ورســـا
ثـــم انطلقنـــا مسرعيـــن	إلى القبـــور نـــزف شمســـا

الشاعر يرثى جاريته معاتباً الدهر فى نزعها منه وتركه وحيداً للحزن والأسى، حيث أخذ نصفه وترك النصف الآخر للأسى والأحزان ثم يطلب السقيا لوجه محبوبته وجاريته الذى لف بالكفن والتراب .
ويصور الشاعر جنازة جاريته بزفاف العروس ويشببها بالشمس فى الحسن والجمال .

وهكذا رثى الخلفاء العباسيون جواريهم معبرين عن حزنهم وأسفهم لفراقهن موضحين الدور الذى كانت تقوم به الجارية فى القصر، ولم يرث الخليفة كل جواريه بل كان الرثاء من حظ المقربة من

---

(١) ص٥٧٠ تاريخ الخلفاء، للسيوطى / تحقيق / محمد محى الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة عام ١٩٦٩م، المكتبة التجارية بمصر .

قلبه والتى أثرت تأثيراً عظيماً فى حياته وتركت بصمة واضحة فى حياة الخليفة.

ورثى الشعراء الجوارى معبرين عن حزنهم وألمهم لفقدهن بارزين الدور الذى كانت تمثله الجارية فى حياتهم، موضحين عظم المصيبة وهول الفجيعة التى لحقت بهم بعد فراقهن متعرضين لهن أحياناً بالوصف وتصوير بعض أعضائهن خاصة الوجه، وقد اتسمت معانى الرثاء فى الجوارى بالبساطة والوضوح والبعد عن الغرابة والعمق والصلابة. ومما لاشك فيه أن العاطفة الصادقة لم تغلب على هذا الشعر فى رثاء الجوارى، خاصة فى رثاء الجوارى على لسان الآخرين، حيث خرجت الأبيات معبرة عن حزن الآخرين ولم تنبع من أحاسيس الشاعر معبرة عن حزنه وألمه هو شخصياً .

رثـــاء الأصدقـاء :

يعد رثاء الأصدقاء من الموضوعات القديمة التى طرقها الشعراء القدامى قبل العصر العباسى الأول فقد عرفه الشعراء الجاهليون والإسلاميون والأمويون إلا أنه نال حظوة عظمى ومكانة واسعة بين موضوعات شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول وربما يرجع ذلك إلى اتساع العلاقة الخاصة وامتداد أواصر الصداقة والصحبة بين شعراء العصر وطبقات المجتمع العباسى المتعددة والكبيرة فى ربوع الدولة العباسية المترامية الأطراف والتى أصبحت دولة عظمى بفضل انتشار الإسلام ودخول كثير من البلاد غير العربية تحت أملاك الدولة العباسية واعتناق أهلها الدين الإسلامى الحنيف .

فوجود شعر الرثاء للأصدقاء بكثرة فى الشعر العباسى فإن دل على شىء فإنما يدل على عظم العلاقات وامتداد أواصر الصداقة بين طبقات المجتمع العباسى بوجه عام وبين الشعراء وبقية طبقات المجتمع بوجه خاص .

وقد تناول الشعراء العباسيون فى رثائهم لأصدقائهم هذه الصفات والفضائل المتعددة التى كان يتمتع بها صديقه قبل موته وفنائه كما أوضحوا فى رثائهم لأصدقائهم عظم المصيبة التى لحقت بهم بعد فقدهم ووصفوا المصيبة وصفاً يمتزج بروح الشكوى والأنين والتعبير عن المشاعر القوية الصادقة تجاه هذا الصديق المرثى فضلاً عن إعلان حزنهم وأسفهم عليهم بل والبكاء والعويل عليهم أحياناً. فضلاً عن اختلاف الشعراء فى رثائهم لأصدقائهم من حيث قوة المشاعر وصدق العاطفة فبينما نجد شاعراً يتملكه الأسى والحزن والمشاعر القوية الصادقة فى رثاء صديقه نجد شاعراً آخر يقل عن سابقه فى قوة المشاعر وصدق العاطفة بل أحياناً تأتى القصيدة فى رثاء الصديق فاترة كأن الشاعر قد تكلفها تكلفاً بل أحياناً نرى للشاعر الواحد هذا المثال وتلك النموذج وربما يرجع ذلك إلى مدى العلاقة التى تربط بين هذا الشاعر وصديقه الميت الذى رثاه .

ومن شعر الرثاء للأصدقاء فى العصر العباسى الأول ماقاله: "بشار" فى رثاء أصدقاء له من الزنادقة ويقول فى ذلك : [١]

يابن موسى فقد الحبيب على العيـ	ـن قـذاة وفـى الفـؤاد سقـام
كيـف يصفـو لـى المقام وحيـداً	والأخـلاء فـى المقابـر هـام [٢]
نفستهـم علـى أم لمنايـا	فأنامتهـم بعنـف فنامـوا [٣]
لايغيض انسجـام عينى عليهـم	إنمـا غايـة الحزيـن السجـام [٤]

(١) ص٢٣٦ جـ٣ الأغانى .

(٢) هام : جمع هامة وهى طائر من طير الليل وهو الصدى .

(٣) نفستهم : نفس عليه الشىء نفاسة : لم يره أهلاله .

(٤) يغيض : يجف . السجام : سيلان الدمع من العين .

يرثى بشار فى هذه الأبيات خمسة أصدقاء له ماتوا كلهم على الزندقة رثاءاً حاراً ويبكى لفقدهم ويذرف عليهم الدمع أنهاراً. رثاهم وكله مشاعر فياضة وأحاسيس جياشة وعاطفة صادقة معبراً عن مشاعره وأحاسيسه بكل الصدق والوفاء والولاء لأصدقائه. فالأبيات تفيض حزناً وتقطر ألماً وحسرة وأسى على هؤلاء الأصدقاء الخمسة الذين فرق الموت بينهم وبينه .

إلا أنه يلاحظ على الأبيات أن الشاعر قد قدم لرثائه بالغزل فى فتاته وأعلن عن حبه لها وهيام قلبه بها وذلك على غير عادة الشعراء العرب الذين لايؤثرون تقديم الرثاء بالنسيب كما يصنعون ذلك فى المدح والهجاء وغيرهما من الأغراض الشعرية التى مهدوا لها بالنسيب والحب والغزل .

ويقول "أبو العتاهية" يرثى صديقه على بن ثابت وقد حضره وهو يجود بنفسه ولم يزل يلتزمه ويبكى حتى فاضت روحه وبعد أن تم دفنه وقف على قبره يبكى بأحر بكاء ويرثيه بهذه الأبيات: (١)

ألا مــن لى بأنســك ياأخيــا	ومــن لــى أن أبثـك مالديــا
طوتك خطوب دهرك بعد نشر	كــذاك خطوبــه نشــراً وطيــاً
كفــى حزنـاً بفقـدك ثـم إنــى	نفضت تـراب قبـرك مــن يديـا
بكيتــك ياعلــى بدمــع عينــى	فمــا أغنــى البكاء عليك شيـا
وكانت فى حياتك لـى عظــات	فأنت اليوم أوعـظ منـك حيــا

المرثية بكاء حار من الشاعر على صديقه وفيها اللوعة والنيران التى تفتت الأكباد حزناً وحسرة على المرثى، فآهات البكاء تنتثر منها ولهيب الأحزان تتفجر من بين ثناياها ودموع العين تسيل على الخـدود سيلاتـاً ، فالشاعر حزين مهموم لفـراق صديقه يبكـى

(١) ص٤٧٨ - ٤٧٩ تجريد الأغانى .

عليه ويرثيه بكل مشاعره وأحاسيسه الجياشة الصادقة ويندبه ويتفجع عليه كأنه يندب ولداً له اخطتفه الموت وفارق بينهما، وقد استطاع أبو العتاهية أن ينقل إلينا عظم المصيبة التى أصابته بفقد صديقه كما استطاع أن ينقل إلينا مشاعره الجياشه وعاطفته الحزينة الصادقة فى رثائه لصديقه .

وأبو العتاهية - كما هو معروف عنه - يأخذ من المصائب التى يراها عبرة وعظة، حيث يرى فى موت صديقه عظة يتعظ بها وعبرة يعتبر بها فالموت مصير مشترك بين العباد .

ويرى صاحب كتاب تجريد الأغانى أن هذه الكلمات قد أخذها أبو العتاهية من الحكماء الذين حضروا تابوت الاسكندر ذى القرنين ابن فيلبس لما مات. فقال أحدهم : كان الملك أمس أهيب منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس. وقال آخر : سكنت حركة الملك فى لذاته وقد حركنا اليوم بسكوته جزعاً لفقده"(١) .

ونحن لانستبعد ذلك فربما قرأ أبو العتاهية هذا القول وتأثر به فى شعره خاصة وأنه الشاعر الوحيد من بين شعراء عصره الذى أعطى قضية الموت والفناء كل همه ونظم بشأنها ديواناً ضخماً لايتحدث إلا عن الموت والفناء ومصير الإنسان المحتوم فى هذا الوجود الذى لابد وأن ينتهى بالفناء والموت .

ويقول"أبو نواس" يرثى صديقه "والبة" بن الحباب الشاعر:(٢)

فاضت دموعك ساكبة	جزعاً لمصرع والبة
قامت بموت أبى أسا	مة فى الزقاق النادبة

---

(١) ص٤٧٩ تجريد الأغانى .

(٢) ص٩٨ ديوان أبى نواس، طبع : دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

قامت تبث من المكا ... رم غير قيل الكاذبة
فجعت بنو أسدٍ به ... وبنو نزار قاطبة
بلسانها وزعيمها ... عند الأمور الحازبة[(١)]
لاتبعدن أبا أسا ... مة، فالمنية واجبة
كل امرىءٍ تغتاله ... منها سهام صائبة
كتب الفناء على العبا ... د ، فكل نفس ذاهبة
كم من أخٍ لك قد ترك ... ت همومه بك ناصبه
قد كان يعظم قبل مو ... تك أن تنوب النائبة

فأبو نواس يرثى صديقه "والبة بن الحباب" ويذكر أنه حزن لموته وبكى لفقده، بل قامت النوادب يندبنه ويبكين عليه، وأن بنى أسد وبنى نزار قد فجعتا لموته، ثم يتأسى ويطلب الصبر لفقد صديقه فكل إنسان مصيره الموت والفناء وأن الموت قد أخذ الكثير من الإخوان والعباد، وأبو نواس متأثر بذلك بقول الله تعالى : "كل نفس ذائقة الموت" وكل من عليها فان" وأبو نواس فى أبياته فاتر العاطفة لاجياشها ليس بالصادق ولا الرائع فى رثائه لصديقه، بل فى معظم رثائه، ولم يصدق أبو نواس فى رثائه كله إلا فى القصيدة التى رثى فيها الخليفة الأمين بقوله :

طوى الموت مابينى وبين محمد ... وليس لما تطوى المنية ناشر

أما فى بقية رثائه - ومنه هذه الأبيات التى رثى فيها صديقه- فكان ضعيف العاطفة متكلفا فى رثائه لم يبرع فيه كبراعته فى شعر الخمر والمجون والمدح والزهد وغيرها من الأغراض التى برع فيها وتفوق وربما يرجع ضعف أبى نواس فى شعر الرثاء أنه قضى حياته كلها إلا قليلاً ماجناً عابثاً لاهياً لاهم له إلا المجون

---

(١) الحازبة : من حزبه الشىء : أى اشتد عليه وصعب .

واللهو فضلاً عن أنه لم يكن ميالاً بطبعه إلى الحزن والبكاء وإنما عاش حياته ساخراً لاهياً متفائلاً بالحياة لايرى إلا جانب البهجة فيها، فأبو نواس لم يكن مجيداً فى شعر الرثاء بوجه عام وعرف ذلك معظم الباحثين والنقاد وعدوه عليه، لدرجة أن الدكتور طه حسن قد ذهب إلى أن شعر أبى نواس فى الرثاء ليس له قيمة وكان فيه سخيفا[(١)] .

ويرثى أشجع صديقه أحمد بن يزيد فيقول :[(٢)]

على قبر بجرجان السلام ... وإن تعدد السلام فلا سلام
على قبر به أشلاء بدر ... أصيب به من الشرف السنام
أقول لصاحبى وخراسانى ... بحيث القيصر والملك اللهام
صلاة الله ربكما وربى ... على قبر به تلك العظام
بصرع أحمد عز الأعادى ... وذل الرمح والسيف الحسام
فلم أر مثل أحمد يوم ولى ... حمام نال مهجته الحمام
عليك ولاعلى جرحان منى ... سلام الله مابقى السلام

فهذه أبيات من مرثية رثى فيها الشاعر صديقه وأبنه وعدد فضائله ومناقبه ووصف المصيبة وصفاً يمتزج بالأسى والحزن ووضح أثر فقده على أهله وقومه وعلى أعاديه الذين فرحوا بفقده والشاعر - كما هو معروف عنه - مجيد فى شعر الرثاء بارع فى تصوير المصيبة وتجسيمها، ويعلن عن حزنه وألمه بكل مشاعره الجياشة وعاطفته الصادقة بألفاظ وعبارات تتلاءم مع مقام الحزن وشعر الرثاء وبأسلوب محكم رصين يتلاءم وشعر المراثى .

---

(١) ينظر حديث الأربعاء ، ص ١٣٤ جـ٢ .
(٢) ص١٣٤ - ١٣٥ الأوراق .

هذا وقد أكثر شعراء العصر العباسى الأول من رثاء أصدقائهم[١] وبكوا عليهم بكاءً حاراً بصدق شعور وحرارة بث وعمق تأثير، والشاعر العباسى فى رثائه لصديقه يغمرنا بأمواج مشاعره المتدفقة ويلهب وجداننا بلهيب الحزن الذى أحسه وإحساسه الآثر الذى خالج قلبه وعقله ونفسه، ونراه يتجاوز الأشياء إلى ماوراءها، ثم نراه يعبر عن عظم وفائه لصديقه وشدة تعلقه به وهيامه فيه، فهو يرثيه عن صدق ووفاء وينغم ألحان أشجانه على أوتار شعره الذى يفيض حزناً وألماً كأنه يرثى ولده أو أباه، اللهم إلا القليل من الشعر الذى جاء باهتاً ضعيف العاطفة كرثاء أبى نواس لأصدقائه، كما نراه يعدد فضائل صديقه المرثى ويذكر مناقبه وآثاره وهى فى معظمها فضائل ومناقب دعا إليها الإسلام وأشاد بها .

رثاء العلماء والأدباء

يعد العصر العباسى الأول من أغزر العصور العربية ثقافة وعلماً فى مختلف مناحى الثقافة سواء كانت دينية أو لغوية أو أدبية أو علمية حديثة، ووجد كثير من علماء الدين واللغة والأدب فى هذا العصر أمثال : الإمام أبى حنيفة النعمان والإمام الشافعى والإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل، والمبرد وثعلب والأصمعى

---

(١) ينظر على سبيل المثال لاالحصر رثاء الأصدقاء فى العصر العباسى الأول: طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٢٢ و ص١٢٣ و ص١٢٤ . وتجريد الأغانى : ص١٥٥٦ و ص١٦٠٠ و ص١٩٤١ والأغانى جـ١٨ ص١٨٠ وص١١١ و ص٢٣٨ . وديوان أبى تمام جـ٤ ص٤٠ و ص٤٦ و ص١٢١ و ص١٤٤ و ص١٣٨ . وديوان البحترى : جـ٣ ص١٥٤٨ و ص١٩٤٥ و جـ٤ ص٢١٨١ . وديوان ابن المعتز جـ٢ صـ٣٤٩ و ص٣٥١ و جـ٣٦٦ و ص٣٦٩ جـ٣٧١ وديوان ابن الرومى : جـ٢ ص٦٦١ و جـ٥ ص١٨٣٥ ص١٨٨٨ . وديوان بشار جـ١ ص٢٧٧ . وديوان د عبل : ص٣١٠ و ص٣٢٠ ص٣٣٩ .

والجاحظ وأبى عمرو بن العلاء وخلف الأحمر وابن دريد وغيرهم الكثير والكثير من علماء الدين وعلماء اللغة والأدب فضلاً عن هذا الكم الهائل من الشعراء الكبار الذين وجدوا فى هذا العصر والذى يعد بحق أغزر العصور العلمية والأدبية بين العصور العربية القديمة. وقد كان لهؤلاء العلماء والأدباء منزلة كبيرة ومكانة عظيمة بين جموع الشعب العباسى على اختلاف أجناسه وعناصره خاصة عند هؤلاء الشعراء الذين تتلمذوا على أيدى هؤلاء العلماء والأدباء واستفادوا من علمهم وآرائهم ونقدهم إفادة عظيمة فى مختلف العلوم الدينية والعربية والثقافية، فكان من الطبيعى ومن باب العرفان بالجميل ومن باب تعظيم هؤلاء العلماء والأدباء أن يأخذوا نصيباً غير قليل فى مراثى شعراء العصر العباسى الأول وتأبين شعراء العصر لهم ونعيهم وندبهم والبكاء عليهم .

فحينما يفقد عالم فقيه أو عالم لغة أو أديب ينعاه الشعراء ويبكونه ويرثونه متحدثين عن علمه ومبادئه وآرائه وفضله مظهرين مكانته العظيمة فى تخصصه والخسارة العظمى التى لحقت العلم والأدب بفقده موضحين قيمة ماتركه من علم أو آدب فى حياته، بارزين كثيراً من شمائله ومميزاته الأخلاقية والعلمية والذاتية.

ولاغرابة فى ذلك فقد كان هؤلاء العلماء على اختلاف تخصصاتهم والأدباء وعلماء اللغة ورواة الشعر كانوا أساتذة المجتمع ومعلميه وناشرى الثقافة بين ربوعه ومعلمى الشعراء وغيرهم من أبناء المجتمع العباسى .

فمن ذلك قول ابن دريد يرثى الإمام الشافعى رضى الله عنه فيقول فى رثائه :(١)

---

(١) ص٢٣ ديوان الشافعى، تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى، مكتبة الكليات الأزهرى الطبعة الثانية عام ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م .

ألم تـر آثار ابن إدريس بعده ... دلائلها فى المشكلات لوامع
معالم يفنى الدهر وهى خوالد ... وتنخفض الأعلام وهى فوارع
مناهج فيها للهدى متصرف ... موارد فيها للرشاد شرائع
ظواهرها حكم ومستبطناتها ... لما حكم التفريق فيه جوامع
لرأى ابن إدريس ابن عم محمد ... ضياءٌ إذا ما أظلم الخطب ساطع
إذا المفظعات المشكلات تشابهت ... سما منه نورٌ فى دجاهن لامع
أبى الله إلا رفعه وعلوه ... وليس لما يعليه ذو العرش واضع
توخى الهدى واستنقذته يد التقى ... من الزيغ إن الزيغ للمرء صارع
ولاذ بآثار الرسول فحكمه ... لحكم رسول الله فى الناس تابع
وعول فى أحكامه وقضائه ... على ما قضى فى الوحى والحق ناصع
تسربل بالتقوى وليداً وناشئاً ... وخص بلب الكهل مذ هو يافع
وهذب حتى لم تشر بفضيلة ... إذا التمست إلا إليه الأصابع
فمن يك علم الشافعى إمامه ... فمرتعه فى ساحة العلم واسع
سلامٌ على قبرٍ تضمن جسمه ... وجادت عليه المدجنات الهوامع
لئن فجعتنا الحادثات بشخصه ... لهن لما حكمن فيه جوامع
فأحكامه فينا بدور زواهر ... وآثاره فينا نجومٌ طوالع

نجد ابن دريد يرثى الإمام الشافعى ويؤبنه تأبيناً حاراً حيث تناول فى رثائه صفات وفضائل تتفق ومكانة المرثى وعمله ومجال تخصصه .

وقد أشاد الشاعر بمكانة الإمام الشافعى ومنزلته العلمية ذاكراً آثاره منها مشيداً بها أيما إشادة، فهى خالدة باقية حتى لو فنى الدهر وشامخة عالية، فيها الهدى والرشاد، ثم يعدد الشاعر صفات المرثى فيصفه بالعلم الغزير وشدة التقوى والورع والذكاء الخارق منذ نعومة أظافره .

فالشاعر فى رثائه للمرثى العالم الفقيه يختار من الفضائل مايتلاءم وعمله ومن الصفات مايتناسب مع عالم جليل فقيه مثل "الإمام الشافعى" .

كما نراه يعلن عن حزنه وأسفه لفقد العالم الجليل الذى ترك العلم النافع الغزير والأحكام الشرعية والآثار الفقية التى تشبه البدور الزواهر والنجوم السواطع، فإن كان الإمام المرثى قد فارق هذه الحياة فإنه فارقها وقد ترك آثاره الباقية الخالدة التى تضىء الطريق وتنير الظلمات .

ويقول "أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج" يرثى الإمام "مالكا" : (١)

سقى حدثاً ضم البقيع لمالك	من المزن مرعاد السحائب مبراق
إمامٌ موطأه الذى طبقت به	أقاليم فى الدنيا فساحٌ وآفاق
أمام به شرع النبى محمد	له حذر من أن يضام وإشفاق
له سند عالٍ صحيحٌ وهيبة	فللكل منه حين يرويه إطراق
وأصحاب صدقٍ كلهم علم فسل	بهم إنهم إن أنت ساءلت حذاق
ولو لم يكن إلا ابن إدريس وحده	كفاه ألا إن السعادة أرزاق

فالمرثية تأبين للإمام مالك وإشادة بعلمه وكتابه "الموطأ" الذى جمع فيه كثيراً من الأحاديث النبوية الصحيحة العالية السند.

والشاعر يدعو لقبر الإمام بالسقيا على عادة الشعراء العرب القدامى إلا أنه قد أبنه تأبيناً يتلاءم ومكانة الإمام الدينية والعلمية، حيث يشيد بعلمه وكتابه "الموطأ" إشادة عظيمة .

هذا والأمثلة كثيرة فى رثاء العلماء الفقهاء، حيث راح الشعراء يرثونهم مؤبنين إياهم معددين مناقبهم ذاكرين مآثرهم مشيدين بهم وبعلمهم وبما خلفوه من آثار عظيمة فى علوم الدين .

كذلك رثى الشعراء علماء اللغة والأدب وأبنوهم ذاكر ين فضائلهم معددين مناقبهم مظهرين مكانتهم العظيمة ومنزلتهم الكبيرة فى مجال العلم والثقافة، ولاغرو فى ذلك فعلماء اللغة كانو على صلة وثيقة بالشعر والشعراء فهم معلموهم وعلى أيديهم حذق الشعراء شعرهم .

(١) ص١٣٨ جـ٤ وفيات الأعيان لابن خلكان .

ومن ذلك قول عبد الله بن المقفع يرثى أبا عمرو بن العلاء : (١)

رزئنا أبا عمرو ولاحى مثله ... فلله ريب الحادثات بمن فجع
فإن تك قد فارقتنا وتركتنا ... ذوى خلة مافى انسداد لها طمع
فقد جر نفعاً فقدنا لك أننا ... أمنا على كل الرزايا من الجذع

يرثى "عبد الله بن المقفع" أبا عمرو بن العلاء" ويعلن عن حزنه وألمه لفقده ويرى أن موته كان المصيبة العظمى التى مابعدها مصيبة، فكل مصيبة بعد موته تهون ويأمن الإنسان عليها من شدة الجزع .

ويقول "ابن العلاف" يرثى "المبرد" وينصح المتعلمين أن يتذودوا من علم ثعلب وأدبه فيقول : (٢)

ذهب المبرد وانقضت أيامه ... وليذهبن إثر المبرد ثعلب
بيت من الآداب أصبح نصفه ... خرباً وباقى بيتها فسيخرب
فابكوا لما سلب الزمان ووطنوا ... للدهر أنفسكم على مايسلب
وتزودوا من ثعلب فبكأس ما ... شرب المبرد عن قريب يشرب
وأرى لكم أن تكتبوا أنفاسه ... إن كانت الأنفاس مما يكتب

فالمرثية تأبين للمبرد وإشاده بعلمه وأدبه ويتعرض من خلالها بالدعوة للانتفاع من علم ثعلب قبل أن يلحق بزميله المبرد .

ويلاحظ على المرثية أنها خالية من تعداد فضائل المرثى ومناقبه الأخلاقية والصفات التى كان يتحلى بها فى حياته، فضلاً عن ضعف العاطفة حيث نجد التكلف واضحاً فى الأبيات .

ويقول "أبو نواس"يرثى"خلفاً الأحمر" وهو حى يرزق، لأن خلفاً أحب أن يسمع مراثى أصحابه له قبل موته فقال يرثيه بعد مقدمة

---

(١) ص٤٦٩ جـ٣ وفيات الأعيان .
(٢) ص٣١٩ جـ٤ وفيات الأعيان .

طويلة تعرض فيها لوصف مظاهر الطبيعة :(١)

ماتـــرك المـوت بعـده شبحـاً	بـاد بتـل القـلال والشعـف
لما رأيت المنـون آخـذة	كـل شديـد وكـل ذى ضعـف
بـت أعزى الفـؤاد عن خلـف	وبـات دمعـى إن لايفض يكـف
أنسـى الرزايا ميت فجعت بـه	أمس رهيـن التراب فى جدف
كـان يسنـى برفقـة علقـاً	فـى غيـر عـى منـه ولاعنف
لايهـم الحـاء فى القـراءة بالـ	حاء ، ولالامهـا مـع الألـف
ولايعمـى معنـى الكـلام ولا	يكـون إنشـاده عـن الصحف
وكان ممـن مضـى لنـا خلفـاً	فليـس منـه إذ بـان من خلف

فالمرثية - وإن أعلن فيها الشاعر عن حزنه وسفك الدمع على خلف الأحمر - شديدة التكلف واضحة السخف، لانحسى وهجاً لعاطفة أو مشاعر صادقة، فالشاعر لم يعش التجربة ولم يحدث من الفواجع مايجعله يرثى رثاءً حاراً صادقاً نابعاً من أعماق قلبه .

وإذا كان الشعراء قد رثوا علماء الدين وعلماء اللغة والأدب فإنهم كذلك رثوا الشعراء الذين سبقوهم إلى الدار الآخرة بل إنهم قد استأثروا بالجزء الأكبر من رثاء العلماء والأدباء، حيث راح الشعراء يؤبنون زملاءهم الشعراء ويبكونهم بكاءً حاراً وهناك الكثير من أشعار العصر العباسى الأول التى نظمت فى رثاء الشعراء وتفيض كتب الأدب والتاريخ بكم هائل من هذا اللون من الرثاء ولاغرابة فى ذلك فالشاعر يرثى زميله ورفيق صنعته وأخاه فى الأخوة الأدبية .

ومن هذا القبيل رثاء "البحترى" لأستاذه "أبى تمام" "ودعبل الخزاعى": (٢)

---

(١) ص٤٣١ - ٤٣٢ ديوان أبى نواس .

(٢) ص١٧٨٦ جـ٣ ديوان البحترى .

قد زاد فى كمدى وأضرم لوعتى ... مثوى "حبيب" يوم بان و "دعبل"
وبقاء ضرب الخثعمى وصنفه ... من كل مكدور القريحة مجبل
أهل المعانى المستحيلة إن هم ... طلبوا البراعة والكلام المقفل
أخوى ! لاتزل السماء مخيلةً ... تغشاكما بسماء مزن مسبل
جدثٌ على الأهواز يبعد دونه ... مسرى النعى ورمةٌ بالموصل

نرى البحترى يرثى الشاعرين العظيمين معاً فى مقطوعة واحدة (أبا تمام ودعبلا الخزاعى) ويعلن عن حزنه ولوعته لفراقهما ويتعرض لفضائلهما مبرزاً تفوقهما فى المعانى المستحيلة البارعة والشعر العربى الرائع، ثم يدعو بالسقيا لقبريهما على عادة الشعراء القدامى ويوضح المكان الذى دفن فيه كل منهما، حيث دفن دعبل بالطيب قرب الأهواز ودفن أبو تمام بالموصل .

ويعد أبو تمام من أكثر الشعراء رثاءً أو تأبيناً من جانب إخوانه الشعراء حيث رثاه معظم الشعراء الذين عاصروه أمثال : "على بن الجهم" والحسن بن وهب وغيرهما من شعراء عصره .
ومن رثاء الشعراء قول "أبى يحى محمد بن كناسة" "يرثى حمادا الراوية" :(١)

لو كان ينجى من الردى حذر ... نجاك مما أصابك الحذر
برحمك الله من أخى ثقة ... لم يك فى صفو وده كدر
فهكذا يفسد الزمان ويفـ ... ـنى العلم فيه ويدرس الأثر

فالمرثية دعوة إلى التصبر والتأس على فقد هذا الشاعر الفقيد، ودعوة إلى الله بالرحمة والغفران له، وتوضيح لصفات المرثى وتبيان لفضله .

ومن ذلك أيضاً قول "أشجع" يرثى "سلماً الخاسر" :(٢)

---

(١) ص٢١٠ جـ٢ وفيات الأعيان .
(٢) ص٢٨٧ جـ١٩ الأغانى .

ياسلم إن أصبحت فى حفرة	موسداً ترباً وأحجاراً
فرب بيت حسن قلته	خلفته فى الناس سياراً
قلدته ربا وسيرته	فكان فخراً منك أو عاراً
لو نطق الشعر بكى بعده	عليه إعلاناً وإسراراً

فالمرثية تأبين للميت وإشادة بشعره وشاعريته .

وهكذا رثى الشعراء زملاءهم الشعراء وتفيض كتب الأدب[1] بذلك، فضلاً عن رثائهم لعلماء الدين وعلماء اللغة والأدب كما أوضحنا ذلك من قبل، إلا أنه يلاحظ فى رثاء العلماء والأدباء أن الشعراء يتعرضون للمناقب والفضائل والمآثر أكثر من البكاء والندب والعويل والتفجع .

رثاء النفس :

يعد رثاء الشاعر لنفسه من موضوعات الرثاء القديمة التى عرفت فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى، فقد كان من الشعراء الجاهليين من رثى نفسه مثل الشاعر : يزيد بن حذاق ، كما عرف العصر الإسلامى رثاء النفس ورثى بعض شعراء العصر أنفسهم مثل : الشاعر : مالك بن الريب الذى رثى نفسه بقصيدة طويلة رائعة تعد بحق من عيون القصائد التى قيلت فى رثاء النفس[2] كما عرف الشعر الأموى كذلك رثاء النفس[3]، وفى العصر العباسى شاع هذا اللون من الرثاء على ألسنة شعراء العصر وكثر

---

(١) ينظر على سبيل المثال لاالحصر . تجريد الأغانى ص٤١٠ و ص٧١٤ ، وفيات الأعيان جـ٣ ص٧٧ و صـ٣٥٤ .

(٢) ينظر ص٨٩ - ٩٣ جـ٤ المنتخب من أدب العرب على سبيل المثال لاالحصر .

(٣) ينظر ص١٨٦١و ص٢٣٢٨ تجريد الأغانى، على سبيل المثال لاالحصر.

كثرة مفرطة، ولاغرابة فى ذلك فإذا كان الشعراء قد رثوا غيرهم من الأهل والأصدقاء وبكوا عليهم فمن الأولى والأجدر أن يبكى الشعراء على أنفسهم خاصة حينما يحسون بقرب الأجل ونهاية الحياة وحينما يهجم عليهم الموت فلا يجدون من ينقذهم أو يخلصهم منه فلا يجدون أمامهم سوى البكاء على أنفسهم والتوجه إلى الله تعالى كى يغفر لهم خطاياهم. وعصر كالعصر العباسى الأول (الذى شاع فيه اللهو والمجون خاصة بين الشعراء) - أولى بشعرائه أن يرثوا أنفسهم ويبكونها حينما يحسون بدنو الأجل ومصير الموت المحتوم الذى اقترب منهم، هذا الموت الذى لامناص منه ولامهرب، لذا وجدنا كثيراً من شعراء العصر العباسى الأول يبكون أنفسهم ويرثونها ويندبونها ندباً حاراً راجين من الله تعالى أن يغفر لهم خطاياهم ويصفح عن ذلاتهم وذنوبهم حتى هؤلاء الشعراء الذين بلغوا المدى فى مجونهم وفسقهم وفحشهم فى حياتهم .

فمن رثاء النفس فى العصر العباسى الأول ماقاله أبو العتاهية - الشاعر الذى قضى نحو خمسين عاماً فى اللهو والمجون ثم عاد إلى ربه وتاب وتزهد فى حياته نحو ثلاثين عاماً ونظم ديواناً ضخماً كله فى شعر الزهد والحكمة وذكر الفناء والموت ومصير الإنسان فى هذا الكون الذى لابد أن ينتهى لامحالة بالموت - حيث يقول راثياً نفسه :(١)

نعـى نفسـه إلىَّ من الليالـى ... تصرفهـن حـالاً بعـد حـال
فمالـى لسـت مشغولاً بنفـس ... ومالـى لاأخـاف الموت مالـى
لقـد أيقنـت أنـى غير بـاقٍ ... ولكنـى أرانـى لاأبالـى
أمالـى عبـرة فـى ذكر قـوم ... تفانـوا ربمـا خطـروا ببالـى

---

(١) ص٢٣٤ طبقات الشعراء لابن المعتز .

كــأن مرضى قد قام يسعــى	بنعــش بيــن أربعــة عجــال
وخلفــى نسـوة يبكيـن شجواً	كــأن قلوبهــن على المقالــى

فالشاعر يبكى على نفسه وينعاها ويؤنب نفسه التى لاترعوى وتعتبر بما تشاهده أمامها من افتراس الموت لكثير من القوم، ثم يتصور الشاعر جنازته ومايحدث له أثناءها، حيث يحمله على أعناقهم أربعة من الرجال وخلفه النسوة اللاتى يبكين عليه ويندبنه ندباً حاراً حتى تحترق قلوبهم عليه حزناً وكمداً.

ومما قاله أبو العتاهية راثياً نفسه متضرعاً إلى ربه أن يغفر له ذنوبه قوله المشهور فى مرضه الذى مات فيه :(١)

إلهــى لاتعذبنــى فإنــى	مقــر بالــذى قــد كــان منــى
فمالــى حيلــة إلا رجائــى	لعفــوك فاحطـط الأوزار عنــى
وكــم مــن زلة لى فى الخطايا	وأنــت علــى ذو فضــل ومــن
إذا فكرت فــى ندمــى عليهــا	عضضت أناملى وقرعــت سنى
أجــن بزهــرة الدنيــا جنونــاً	وأقطع طول عمــرى فى التمنى
ولو أنى صدقــت الزهــد عنهــا	قلبــت لأهلهــا ظهــر المجــن
يظــن النــاس بــى خيراً وإنــى	لشــر الخلــق إن لم تعف عنى

فالمرثية صرخة من الشاعر إلى ربه أن يغفر له ذنوبه وصراخ وعويل منه على نفسه التى ستفارق الحياة، وتفكر وتدبر فى ذنوبه التى كانت منه ويطلب من الله غفرانها، وندم منه على فعلها ورجائه فى ربه أن يغفرها له وإلا فإنه لشر الناس كلهم .

فأبو العتاهية يبكى على نفسه وقد اقترب الموت منه وجلس على فراشه ويندب نفسه ندباً حاراً بكل مشاعره الجياشة وأحاسيسه الصادقة فليس هناك تجربة شعورية صادقــة أصدق من هذه التجربــة

(١) ص٥٠٣ تجريد الأغانى القسم الأول .

التى يعيشها الشاعر ويحس بها إحساساً نابعاً من أعماق قلبه، إنها تجربة الموت الذى سيهدمه ويغنى عمره ويفرق بينه وبين أهله وأحبابه . وقد رثى أبو العتاهية نفسه ببيتين رائعين وقال لابنته رقية أن ترثيه وتندبه بهما وذلك فى علته التى مات فيها وهما :(١)

لعـب البلـى بمعالمى ورسومـى ... وقبـرت حيـاً تحت ردم همومـى
لـزم البلى جسمى فأوهن قوتى ... إن البلـى لموكـل بلزومـى

وأمر أن يكتب على قبره هذه الأبيات الرائعة التى رثى فيها نفسه وفيها العظة والعبرة الكاملة لمن أراد أن يتعظ ويعتبر ويقول فيها :(٢)

أذن حـى تسمعـى ... اسمعـى ثم عـى عـى
أنـا رهـن بمضجعـى ... فاحـذروا مثـل مصرعـى
عشـت تسعيـن حجـة ... اسلمتنـى لمضجعـى
كـم تـرى الحـق ثابتـا ... فـى ديـار التزعـزع
ليـس زاد سـوى التقـى ... فخـذى منـه أو دعـى

فأبو العتاهية يذكر أن الكل مصيره إلى زوال وفناء مهما عاش الإنسان وعمر طويلاً فى هذه الحياة، فقد عاش هو نحو تسعين سنة أسلمته للموت والقبر، إذن فيجب على الإنسان أن يعمل لقبره وليس أمامه سوى التقوى والعمل الصالح .

وقد شاع بين الشعراء فى العصر العباسى الأول كما شاع فى ماقبله ومابعده من العصور الأخرى كتابة أبيات من الشعر على شواهد القبور متضمنة العظة والعبرة وذكر الموت والفناء ومتضمنة الدعاء بالرحمة والغفران للموتى ساكنى القبور .

---

(١) ص٥٠٣ تجريد الأغانى القسم الأول .
(٢) ص٥٠٤ تجريد الأغانى ، القسم الأول .

وشارك أبو نواس زملاء شعراء العصر العباسي الأول فى هذا اللون من الرثاء - رثاء النفس - وهو الشاعر الذى قضى حياته فى اللهو والمجون والتهتك بل إنه جاوز المدى فى ذلك، إلا أنه فى آخر عمره أحس بالنهاية المحتومة والمصير الذى لابد أن يصير إليه، مصير الموت وسكن القبر فأعلن التوبة راجياً من الله العفو والصفح نادماً على ماقترفت يداه باكياعلى نفسه نادباً لها، ومن ذلك قوله: (١) .

رضيت لنفسك سوآته	ولم تأل جهداً لمرضاتها
وحسنت أقبح أعمالها	وصغرت أكبر زلاتها
وكم من طريق لأهل الصبا	سلكت سبيل غواياتها
فأى دواعى الهوى عفتها	ولم تجر فى طرق لذاتها
وأى المحارم لم تنتهك	وأى الفضائح لم تأتها
وهذى القيامة قد أشرفت	تريك مخاوف فزعاتها

يرثى أبو نواس نفسه ويبكى على مافرط فى حق الله وحق نفسه ويندم على مااقترفت يداه من الذنوب والآثام، ويعترف أنه قد أجرم فى حق نفسه بارتكابه المحرمات واتباعه هوى نفسه فى كل إثم وغواية، وقد أشرفت نفسه على الموت واقتربت قيامتها حيث يرى جزاء على مافعل .

فالمرثية بكاء من الشاعر على نفسه وندم على ماقدم فى حياته من ذنوب ومحرمات .

وقال يرثى نفسه فى مرضه : (٢)

شعر ميت أتاك فى لفظ حى	صار بين الحياة والموت وقفا
أنحلت جسمه الحوادث حتى	كاد عن أعين الحوادث يخفى

---

(١) ص١٣٢ ديوان أبى نواس .

(٢) ص٤٣٣ ديوان أبى نواس .

لـــو تأملتنـــى لتثبيـت وجهـــى   لم تبن من كتاب وجهى حرفـا
ولكـــررت طرف عينك فيمـــن   قـد براه السقام حتى تعفى(١)

يرثى أبو نواس نفسه ويندبها ندباً حاراً فى مرضه ويبكى بكاءاً شديداً لحالته التى هو عليها حيث أنحل المرض جسمه فأصبح كأنه ليس هو .

ونراه يرثى نفسه حينما يتذكر ذنوبه الكثيرة فيلجأ إلى ربه داعياً طالباً منه الصفح والمغفرة فيقول فى ذلك :(٢)

يــارب إن عظمـت ذنوبى كثرة   فلقـد علمـت بأن عفوك أعظـم
إن كـان لايرجـوك إلا محسـن   فبمـن يلـوذ ويستجير المجـرم
أدعوك ربّ كما أمرت تضرعـاً   فـإذا رددت يدى فمن ذا يرحـم
مالـى إليـك وسيلـة إلا الرجا   وجميـل عفـوك ثـم أنى مسلـم

حيث نرى الشاعر يندب نفسه ويندم على مافرط فى حقه وحق ربه ويتضرع إلى الله كى يغفر له ذنوبه فهى وإن عظمت فعفو الله منها أعظم ، وهو وإن أجرم فى حق الله وحق نفسه فبمن يلوذ ويستجير سوى بالله خالقه، ثم يدعوه ويتضرع إليه ويرجوه أن يعفو عنه فليس له وسيلة إلا الرجاء وجميل عفو الله تعالى . ثم نراه ينظر إلى الدنيا التى خدعته ببريقها وجرته إلى متاعها الزائل فيندم على ذلك ويرثى نفسه قائلاً:(٣) .

أيــارب وجه فى التراب عتيـق   ويـارب حُسنٍ فى التراب رقيق(٤)
ويـــارب حزمٍ فى التراب ونجـدةٍ   ويـارب رأىٍ فـى التراب وثيـــق
أرى كـل حـىٍ هالكـاً وابن هالكٍ   وذا نســبٍ فى الهالكيــن عريق

---

(١) تعفى أمحى .
(٢) ص٥٨٧ ديوان أبى نواس .
(٣) العتيق : الجميل .
(٤) ص٤٦٥ ديوان أبى نواس .

فقل لقريب الدار: إنك ظاعن إلى منزل نائى المحل سحيق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

فأبو نواس يندب نفسه ويندم على مامضى حينما تأمل فى الحياة وخداعها ووجد كثيراً من الأشراف قد اختطفهم الموت وواراهم التراب، ويرى أنه سيواريه التراب مثلهم فالموت يهلك الأحياء جميعاً وإن هؤلاء المقيمين فى الدنيا سيرحلون إلى القبور لامحالة ويسكنونها أبداً .

هذه كثير من الأشعار أخذ يرثى أبو نواس فيها نفه ويبكى على مامضى من عمره داعياً الله عز وجل أن يعفو عنه ويغفر له ذنوبه.

وبكاء النفس ورثاؤها لم يقتصر على هؤلاء الذين غمرتهم الذنوب ولجأوا فى أخريات حياتهم إلي ربهم يبكون ويندمون ويطلبون العفو والصفح منه تعالى، بل وجد من الشعراء من رثى نفسه وبكى عليها مع أنه قضى حياته صالحاً تقياً، ومن هؤلاء : "الإمام الشافعى" رضى الله عنه حيث قال فى مرضه الذى مات فيه يرثى نفسه ويبكى عليها ويطلب عفو الله تعالى :(١)

إليك إله الخلق أرفع رغبتى وإن كنت ياذا المنّ والجود مجرما
ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى جعلت الرجا منى لعفوك سلما
تعاظمنى ذنبى فلما قرنته بعفوك ربى كان عفوك أعظما

إلى أن قال :

فياليت شعرى هل أصير لجنة أهنا وأما للسعير فأندما
فالله در العارف الندب إنه تفيض لفرط الوجد أجفانه دما
يقم إذا ماالليل مد ظلامه على نفسه من شدة الخوف مأتما
ويذكر أياماً مضت من شبابه وماكان فيها بالجهالة أجرما
فصار قرين الهم طول نهاره أخا السهد والنجوى إذا الليل أظلما
يقول حبيبى أنت سؤلى وبغيتى كفى بك للراجين سؤلا ومغنما

(١) ص١١٤ ديوان الإمام الشافعى .

إلى أن قال :

ومن يعتصم بالله يسلم من الورى ومــن يرجــه هيهات أن يتندمــا

مرثية طويلة أخذ يبكى فيها الإمام الشافعى نفسه ويندب نفسه ندباً حاراً - وهو من هود ديناً وعلماً وتقى - إلا أنه حينما تحين ساعة الإنسان ويرى الموت أمامه فليس أمامه سوى البكاء على نفسه والندم على حياته والتضرع والتذلل لله خالقه مهما بلغت درجة إيمانه وعظمت تقواه وقلت ذنوبه وخطاياه، "فقد حدث المزنى وهو أبو إبراهيم اسماعيل بن يحى قال : دخلت على الشافعى فى مرضه الذى مات فيه فقلت : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلاً وللإخوان مفارقاً ولكأس المنية شارباً وعلى الله جل ذكره واردا، ولا والله ماأدرى روحى تصير إلى الجنة أم إلى النار ؟ ثم بكى وأنشأ يقول راثياً نفسه باكياً بهذه الأبيات"(١).

فعند الموت يصدم الإنسان ويرى فيه المصيبة الكبرى التى لامفر منها حيث : يفارق الإخوان والأهل ويترك الدنيا بمتاعها ولايعلم مصيره هل إلى جنة أم إلى نار ؟ .

وكانت تعظم مصيبة الشاعر حينما يجد نفسه بعيداً عن أهله غريباً عن وطنه وقد أشرف على الموت فلا يجد أحداً معه ويتلفت حوله فلا ينظر أحداً من أهله وأقربائه وأصدقائه فليس معه من يبكى عليه من الأهل والأصدقاء وليس معه من يعد له القبر ويواريه وليس معه من يشيعه إلى مثواه الأخير، إنها لحظة شاقة حقاً مؤثرة على النفس أيما تأثير صعبة على النفس أليمة عليها تزيد ألم الموت ألماً وفجيعته فجيعة أخرى، ومن هذا القبيل ماقاله العباس بن الأحنف يرثى به نفسه حينما وافاه أجله بعيداً عن أهله وموطنه وهو فى طريقه للحـج حيـث فاجأه المرض واشتـد عليه ولم يستطع السيـر

---

(١) ص١١٤ ديوان الشافعى .

فوقع على الأرض ونام تحت شجرة وأخذ يبكي ويرثى نفسه ويقول: (١)

ياغريب الدار عن وطنه ... مفرداً يبكى على شجنه
كلما جد البكاء به ... دبت الأسقام فى بدنه
ولقد زاد الفؤاد شجى ... طائر يبكى على فننه
شفه ماشفني فبكى ... كلنا يبكى على سكنه

فالشاعر يبكى نفسه وكله حزن وحسرة حيث لم يجد أحداً من أهله بجواره وهو يغادر حياته مازاده وجعاً وسقماً، ثم نراه يتفاعل مع الطبيعة ويشركها همومه وأحزانه وآلامه فهو يبكى على نفسه والطائر يبكى على نفسه فالهم واحد والمصيبة واحدة والحزن يجمع بينهما مشترك عندهما .

ويروى المسعودى فى مروج الذهب : "أن الشاعر لما فرغ من هذه الأبيات تنفس تنفساً فاضت نفسه منه، وغسله جماعة من القوم شاهدوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه رحمه الله تعالى" .

هذا والأمثلة على ذلك كثيرة فى دواوين شعراء العصر العباسى الأول وكتب الأدب والتاريخ التى أوردت نماذج من أشعارهم (٢).

رثاء الشباب :

رثاء الشباب من موضوعات الرثاء القديمة التى عرفها الشعر العربى فى العصر الجاهلي والإسلامى والأموى، وظل رثاء الشباب فى العصر العباسى الأول بل حتى العصر الحديث، حيث راح الشعراء يبكون على شبابهم الذى ولى ومضى ويرثون أيام الشباب

---

(١) ص٢٦ جـ٣ وفيات الأعيان لابن خلكان .

(٢) ينظر على سبيل المثال . ص ٣٥٦ جـ٣ وفيات الأعيان . و ٨٧١ تجريد الأغانى القسم الأول . و ص١٧٨٩ و ص٢٢٥٩ تجريد الأغانى القسم الثانى .

التى انتهت وقضيت ولعل الباعث الذى دفع الشعراء على بكاء شبابهم ورثائه وندبهم لأيام الصبا والشباب هو ماتمثله فترة الشباب بالنسبة للإنسان من أهمية فهى أزهى عصور عمره وهى أيام القوة والفتوة فى أزهى صورها وهى مرحلة الجمال البشرى بالنسبة للإنسان فضلاً عن أن جزءاً مهما من عمر الإنسان قد انقضى ولايرجى أبداً رجوعه فكل مامضى فقد مات وانتهى وبانتهاء مرحلة الشباب يحس الإنسان أنه قارب الشيخوخة التى لابد وأن تنتهى بالموت مع العلم بأن الموت لايفرق بين الصغير والكبير ولابين القوى والضعيف إلا أن الإنسان فى مرحلة الشباب غالباً لايفكر فى الموت بل يفكر فيه حينما يأخذ منه العمر مأخذه ويحس بأن العمر قد انتهى أو قارب أن ينتهى .

ومن أبرع من بكى الشباب ورثاه فى العصر العباسى الأول الشاعر العباسى : دعبل الخزاعى حيث قال : (١)

أيـــن الشبـــاب ؟ وأيـــة سلكـــا ... لا، أيـــن يطلـــب بـــل هلكـــا (٢)

لاتعجبـــى ياسلـــم مـــن رجـــل ... ضحك المشيـــب برأسه فبكـــى (٣)

قـــد كان يضحك فى شبيبتـــه ... وأتـــى المشيب فقلمـــا ضحكـــا

ياسلـــم مابالشيـــب منقصـــة ... لاسوقـــة يبقـــى ولاملكـــا (٤)

قصـــر الغوايـــة عن هوى قمـــر ... وجـــد السبيـــل إليه مشتركـــا

وعـــداً بأخـــرى عـــز مطلبهـــا ... صبـــاً يطا من دونها الحسكـــا (٥)

---

(١) ص٢٤٩ ديوان دعبل الخزاعى ، تحقيق / عبد الصاحب عمران الدخيلى الطبعة الثانية عام ١٩٧٢م، دار الكتاب اللبنانى ببيروت .

(٢) آية : أى سبيل .

(٣) ضحك المشيب : أى ظهر .

(٤) السوقة : الرعية .

(٥) الحسكا : الحسك : نبات له شوك .

ياليت شعري كيف نومكما ياصاحبي إذا دمي سفكا
لاتأخذا بظلامتي أحداً قلبي وطرفي في دمي اشتركا (١)

نرى دعبلا الخزاعي يبكي شبابه ويأسى لانتهائه ويحزن حزناً شديداً عليه ويرى أن الشباب يمثل للإنسان أهمية كبرى وغاية عظمى فهو أيام السرور والبهجة بخلاف المشيب الذي ينهى السرور والبهجة، ثم يتذكر الشاعر الموت حينما حل به المشيب ويرى أن الموت لايبقى على أحد فهو يغتال الملك كما يغتال الرعية والسوقة من الناس .

ويذكر أن دعبلا قد سرق معنى "مسلم بن الوليد" حيث يقول: (٢)

مستعبر يبكي على دمنة ورأسه يضحك فيه المشيب

سرقه دعبل فقال :

لاتعجبي ياسلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

إلا أنه أجود من قول مسلم فكان أحق به واشتهر به عن مسلم ابن الوليد حتى صار له .

وقد غنى هذه الأبيات بعض المغنين أمام الخليفة الرشيد فطرب لها طرباً شديداً وسأل عن ناظمها فقيل له : دعبل فأمر بإحضاره وأرسل إليه عشرة آلاف درهم وخلعه من الثياب" (٣)

وهذا الشاعر العباسي "منصور النمري يبكي الشباب ويرثيه رثاءاً رائعاً في مقدمة قصيدة مدح فيها الخليفة الرشيد حيث يقول في ذلك يبكي الشباب : (٤)

---

(١) الظلامية : مااحتملته من الظلم، والمراد هنا موته عشقاً من آثر النظر بعينه والحب بقلبه .

(٢) ص٢٠٨٩ تجريد الأغاني القسم الثاني .

(٣) ص٣١٩ العصر العباسي الأول د / شوقي ضيف .

(٤) ص٢٤٤ طبقات الشعراء لابن المعتز .

ماتنقضى حسرةٌ منى ولاجزع	إذا ذكرت شباباً ليس يرتجع
أودى الشباب وفاتتنى بشرته	صروف دهر وأيام لها خدع
ماكنت أو فى شبابى كنه غرته	حتى انقضى فإذا الدنيا له تبع
إن كنت لم تطعمى ثكل الشباب ولم	تشجى بغصته فالعذر لايقع

نرى الشاعر العباسى يبكى شبابه الذى ولى بل إنه يجزع جزعاً شديداً ويحزن حزناً كبيراً إذا تذكر أيام الشباب الماضية التى لايمكن أن تعود، فقد مضى الشباب وانتهى ومضت وانتهت معه الدنيا كلها، فالشباب رزء ومصيبة يصاب الإنسان بفقدها، وبفقده الشباب يحس إحساس الثكلى التى فقدت أعز مالها من رجال وأبناء .

ويرى ابن المعتز أن الشاعر قد أقام القيامة بحديثه عن الشباب هذا[١] وحقاً لقد رثى الشاعر الشباب وبكاه بكاءً رائعاً واستطاع أن يؤثر تأثيراً قوياً فى النفس الإنسانية التى تسمع هذه الأبيات لدرجة أنها لاتستطيع أن تتمتع بعيش أو تحس أو تهنأ بحياة بعد انقضاء الشباب وفنائه .

ويرثى اسحاق الموصلى الشباب ويبكى عليه بكاءً رائعاً حتى استطاع أن يهز المشاعر والأحاسيس هزاً بقوله :[٢]

تولى شبابك إلا قليلاً	وحل المشيب فصبراً جميلا
كفى حزناً بفراغ الصبا	وإن أصبح الشيب منه بديلا
ولما رأى الغانيات المشيـ	ـب أغضبن دونك طرفاً كليلاً
سأندب عهداً مضى للصبا	وأبكى الشباب بكاءً طويلاً

---

(١) ص٢٤٤ نفس المصدر .

(٢) ص٦٨٥ تجريد الأغانى القسم الأول .

المرثية بكاء على الشباب وندب على أيامه التى مضت وحزن وآلام على هذا الشباب الذى كان، وعهد من الشاعر أنه سيظل يندب شبابه ويبكيه بكاءً طويلاً .

ويحكى أن الشاعر قد غنى هذه الأبيات أمام الخليفة الواثق فبكى وحزن وقال للشاعر : والله لو قدرت على رد شبابك لفعلت ولو بشطر ملكى"(١) .

ويقول "البحترى" يبكى شبابه وينوح عليه :(٢)

عاديـــتمرآتـــىفأذنتهـــا	بالهجـــر ،ماكانـــتوماكنـــت
كانـت ترينى العمـر مستقبـــلاً	وهى تريـنـى الفـوت مـذ شبـت
واعمـــراه ! نوحـــاً لفقدانـــه	سيـان عنـدى شبـت أم مـت

فالبحترى يبكى على شبابه الذى مضى ويندبه ندباً حاراً مؤثراً ويرى أن المشيب هو الموت نفسه فلا فرق عنده بين المشيب وبين الموت .

ويقول "أبو محمد القاسم" يرثى الشباب ويبكى عليه :(٢)

ودع شبابـك قـد عـلاك مشيـب	وكـذاك كـل معمـر سيشيـب
جازت سنوك الأربعين فأزعجت	بلـة الشبـاب تجارب وخطـوب
فابـك الشباب وماخلا من عهده	أيـام أنت إلى الحسان طروب
رحـل الشبـاب وحل شيب بعده	فمضـت لذاذات وصد حبيـب
لهفى على غدر الشباب فإنـه	يكفيك إذ غصن الشباب رطيب
مابعـد شيبك غير لومك فاتخذ	زاداً لنفسـك فالرحيـل قريـب
ماهـذه الدنيـا بـدار إقامـة	لاتوطنـــن بهـا وأنـت غريـب

---

(١) ص٦٦٥ نفس المصدر .

(٢) ص١٦٨ - ١٦٩ الأوراق للصولى .

نرى الشاعر العباسى يبكى الشباب بكاءً حاراً ويندب عليه ويتوجع لفقده، ويرى فى انتهاء الشباب وقدوم المشيب انتهاءً لعمره وانقضاءً لحياته، فبعد انقضاء الشباب وقدوم المشبب يجب على الإنسان أن يتجهز للرحيل الأبدى .

إنها صرخة من الشاعر على شبابه الذى انتهى ودعوة إلى النفس لأن تتهيأ للموت بعد انتهاء الشباب وإحلال المشيب .

وهكذا رثى الشعراء العباسيون شبابهم وبكوا عليه وندبوه ندباً حاراً مصورين المشيب بالموت نفسه أحياناً ويصورونه بالنذير إلى الموت أحياناً أخرى، فذهاب الشباب يعنى ذهاب العمر وانقضائه، فالشباب يعنى الحياة بكل معانيها .

«الفصل الرابع»

الرثاء السياسي في العصر العباسي الأول



«الرثاء السياسى»

أقصد بالرثاء السياسى : هذا اللون من الرثاء الذى يتناول الشخصيات الحاكمة فى الدولة من : خلفاء ووزراء وقواد وولاة وغيرهم من كبار رجال الدولة بالبكاء عليهم وتأبينهم والعزاء فيهم فضلاً عن رثاء الأئمة من آل البيت النبوى وشيعتهم وندبهم والتفجع عليهم فى شعر رثائى تفوح منه رائحة السياسة بل والعقيدة السياسية التى آمن بها الشاعر وأهدافه وآراءه السياسية التى اعتقدها .

فالرثاء السياسى هو هذا اللون من الرثاء الذى نظم بدوافع سياسية أو دعى إليه منصب سياسى أو كان المرثى من رجال السياسة والحكم فلولا وجوده فى هذا المنصب مارثاه الشعراء وبكوا عليه .

ويشمل هذا اللون من الرثاء فى العصر العباسى الأول : رثاء الخلفاء العباسيين ووزرائهم وولاتهم وقوادهم وكبار رجال دولتهم فضلاً عن هذا الرثاء الذى قيل فى آهل البيت النبوى وأئمتهم وشيعتهم والثائرين منهم على الدولة العباسية .

رثــــاء الخلفاء :

قامت الدولة العباسية عام ١٣٢ هـ بعد الثورة على الأمويين بقيادة أبى مسلم الخراسانى وعلى أكتاف الفرس وبزعم انتزاع الخلافة من الأمويين الغاصبين وردها لأصحابها الشرعيين من آل البيت النبوى إلا أن العباسيين قاموا بخداعهم واستأثروا بالحكم والخلافة زاعمين أنها حقهم لاحق العلويين، واعتلى أول الخلفاء العباسيين أبو العباس السفاح " كرسى الخلافة العباسية وأصبح خليفة المسلمين الأول فى دولة بنى العباس إلا أنه لم يستمر فى

الحكم طويلاً فقد توفى عام ١٣٦ هـ وأخذ الشعراء يرثونه ويبكون عليه متفجعين معددين مناقبه وفضائله ذاكرين مثله وصفاته مظهرين ماامتاز به عصره من الأعمال الجليلة واصفين مصيبتهم فيه وصفاً ممتزجاً بروح الشكوى والأنين والألم، ومن هذا القبيل قول الشاعر أبى دلامة يرثيه :(١)

أمسيت بالأنبار يابن محمد	لم تستطع عن عقرها تحويلا
ويلى عليك وويل أهلى كلهم	ويلاً وعولاً فى الحياة طويلاً
فلتبكين لك النساء بعبرة	ولتبكين لك الرجال عويلا
مات الندى إذ مُتَّ يابن محمد	فجعلتَهُ لك فى التراب عديلا
إنى سألتُ الناس بعدك كلهم	فوجدت أسمح من وجدت بخيلا
ألشقوتى أخرت بعدك للتى	تدع العزيز من الرجال ذليلا
فلأحلفن يمين حق برة	بالله ماأعطيت بعدك سولا

نجد "أبا دلامة" يرثى خليفته ويبكى عليه بكاءً حاراً ويندبه ندباً رائعاً وكله مشاعر صادقة وفيه تجاه الخليفة يبكى عليه ويستبكى عليه كذلك، ويصور عظم مصيبته وهول فجيعته فى الخليفة الذى مات ومات معه الندى والجود فلم يعد هناك بعده من يسأله فيعطيه ولم يعد هناك بعده من هو أجود منه وأسمح، فالشاعر صادق فى رثائه لخليفته معبراً عن مشاعره بكل الصدق والوفاء والولاء له حتى أنه كان يتمنى الموت قبله، فهو بعده شقى ذليل .

فالأبيات رائعة فى رثائها بارعة فى إحكام نسجها، توحطها العاطفة الصادقة والمشاعر الحزينة الجياشة مؤثرة تأثيراً عميق الأسى فيمن يسمعها، فقد أبكت هذه الأبيات جميع الحاضرين الذين كانوا يعزون ابنه المنصور فيه حيث أنشدها أبو دلامة فى هذا المجلس فأبكى الناس قوله"(٢) ولاغرابة فى أن يبكى أبو دلامة بشعره الناس

---

(١) ص١٢١١ تجريد الأغانى القسم الأول .

(٢) ص٥٤ طبقات الشعراء لابن المعتز .

فقد كان من الشعراء المجيدين في هذا الفن الشعرى، وكثيراً مابكى السفاح ورثاه وأبنه تأبيناً حاراً بكل عواطفه الصادقة ومشاعره الجياشة وشاعريته الأصيلة .

ونرى الشاعر العباسي "حماد عجرد" يرثى "محمداً بن أبى العباسى السفاح" بقوله :[١]

ياسمـي النبـي يابن أبـي العبـ	ـاسـي حققـت عندى المحـذورا
سلبتنـي الهمـوم إذ سلبـت منـ	ـك سـرورى فلست أرجو سـرورا
ليتنـي متُّ حيـن مـت ألا بـل	ليتنـي كنـت قبلـك المقبـورا
أنـت ظللتنـي الغمـام نعمـا	ك ووطـأت لـي وطاءً وثيـرا
لـم تـدع إذ مضيت فينا نظيرا	مثـل مالـم يـدع أبوك نظيـراً

يرثى الشاعر محمداً بن أبى العباس السفاح، مصدراً أبياته بنسبته إلى النبى صلى الله عليه وسلم لتشريفه وتعظيمه بهذا النسب النبوى، ثم يصور حزنه على هذا الفقيد وهمومه التى جلبها عليه فراقه، ثم نراه يبالغ فى حزنه عليه لدرجة أنه تمنى الموت مثله بل إنه كان يتمنى أن يموت قبله، ثم يفصح الشاعر عن سبب حزنه هذا عليه وهو ماكان يلحقه من جود وكرم من المرثى .

ثم خلف "السفاح" أبو جعفر المنصور" الذى يعد المؤسس الفعلى للدولة العباسية، فهو الذى ضبط الدولة ورتب قواعدها وقنن القوانين فيها وبلغت الدولة فى عهده مبلغاً عظيماً من القوة والاستقرار والتقدم، إلا أنه توفى عام ١٥٨ هـ، فراح الشعراء يرثونه ويبكون عليه بكاءً حاراً، مثل : أبى دلامة الذى رثاه بقصيدة جمع فيها بين رثائه وتهنئة المهدى بتوليه الخلافة بقوله :[٢]

---

(١) ص١٦٠٣ تجريد الأغانى ، القسم الثانى .

(٢) ص٦٠ طبقات الشعراء لابن المعتز .

عينـــان : واحدة ترى مســـرورة بإمامهـــا جذلـى وأخرى تذرف
تبكى وتضحك مرة، ويسوءها ماأبصـرت ويسرهـا ماتعـرف
فسوءهـا موت الخليفة محرماً ويسرهـا أن قـام هـذا الأرأف
ماإن رأيت ولاسمعت كما أرى شعـراً أرجلـه وآخـر أنيـف
هلـك الخليفـة ياالأمـة أحمـد فأتاكـم مـن بعـده من يخلف
أهـدى لهـذا الله فضل خلافة ولـذاك جنـات النعيـم تزخـرف
فابكوا لمصـرع خيركم ووليكم واستشرفـوا لمقـام ذا وتشرفـوا

هذه المرثية تدل على براعة الشاعر ومقدرته الفائقة وتملكه من أدوات التعبير وناصيته الشعر بجميع فنونه وأغراضه، حيث جمع بين الحزن والفرح، والرثاء والتهنئة فى قصيدة واحدة وهذا النوع من الشعر لايقدر عليه إلا مجيد فنان، حيث يعد الجمع بين التعزية والتهنئة من أصعب الرثاء على الشاعر كما يقول ابن رشيق : "ومن صعب الرثاء أيضاً جمع تعزية وتهنئة فى موضع، قالوا لما مات معاوية اجتمع الناس بباب يزيد فلم يقدر أحد على الجمع بين التهنئة والتعزية حتى أتى عبيد الله بن همام السلولى فدخل وفتح للناس باب القول"(١) .

ومن الرائع كذلك أننا لانرى الشاعر يجعل للرثاء أبياتاً وللتهنئة أبياتاً مستقلة بل نراه يجمع بين التعزية والتهنئة فى كل بيت من الأبيات ويذكر المعنين فى بيت واحد، مما زادها روعة وبراعة. وقد أشاد بها ابن المعتز واستحسنها وجعلها من جيد الشعر(٢)، كما أشاد بها كذلك الدكتور شوقى ضيف واستحسنها وجعلها من النوادر"(٣) .

---

(١) ص١٥ جـ٢ العمدة .
(٢) ص٦٠ طبقات الشعراء .
(٣) ص٢٩٧ العصر العباسى الأول .

كذلك رثى الشعراء العباسيون الخليفة "المهدى" وبكوا عليه وأبنوه وعزوا خلفه فيه، ومن ذلك قول الشاعر "مروان بن أبى حفصة" يعزى "الهادى" بوفاة المهدى :(١)

لقد أصبحت تختال فى كل بلدة ... بقبر أمير المؤمنين المقابر(٢)

أتته التى ابتزت سليمان ملكه ... وألوت بذى القرنين منها الدوائر (٣)

أتته فغالته المنايا وعدله ... ومعروفه فى الشرق والغرب ظاهر

ولو كان تجريد السيوف يردها ... ثنت حدها عنه السيوف البواتر

بأيد بها تعطى الصوارم حقها ... وتروى لدى الروع الرماح الشواجر (٤)

ولو لم تسكن بابنه بعد موته ... لما برحت تبكى عليه المنابر

يرثى الشاعر الخليفة رثاءً هو أقرب إلى المدح منه إلى الرثاء ولولا مافى الأبيات من ذكر للموت والقبر والبكاء لكانت القصيدة مدحة خالصة، وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام إن كان الميت ملكاً أو رئيساً كبيراً"(٥).

والأبيات خالية من التفجع والحسرة والأسف، بل نراها ذكراً لفضائل الميت وفخراً به حتى بعد موته، بل إن القبور فى كل البلاد تفتخر بقبر الخليفة الميت، فالقصيدة أقرب إلى المدح منه إلى الرثاء. وكان الأجدر بالشاعر أن يرثى خليفته ويبكيه بكاء حاراً ويندبه ويتفجع عليه ويتحسر فقد كان شاعره الخاص فى حياته ولطالما

---

(١) ص٤٨ شعر مروان بن أبى حفصة ، تحقيق / الدكتور حسين عطوان الطبعة الثالثة دار المعارف .

(٢) تختال : تفاخر .

(٣) ابتزت : سلبت . ألوت به : أهلكته . الدوائر : الدواهى .

(٤) الشواجر : المتداخلة .

(٥) ص١٤٧ العمدة لابن رشيق .

مدحه بالغرر من القصائد وكثيراً مانال منه الهبات والعطايا الثمنية فهو البته مقصر ولاشك فى رثاء خليفته .

وهذا "سلم الخاسر" يرثى الخليفة "المهدى" ويؤبنه تأبيناً رائعاً حيث يقول فى ذلك :[1]

وباكيـــة علـى المهـدى عبـرى — كـــأن بهــا وماجبــت جنونــا
وقد خمشت محاسنهــا وأبــدت — غدائرهـا وأظهـرت القرونـا [2]
لئــن بلــى الخليفــة بعـد عشر — لقــد أتــى مساعــى مابلينــا
ســلام اللــه غــدوة كل يــوم — علــى المهـدى حيــن ثوى رهينا
تركنــا الديــن والدنيا جميعــا — بحيــث ثــوى أميــر المؤمنينا

نجد الشاعر يسيل دموعه على خليفته متفجعاً كله حسرة ولهفة وأسف عليه، معدداً مناقبه الحميدة، داعياً الله عز وجل له مظهراً عظم المصيبة وهول الفجيعة التى حلت بفقد الخليفة، فقد كان رحمه الله هو الدين والدنيا معاً، وصدق الشاعر فقد كان المهدى ورعاً تقياً عادلاً لايرجو إلا الله ولايبغى بعمل سواه تعالى .

فالأبيات تفيض لوعة وحسرة من الشاعر على الخليفة ورثاه بكل الصدق والوفاء والإخلاص وهو فى هذا يفصل مروان بن أبى حفصة ويتفوق عليه فى رثائه تعبيراً وعاطفة وتصوير حزن وفجيعة.

ويلى "الرشيد" الخلافة عام ١٧٠ هـ بعد وفاة "الهادى" ويعد عصره بحق العصر الذهبى طوال حكم العباسيين بما بلغته دولته من تقدم ورقى وازدهار فى شتى مناحى الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية فقد عاشت الدولة فى أيامه عصر العظمة والأبهة والفخامة والروعة، فى كل اتجاهاتها ، فضلاً عن شدة ورعه

---

(١) صـــ

(٢) الغدائر والقرون : خصال الشعر .

وتقواه وعظمة خشيته لله تعالى فقد روى أنه قضى حياته حاجاً غازياً فى سبيل الله تعالى .

ولما توفى رحمه الله عام ١٩٣ هـ رثاه الشعراء وبكوه وندبوه ندباً حاراً وكان من أكثر الخلفاء العباسيين نصيباً من رثاء الشعراء العباسيين فقد رثاه كثير من شعراء العصر وبكوا عليه وأبنوه تأبيناً رائعاً، منهم الشاعر "عمر بن سلمة" ومن رثائه فيه قوله :(١)

مـــات الإمـــام فعـم أهـــ	ـــل الدين كلهـم مصابـــه
عريـــن منـــه ركابـــه	فتعطلـــت منـــه قبابـــه
وتفـــــردت أجنـــــاده	وخـــلا مـــن الحـــراس بابـــه
وأقـــام فـــى ملحـــوده	لايرتجـــى منـــه إيابـــه
فـى الرمـس مقـرب المحـــ	ـــل لحافـــه منـــه ترابـــه
ماهابـــه القـــدر الـــذى	أودى بـــه غضـــاً شبابـــه
فقـد كـــان كل النـاس تـــر	جـــوه وكلهـــم تهابـــه
فاعتاقـــه ريـــب المنـــو	ن وحـــان مـــن أجلٍ كتابـــه

فالمرثية طويلة وهذه أبيات منها أخذ فيها الشاعر يرثى الخليفة الرشيد رثاءً حاراً مظهراً عظم المصيبة التى حلت بموته وموضحاً هول الفجيعة التى تمت بعد موته، فأهل الدين كلهم عليه حزين، وأصبح القصر خالياً حتى من الحراس، ثم يصور الشاعر ماكان عليه الخليفة من عظمة وقوة إلا أنه الآن قد وورى فى التراب والتحف التراب وهو الذى كان يخافه كل الناس ويهابونه لعظمته ومكانته .

فالشاعر يرثيه بصدق ويؤبنه بحق متأثراً بروح الإسلام خاصة فى البيت الأخير الذى يرى أن لكل أجل كتابه، ويرثيه بأسلوب واضح محكم النسج والعبـارة لاتعقيد فيــه ولاالتواء أو غرابـة فـــى

(١) ص١٥١ - ١٥٢ طبقات الشعراء لابن المعتز .

معنى أو لفظ، وقد رثاه رثاءً يتفق ورثاء الملوك والرؤساء الكبار مظهراً ماكان عليه المرثى من عظمة ومكانة فى حياته الأولى .

ومن رثاه أيضاً الشاعر العباسى المشهور "أبو نواس" حيث يقول يرثيه فى بيتين اثنين فقط :[١]

الناس مابين مسرور محزون	وذى سقام بكف الموت مرهون
من ذا يُسَرُّ بدنياه وبهجتها	بعد الخليفة ذى التوفيق هارون

نرى الشاعر العباسى أبا نواس وهو الشاعر الذى ملأ الدنيا فحشاً ومجوناً بشعره فى الخمر والغزل والمجون لم يستطع أن يرثى الخليفة العظيم "الرشيد" بأكثر من بيتين فقط متكلفاً إياهما ضعيف العاطفة فيهما لانحسى حزناً له أو حسرة وتفجعاً منه على خليفته، ونراه يكتفى فى رثائه للخليفة بأن الناس غير مسرورين بفقد الخليفة الرشيد .

فالشاعر ضعيف العاطفة متكلف فى رثائه وهذا شأن أبى نواس فى رثائه كله، فهو لم يجد فى هذا الفن ولم يصدق فيه إلا فى رثائه للخليفة الأمين فى مقطوعة واحدة سوف نذكرها . ومن رثى الخليفة "الرشيد" الشاعر العباسى "أشجع السلمى" الذى رثاه بأكثر من قصيدة، ومن قصائده فيه قوله يرثيه :[٢]

ياصاحب العيس تخدى فى أزمتها	اسمع مقالى وأسمع صاحب العيس
إقرأ السلام على قبر بطوس ولا	تقرأ السلام ولاتعمى على طوس
إن المنايا أنالته مخالبها	ودونه عسكر جم الكراديس
أو فى عليه الذى أو فى بأشبله	والموت يلقى أبا الأشبال فى الخيس
من كان مقتبساً من نور سابقه	إلى النبى ضياءً غير مقبوس
فى منبت نهضت فيه فروعهم	بسامق فى بطاح الملك مغروس
والفرع لايلتقى إلا على ثقة	من القواعد قد شدت بتأسيس

---

(١) ص٦٦٣ ديوان أبى نواس .

(٢) ص١٢٩ الأوراق ، للصولى .

فى رثائه لخليفته يبعث الشاعر السلام إليه فى قبره المقام بمدينة طوس وينعاه ويصف موته حيث أخذته المنايا وافترسته افتراساً بين أهله وعسكره، ثم يعدد الشاعر مناقب الخليفة ويرى أن نوره مقتبس من نور النبى صلى الله عليه وسلم - كقول الشيعة فى أئمتهم - فهو ينتسب إليه ونوره من نوره، وأنه نبت فى بيت الملك. فالشاعر يبكى الخليفة ويؤبنه تأبيناً يليق بمنزلته ومكانته .

وللشاعر مراث أخرى فى "الرشيد" بكاه فيها وأبنه تأبينا حاراً معدداً مناقبه وفضائله وهى مناقب وفضائل تتناسب مع مكانة الرشيد كخليفة عظيم للمسلمين(١) .

كذلك يعد الخليفة "الأمين" من أكثر الخلفاء رثاءً وتأبيناً من جانب شعراء العصر العباسى الأول، فقد راح كثير من شعراء العصر يبكونه بعد موته (عام ١٩٨هـ) ويرثونه رثاءً حاراً، ومن أجود ماقيل فى رثائه قول أبى نواس يرثيه:(٢)

طوى الموت مابينى وبين محمد	وليس لما تطوى المنية ناشر
فلاوصل إلا عبرة تستديمها	أحاديث نفس مالها، الدهر ذاكر
وكنت عليه أحذر الموت وحده	فلم يبق لى شىء على أحاذر
لئن عمرت دور بمن لاأوده	فلقد عمرت ممن أحب المقابر

إنها حقاً مرثية رائعة قلباً وقالباً وشكلاً ومضموناً ، فهى تدل على أن الشاعر قد رثى الخليفة وكله حزن وأسى بل آحزان ومآس رثاه ولهيب الحزن يخرج من بين طيات قلبه وثنايا فؤاده، رثاه بعاطفة صادقة جياشة تعبر عن مشاعره بكل الصدق وتدل على الوفاء

(١) ينظر على سبيل المثال : الأوراق ص١٢٨ و ص١٣٠ و ص١٤١، وتجريد الأغانى القسم الثانى ص١٩٦٠ والأغانى جـ١٨ ص٢٣٥ .
(٢) ص٣٤٢ ديوان أبى نواس .

والاخلاص والولاء لخليفته الذى واراه التراب. فالشاعر حزين أشد الحزن متألم أقسى الألم لفقد خليفته وطى الموت له، وهو دائم البكاء عليه ودائم التذكار له طوال حياته، وبموته لم يعد هناك أحد يخاف عليه الشاعر فقد كان كل همه وشغله وحبه .

وتمتاز الأبيات بفنيتها فى إحكام النسج ومتانة الألفاظ والعبارات ورصانة وجزالة الأسلوب فضلاً عن صدق العاطفة وحرارة المشاعر وتوهج الأحاسيس، فهى قطعة من قلب الشاعر الحزين الملكوم.

لذا رأينا كثيراً من النقاد والأدباء يرفعون شأن هذه المرثية ويشيدون بروعتها وصدقها، فيقول الدكتور طه حسن معقباً على هذه الأبيات : "وأنا أزعم أن أبا نواس لم يصدق فى رثائه إلا مرة واحدة وذلك حين رثى الأمين فى هذه الأبيات فأما غير ذلك من الرثاء فسخيف أو متكلف"(١) .

ويرى الدكتور شوقى ضيف أن هذه المرثية أجود مراثى الشاعر حيث يقول : "وهو فى مراثيه يمتاز بحرارة اللهجة وصدق العاطفة وربما كان أجودها جميعاً مراثيه فى الأمين وهى تفيض باللوعة الحزن العميق من مثل قوله "وذكر الأبيات السابقة"(٢)

كما يشيد بها الدكتور "عمر فروخ" فى قوله : "الرثاء قليل جداً فى ديوان أبى نواس فلم يكن الحزن مذهب أبى نواس ولكن هذا لم يمنع عاطفة أبى نواس من البروز فى هذا الفن، فلقد رثى الأمين فى أبيات قلائل ولكنها مشهورة(٣)" وأشار إلى الأبيات السابقة التى ذكرناها .

---

(١) ص١٣٣ جـ٢ حديث الأربعاء .

(٢) ص٢٣٠ العصر العباسى الأول .

(٣) ص١٠٤ أبو نواس، منشورات دار الشرق الجديد ببيروت، الطبعة الأولى عام ١٩٦٠ م .

وأنا أتفق مع هؤلاء وغيرهم فى روعة هذه الأبيات وصدقها وبراعتها فى مضمونها وأسلوبها، إلا أننى لاأتفق مع قول الدكتور شوقى ضيف فى الجزء الأول من كلامه حيث زعم أن مراثى أبى نواس ممتاز بحرارة اللهجة وصدق العاطفة معمماً القول فى مراثيه كلها، فقد كان أبو نواس سخيفاً أو متكلفاً فى رثائه ضعيفاً فى هذا الفن إلا فى رثائه للأمين .

ولأبى نواس مراث أخرى فى الأمين جيدة فيها الصدق واللوعة وتوهج المشاعر مثل التى ذكرناها"(١).

ومن بكى الأمين بكاءً شديداً وتفجع وأذرف الدمع أنهاراً عليه الشاعر "الحسين بن الضحاك" حيث كان كثير المراثى فى "محمد الأمين" شديد الجزع عليه وكان لفرط محبته وجزعه لقتله أنه خولط فى عقله فكان ينكر قتله ويدفعه ويقول : إنه مستتر وإنه قد بث دعاته فى الأمصار يدعون إلى مراجعة أمره"(٢) .

ومن رثائه فيه قوله :(٣)

سألونـا أن كيـف نحـن فقلنـا	مـن هـوى نجمـه فكيف يكون
نحن قومٌ أصابنـا حدث الدهـ	ـرفظلنـا لريبــه نستكيــن
نتمنــى مــن الأميــن إيابــاً	كهــف نفس وأين منا الأمين

فالأبيات بكاء حار من الشاعر على الخليفة القتيل وكلها لوعة وحسرة عليه وتفيض بمشاعر الحزن الصادقة والألم الممض العميق، ونجد الشاعر يجزع أشد الجزع على الخليفة ويصدم فى عقله صدمة جعلته يتمنى رجوعه إلى الدنيا من جديد .

---

(١) ينظر ديوانه : ص٣٤٣ ، وفيات الأعيان جـ٤ ص٣٩ .

(٢) ص٨٥٥ تجريد الأغانى ، القسم الأول .

(٣) ص٨٥٥ نفس المصدر .

إنه الحزن الذى خيم على قلب الشاعر وعقله، والحب العميق الذى أحب به الشاعر خليفته، حيث أحبه بكل عواطفه ومشاعره مما جعله يتحسر عليه ويتقطع عليه قلبه وتتفطر له الأكباد .

ويلغ من شدة حزن الشاعر على الخليفة أنه أخذ يهجو الخليفة "المأمون" الذى قتل أخاه "الأمين" ولم يعبأ بذلك مع أنه الخليفة الحاكم.

ومن جيد رثائه أيضاً للأمين قوله فيه :(١)

أعــزى يا محمــد عنك نفسى ... معــاذ اللــه والأيــدى الجسام
فهــلا مــات قومٌ لـم يموتــوا ... ودوفــع عنــك لى يـوم الحمام
كــأن الموت صادف منك غنمــا ... أو استشفــى بقربـك مـن سقام

نجد الشاعر يعزى نفسه في موت صديقه الخليفة وكان يتمنى بقاءه حتى ولو مات القوم كلهم أجمعون، فنرى إلى أى حد بلغ حزن الشاعر على الخليفة وإلى أى حد بلغ حبه له؟ إنه الحزن الصادق العميق والحب الدائم الذى لاينتهى ولاينفذ .

والخليفة العباسى "المعتصم" نال حظاً وافراً من رثاء شعراء العصر له لايقل حظاً عن "المنصور" والرشيد "والأمين"، فقد راح الشعراء يبكونه بعد وفاته (٢٢٧هـ) ويرثونه رثاءً حاراً يفيض لوعة وروعة .

ومن رثاه من الشعراء الشاعر الكبير "أبو تمام" بقوله : (٢)

ماللدمــوع تــروم كـل مــرام ... والجفــن ثاكـل هجعـةٍ ومنــام
ياحضرة المعصوم تربـك مــودع ... مــاء الحيــاة وقاتــل الإعــدام
إن الصفائح منك قد نضدت على ... ملقــى عظـام لو علمت عظـام
فتــق المدامــع أن لحــدك حلــه ... سكــن الزمــان وممسـك الأيـام
ومصــرف الملــك الجموح كأنـه ... قــد زم مصعبــه لــه بزمــام

---

(١) ص٨٥٥ تجريد الأغانى القسم الأول .
(٢) ص٢٠٣ جـ٢ ديوان أبى تمام .

هدمت صـروف الموت أرفع حائط — ضربـت دعائمـه على الإسـلام
دخلـت علـى ملـك الملوك رواقه — وتشذنـت لمقـوم القـوام[١]
مفتـاح كـل مدينـة قـد أبهمت — علقـاً ومخلـى كـل دار مقـام
ومعـرف الخلفـاء أن حظوظهـا — فـى حيـز الإسـراج والإلجـام
أخـذ الخلافـة عـن أسنتـه التى — منعـت حمـى الآبـاء والأعمـام

هذه الأبيات من قصيدة طويلة رثى فيها "أبو تمام" الخليفة "المعتصم" وهنأ "الواثق" بالخلافة ومدحه فيها، فقد جمع الشاعر بين الرثاء والمدح والتهنئة فى قصيدته مما يدل على براعة الشاعر الفنية ومقدرته الفائقة فى الشعر وتطواعه له حسب مايريد ويرغب فأبو تمام هو من هو فى عالم الشعر ودنيا القريض بوجه عام وشعر المدح والرثاء بوجه خاص .

وأبيات الرثاء تفيض لوعة وحزناً وندباً على الخليفة العباسى "المعتصم" وتزخر بالبكاء والعويل من قلب محترق صادق العاطفة صادق المشاعر والأحاسيس، وكيف لايكون ذلك كذلك وقد أحب الشاعر الخليفة حباً عميقاً، وكثيراً مامدحه وتغنى بانتصاراته على أهل الكفر والإلحاد فى قصائد رائعة مثل قصيدته التى يقول فى مطلعها :

السيـف أصدق أنباءً من الكتـب — فـى حده الحد بين الجد واللعـب

والشاعر هنا فى قصيدته التى معنا فضلاً عن أنه بكى الخليفة وندبه وتفجع عليه فقد أثنى عليه وأبنه تأبيناً رائعاً وذكر مناقبه وعدد فضائله الكثيرة، فقد كان الخليفة: سكن الزمان وممسك الأيام ومصرف الملك الجموح وأعظم مدافع عن الإسلام وهو ملك الملوك وهو مفتاح كل باب مبهم وهو الذى علـم الخلفـاء حظهـم فـى

---

(١) تشزنت : تهيأت وتغضبت .

الغزو وبلغ الخلافة بنفسه وبآبائه، ثم يثبت الشاعر الخلافة للعباسيين والخليفة "المعتصم" حيث يرى أنها ميراثهم الذى أورثه الله إياهم وقد جاء القرآن الكريم مبشراً ومؤيداً هذا الحق لهم فى سورتى الأنفال والأنعام، حيث قال تعالى فى سورة الأنفال : "واعلمو أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى .. الآية"(١)

وقال فى سورة الأنعام : "وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه .. وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين"(٢) . حيث جعل لوطاً من ذريته وهو ابن أخيه فأوجب بذلك الميراث والخلافة على هذا الوجه للعباس وأولاده .

فالمرثية ندب وتفجع وثناء على الميت ومدح له وإشادة به وبمناقبه وإثبات الخلافة له وللعباسيين، ومن أحسن المراثى ماخلط فيه مدح بتفجع على الميت وإذا وقع ذلك بكلام صحيح ولهجة معربة ونظام غير متفاوت فهو الغاية من كلام المخلوقين(٣) كما فى هذه القصيدة .

فالقصيدة رائعة الصياغة بارعة النسج قد وفق فيها الشاعر وبلغ غاية عظمى فى رثائه : فكراً وأسلوباً ومعانٍ وعاطفة ونسجاً .

وقد أشاد بها وبروعتها الكثيرون أمثال : أبى إسحاق الحصرى القيروانى، حيث عدها من جيد ماقيل فى الرثاء الذى جمع بين التعزية والتهنئة بقوله : "ومن جيد ماقيل فى ذلك - أى الرثاء الذى يجمع بين التعزية والتهنئة - قصيدة أبى تمام الطائى يمدح

(١) سورة الأنفال الآية رقم ٤١ .

(٢) سورة الأنعام من الآية رقم ٨٣ - ٨٦ .

(٣) ص٩٢٨ جـ٢ زهر الآداب للحصرى بتحقق / على محمد اليماوى ، الطبعة الثانية طبع : الحلبى .

الواثق ويرثى المعتصم"[١] ثم أورد أبياتاً من القصيدة .

ومثل "ابن رشيق القيروانى" الذى جعلها أروع قصيدة فى الرثاء الذى يجمع بين الرثاء والتهنئة مطلقاً، حيث يقول معلقاً على هذه القصيدة : "صرف الكلام فيها كيف شاء وأطنب كما أراد واحتج فيها فأسهب وتقدم فيها على كل من سلك هذه الناحية من الشعراء"[٢] أى ناحية الجمع بين الرثاء والتعزية .

كما أشاد بها الدكتور "شوقى ضيف" وجعلها من بدائع الشعر الرثائى الذى جمع بين الرثاء والتهنئة[٣] .

ويقول "ابن الزيات" يرثى الخليفة "المعتصم" ويندبه :[٤]

قـد قلت مذ غيبوك واصطفقت ... عليـك أيـد بالتـرب والطيـن
إذ هب فنعم المعين كنت على الد ... نيـا ونعـم الظهيـر للديـن
لن يجيـر اللـه أمـة فقـدت ... مثلـك إلا بمثـل هـارون

فالأبيات تجمع بين رثاء "المعتصم" وتهنئة "الواثق" وقد أجاد الشاعر فيها حيث جمع بين التفجع والمدح للمرثى فضلاً عن أنه جمع بين الرثاء "للمعتصم" والتهنئة "للواثق" فى قصيدة واحدة، وإن لم يبلغ مابلغه أبو تمام فى قصيدته حيث أخذ أبو تمام يرثى الخليفة ويتفجع عليه ويمدحه ويثنى عليه ويهنئ الخليفة الجديد مشيداً به إيما إشادة وذلك من خلال قصيدته الطويلة ذات النفس الطويل فى براعة وروعة فى كل عنصر من عناصرها بينما اكتفى ابن الزيات فى رثائه ومدحه على هذه الأبيات الثلاثة وكأنه علم من نفسه التقصير فى ذلك فاكتفى عليها .

---

(١) ص٥٤ جـ١ زهر الآداب، للحصرى . تحقيق / على محمد البجاوى الطبعة الثانية ، مطبعة الحلبى .
(٢) ص١٥٦ جـ٢ العمدة .
(٣) ينظر العصر العباسى الأول ص٢٧٤ .
(٤) ص١٥٦ جـ٢ العمدة .

كما رثى "الحسين بن الضحاك "الخليفة" المعتصم" وهنأ "الواثق" فى قصيدة بعينها وكما فعل "البحترى" ذلك فى رثائه للخليفة ومدحه لأحد قواده .(١)

ومن أعظم الخلفاء العباسيين وأكثرهم ندباً ورثاء الخليفة "المتوكل" الذى تولى الخلافة عام ٢٣٢ هـ وقد ازداد نفوذ الأتراك وعظم خطرهم فى أيامه وقتل الخليفة ولده "المنتصر بالله" بالتآمر مع الآتراك، ليلة الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة ٢٤٧ هـ وله إحدى وأربعون سنة ودفن فى القصر الجعفرى وهو قصر ابتناه بسر من رأى ودفن هو "والفتح بن خاقان" وزيره ولم يصل عليهما فكانت خلافته أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وتسعة أيام"(٢) .

وقيل إن السبب فى قتله أنه قدم ابنه المعتز على المنتصر "والمنتصر" أسن منه وكان يتوعده ويسبه ويسب أمه ويآمر الذين يحضرون مجلسه من أهل السخف بسبه فسعى ابنه لقتله"(٣)

حيث تآمر مع الأتراك الذين أحسوا بكره الخليفة لهم ومحاولة التخلص منهم فقتلوه هو ومن كان معه فى القصر الجعفرى، وأول من ضربه "فاغر التركى" حيث ضربه ضربة قطع بها حبل عاتقه وتلقاه "الفتح" بنفسه فأكب عليه فقتلا جميعاً وبويع "المنتصر" من ساعته"(٤).

وقد رثاه كثير من الشعراء وبكوا عليه بكاءً حاراً وأذرفوا الدمع عليه أنهاراً خاصة هؤلاء الشعراء الذين حضروا واقعة مقتلـه

---

(١) ينظر تجريد الأغانى ص٨٥٧ ، وديوان البحترى جـ٢ ص٨٨٢ .

(٢) ص٣٥٠ جـ١ وفيات الأعيان .

(٣) ص٣٥٠ جـ١ نفس المصدر .

(٤) ص٢١٤ جـ١ زهر الآداب .

وشاهدوا ماحدث للخليفة ورأوا ذلك رأى العين مثل : "البحترى" "ويزيد المهلبى" وغيرهما من شعراء عصره .

ويعد "البحترى" من أشهر الشعراء الذين رثوا "المتوكل" وبكوا عليه بكاءً حاراً فى شعر سياسى يفوح منه الثورة على القتلة والدعوة لأخذ الثأر منهم والهجاء لهم. ومن أروع قصائده فيه بل فى فنه الرثائى بوجه عام قصيدته التى يبدؤها بقوله : (١)

محـل على القا طول أخلق دائـره ... وعـادت صروف الدهر جيشاً تغاوره

حيث ابتدأ القصيدة برثاء القصر وتصوير ماحدث له ثم أخذ يرثى الخليفة ويبكيه ويندبه ندباً حاراً فى قوله :

وأيـن عميد الناس فى كـل نوبـةٍ ... تنـوب وناهى الدهر فيهم وآمـره؟
تخفـى لـه مغتالـه تحـت غـرةٍ ... وأولـى لـمـن يغتاله لو يجاهـره
فمـا قاتلـت عنـه المنون جنـوده ... ولادافعـت أملاكـه وذخائـره
ولانصـر المعتـز مـن كان يرتجى ... لـه، وعزيـز القـوم من عز ناصره
تعـرض ريب الدهر من دون فتحـه ... وغيـب عنه فى خراسان طاهره (٢)
ولو عـاش ميـت أو تقـرب نـازح ... لـدارت مـن المكروه ثم دوائـره (٣)
ولـو لعبيـد الله عـون عليهـم ... لضاقـت على وراد أمرٍ مصـادره
حلـوم أضلتهـا الأمانـى ومدة ... تناهـت، وحتف أو شكتـه مقادره
ومغتصـب للقتـل لم يخشى رهطه ... ولـم يحتشـم أسبابـه وأواصـره
صريـع تقاضـاه السيوف حشاشة ... يجـود بهـا والمـوت حمر أظافره
أدافـع عنـه باليديـن ولم يكن ... ليثنى الأعـادى أعزل الليل حاسره
ولو كان سيفى ساعة القتل فى يدى ... درى القاتـل العجلان كيف أساوره

---

(١) ص١٠٤٥ جـ٢ ديوان البحترى .

(٢) فتحه : يقصد الفتح بن خاقان . وطاهره : طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين .

(٣) المائر : الجارى .

حـرامٌ علـى الـراح بعـدك أو أرى دمـاً بـدم يجـرى على الأرض مائره (١)

وهـل أرتجـى أن يطلب الدم واتر يـد الدهر والموتور بالدم واتـره؟ (٢)

أكـان ولـى العهـد أضمر غـدرة؟ فمـن عجـب أن ولى العهـد غـادره

فلاملـى الباقى تراث الذى مضـى ولاحملـت ذاك الدعـاء منابـره

ولاوأل المشكـوك فيـه ولانجـا من السيف ناضى السيف غدراً وشاهره (٣)

لنعـم الـدم المسفوح ليلة جعفـر هرقتـم، وجنـح الليـل سـودٌ دياحره

كأنكـم لـم تعلمـوا مـن وليـه وناعيـه تحـت المرهفـات وثائره (٤)

وإنـى لأرجـو أن تـرد أموركـم إلـى خلـف مـن شخصه لايغادره

مقلـب آراء تخـاف أناتـه إذا الأخرق العجلان خيفت بوادره (٥)

المرثية بكاء حار من الشاعر على الخليفة القتيل الذى شاهد قتله وما فعله الأعداء بالقصر فى تلك الليلة، فبعد أن رثى الشاعر القصر ووضح ماطرأ عليه بعد قتل خليفته وماأصبح عليه من خراب بعد عمران ومن وحشة بعد أنس وبهجة ومن حزن وكآبة بعد فرح وسرور أخذ الشاعر يبكى خليفته وينعاه ويأسى لمصرعه ويتفجع ويتوجع لمقتله، ثم أخذ يصور كيفية مقتله ويصف الجريمة وصفاً مفصلاً ممزوجاً بالأسى والحسرة والحزن الدفين الذى أصاب الشاعر فى خليفته .

والشاعر فى رثائه للخليفة إنما يرثيه بكل الصدق والوفاء والمشاعر الحزينة الجياشة معبراً عن سخطه وغضبه لمصرعه داعياً على القتلة بالهلاك والخسران .

---

(١) المائر : الجارى .

(٢) الواتر : الظالم . الموتور : من قتل له قتيل فلم يدرك بدمه .

(٣) وآل : طلب .

(٤) المرهفات : السيوف المرققة الحد .

(٥) الأناة : التمهل والترفق والحلم . والبوادر : جمع : البادرة وهى الحدة . الأخرق : الأحمق .

والمرثية ليست رثاءً ولاتأبيناً فقط بل هى ثورة عارمة من الشاعر على القتلة ودعوة للثأر والانتقام والقصاص منهم، فما هى إلا قطع من النيران الملتهبة تخرج من أحشاء الشاعر وضلوعه، وماهى إلا قذائف جهنمية تخرج من قلب الشاعر وفؤاده حزناً على الخليفة وألماً لمقتله .

والمرثية سياسية خالصة بكل ماتحتويه هذه الكلمة، حيث نرى الشاعر يرثى الخليفة معلناً موقفه السياسى، فهو من أنصاره وأتباعه معارضاً لمعارضيه بل داعياً إلى أخذ الثأر منهم طالباً دماً بدم، وإنه يرجو أن يبقى الحكم فى خلفه لايخرج عنه .

فهذه المرثية من أقوى قصائد الرثاء السياسى التى نظمت فى العصر العباسى الأول ومن أروع قصائد الرثاء عند الشاعر بل هى أروعها جميعاً فقد برع فى رثاء الخليفة وندبه ندباً حاراً مصوراً المصيبة تصويراً يمتزج بالحزن العميق والأسى العظيم، وموضحاً عظم المصيبة وهول الفجيعة، ومعلناً عن حبه للخليفة ووفائه العظيم له لدرجة أنه استعدى الخليفة الجديد "المنتصر" وهجاه ودعى عليه بل دعا لأخذ الثأر منه هو ومن معه من الأتراك على الرغم من أن الملك فى أيديهم وهم أصحابه .

وقد استطاع "البحترى" بمقدرته الفائقة أن يصور المصيبة التى أحلت بقتل الخليفة تصويراً رائعاً كما استطاع أن ينقل إلينا مشاعره الجياشة وعاطفته الصادقة ووفائه العظيم لخليفته وبكائه الغزير عليه فى قصيدة رائعة فى صورها وأفكارها ومعانيها وألفاظها بل فى وزنها أيضاً حيث اختار لها بحر "الطويل" الذى يتلاءم وشعر الرثاء ففى طوله مجال واسع لإخراج الآهات والزفرات ومتسع رحب للتعبير عن كل مايختلج فى نفس الشاعر من أحزان وآلام، وإذا كان الشاعر لم يستطع أن يسجل فى قصيدته صفات الخليفة وفضائله ومناقبه فما ذلك إلا لأن الحزن والألم الشديدين اللذين أصاباه قد

شغلاه عن ذكر هذه الصفات والمناقب. فالشاعر متألم أشد الألم حزين أشد الحزن لمصرع الخليفة على هذه الشاكلة التى مثل فيها ابنه أحد أطراف الغدر والإجرام، والشاعر قد أصابته الدهشه والصدمة من هول هذا المنظر الذى شاهده ورآه بعينى رأسه، فليس فى تفكيره وشغله إلا البكاء على الخليفة وندبه وتصوير مقتله والثورة العنيفة على هؤلاء الذين أجرموا فى حق خليفته هذا الجرم الشنيع أمامه .

فالقصيدة رائعة شكلاً ومضموناً ، قلباً وقالباً، وقد أشاد بروعتها كثير من النقاد أمثال : "الحصرى القيروانى" الذى عدها من أجود ماقيل فى شعر الرثاء "وأبى العباس ثعلب" الذى يقول فيها : ماقيلت هاشمية أحسن منها وقد صرح فيها تصريح من أذهلته المصائب عن تخوف العواقب"(١) ، كما أشاد بها "أحمد أمين"(٢) والدكتور "شوقى ضيف"(٣) وغيرهم من النقاد والباحثين .

وممن رثى "المتوكل" وبكى عليه الشاعر "أبو خالد يزيد بن محمد المهلبى" حيث قال يرثيه:(٤)

لاوجـــد إلا أراه دون ماأجـــد ... ولاكمـن فقـدت عينـاى مفتقـد
لايبعـدن هالـك كانت منيتـه ... كما هو من عض الزبية الأسد(٥)
جـاءت منيتـه والعيـن هادية ... هـلا أتتـه المنايـا والقنـا قصد
فخر فـوق سريـر الملك منجـدلا ... لـم يحمه ملكـه لما انقضى الأمد
لايدفـع النـاس ضيماً بعد ليلتهم ... إذ لايهـزم إلـى الجانى عليـك يد
علتـك أسيـاف مـن لادونـه أحـد ... وليـس فوقـك إلا الواحـد الصمـد

---

(١) ينظر ص٢١٥ - ٢١٦ جـ١ زهر الآداب .
(٢) ص١٢ جـ١ ظهر الإسلام .
(٣) جـ٤ ٢١ العصر العباسى الثانى .
(٤) ص٢١٧ - ٢١٨ جـ١ زهر الآداب .
(٥) العضاهة : أعظم الشجر . والزبية : الرابية لايعلوها ماء .

إذا بكيت فإن الدمع منهمل ... وإن رثيت فإن الشعر مطرد
إنا فقدناك حتى لااصطبار لنا ... ومات قبلك أقوامٌ فما فقدوا
قد كنت أسرف فى مالى فتخلفه ... فعلمتنى الليالى كيف أقتصد

يبكى الشاعر على الخليفة المتوكل (وكان قد حضر قتله مع "البحترى" فاختفى أحدهما فى طى الباب والآخر فى قناة الشاذروان) ويندبه ندباً حاراً ويصور مقتله ويصف المصيبة وصفاً يمتزج بالأسى والحزن مثنياً على الخليفة مادحاً له معدداً فضائله ومناقبه، فهو لايعلوه أحد إلا الله تعالى، وأنه العظيم الذى أحس بفقده ولم يشغل أحد مكانه، وأنه الكريم الذى أظل الشاعر بعطاياه.

فهو يبكى ويتفجع على الميت ويذكر محاسنه ويثنى عليه ويمدحه بخلاف المتوكل الذى لم يتعرض للخليفة بالثناء والمدح، إلا أن "البحترى" كان أشد حزناً وألماً وحسرة من "المهلبى" واستطاع أن يصور مقتل الخليفة تصويراً دقيقاً رائعاً فضلاً عن تصوير الحزن والكآبة التى خيمت على القصر مكان الجريمة وفضلاً عن هذه الثورة العارمة والغضب الثائر والهجاء العنيف الذى صبه "البحترى" على أعداء الخليفة سواء كان ابنه "المنتصر" أم مساعديه من الأتراك .

وممن رثى "المتوكل" وبكاه الشاعر العباسى "إبراهيم بن أحمد الأسدى" حيث قال يرثيه :(١)

هكذا فلتكن منايا الكرام ... بين ناى ومزهر ومدام(٢)
بين كأسين أروتاه جميعاً ... كأس لذاته وكأس الحمام
يقظ فى السرور حتى أتاه ... قدر الله، حتفه فى المنام
والمنايا مراتب يتفاضلـ ... ـن وبالمراهفات موت الكرام

---

(١) ص٢١٥ جـ١ زهر الآداب للحصرى .
(٢) المزهر : العود الذى يضرب به .

لـم يـزر نفسـه رسـول المنايـا   بصنـوف الأوجـاع والأسقـام
هابـه معلنـاً فـدب إليـه   فـى ستـور الدجـى بحد الحسام

تختلف هذه المرثية عن مرثيتى "البحترى" "والمهلبى" فلم يندب الشاعر الخليفة ويبكى ويذرف الدمع عليه ويصور الفجيعة والمصيبة تصويراً حزيناً بل نراه يفتخر للخليفة بهذه الميتة التى مات عليها بين أصدقائه وندمائه فليس ينال هذه الميتة كل إنسان فلكل ميتته على قدره وعظمته والمنايا نفسها مراتب تختص كل منها بالذى هو من حقها ومرتبتها، كما يفتخر الشاعر ويثنى على الميت بأنه لم يمت على فراشه موت الجبناء وإنما مات موت الشجعان حيث قتل بالسيوف ولم يمت بسبب الأمراض والأوجاع وإن الموت قد هابه وخشى منه أن يأتيه فى العلانية بل تخفى فى ستور الليل بحد السيف .

فالمرثية ثناء ومدح وتعظيم للخليفة الميت وإظهار لعظمته وفخر بمكانته وشجاعته حتى إن الموت - وهو الذى لايرهب أحداً - قد هاب الخليفة وتنكر إليه بحد السيف .

إنها روعة مابعدها روعة وبراعة مابعدها براعة، فقد صور الشاعر مصرع الخليفة المتوكل على النحو الذى صرع عليه بهذه الصورة الجديدة الرائعة .

وقد صور الشاعر هذه المصيبة بأسلوب عذب سهل لاوحشية فيه ولاغرابة ولاتعقيد أو التواء وبمعان واضحة جديدة فى شعر الرثاء حيث بعد عن الحزن وتصوير الألم وجعل من المأتم منتدى للثناء على الميت وإظهار مكانته وعظمته .

هذا وقد رثى "المتوكل" كثير من شعراء عصره وأبنوه تأبيناً حاراً معلنين عن غضبهم لمقتله ومعبرين عن اتجاههم السياسى وموقفهم الواضح فى الصراع على السلطة" (١)

---

(١) ينظر على سبيل المثال لاالحصر : ديوان ان المعتز : ص٣٢٧ و ص٣٣١ ص٣٣٤ ، ص٣٥٣ ص٣٥٤ جـ٢ .

وبعد أن اعتلى "المنتصر" - قاتل أبيه المتوكل - عرش الخلافة بأيدى الترك قتلة أبيه لم يمض فيها أكثر من ستة أشهر حيث توفى عام ٢٤٨ هـ ورثاه بعض الشعراء إلا أنه لم ينل من رثاء الشعراء مانالـه أبوه "المتوكل" من رثائهم مما يدل دلالة قاطعة على عدم تعاطف الشعراء معه وميلهم نحوه بل ربما يدل على بغضهم له خاصة بعد مؤامرته لقتل أبيه، ومما قيل فى رثائه قول ، فضل ، ترثيه وتبكيه صبيحة قتله: (١)

إن الزمـــان بذحـــل كـان يطلبنا ... ماكـان أغفلنا عنه وأسهانا (٢)
مالى وللدهر قد أصبحت همتـه ... مالـى وللدهـر ماللدهر لاكانـا

حيث تبكى "فضل" الخليفة "المنتصر" وترثيه وتتفجع لمقتله وتتوجع لفقده وأخذت تنوح نواحاً باكياً عليه بهذين البيتين معلنة غضبها على الدهر الذى اغتال الخليفة "المنتصر" وكأن هناك ثأراً بينهما .

ومن رثاء الخلفاء العباسيين ماقاله "البحترى" يرثى الخليفة "الموفق" فى قصيدة جمع فيها بين الرثاء "للموفق" ومدح الخليفة "المعتضد" حيث قال يرثى : (٣)

نسعى وأيسر هذا السعى يكفينا ... لــولا تكلفنـا ماليـس يغنينـا
نروض أنفسنا أقصى رياضتهـا ... علـى مواتـاة دهر لايواتينا (٤)
فليت مسلفنا الأعمـار أنظرنـا ... مجاملاً فتأنى فى تقاضينا (٥)

---

(١) ص٣١٠ جـ١٩ الأغانى .
(٢) الذحل : الثأر .
(٣) ص٢١٨٧ جـ٤ ديوان البحترى .
(٤) روض أنفسنا : نذللها ونطوعها . المواتاة : الموافقة .
(٥) مسلفنا : مقرضنا . أنظرنا : أمهلنا .

إن أنت أحببت أن تلقى ذوى أسف على فقيدهم فاحلل بوادينا
رزية من رزايا الدهر شاغلة لناصر الدين عن أن ينصر الدينا (١)
لاعين إلاوقد باتت مؤرقة له، ولاقلب إلا بات محزونا
كأن الذى منه الإخوان إن سئلوا ترك الملام على الإغرام ماعونا (٢)

هذه أبيات الرثاء من القصيدة حيث أخذ "البحترى" يرثى فيها الخليفة "الموفق" ويصور عظم المصيبة التى أحلت بفقده تصويراً يمتزج بالأسى والحزن العميق الذى عم الجميع لموت خليفتهم، ثم صور شدة الحزن والألم الذى أصابه وتمنى من الدهر أن يكون قد أمهل موت الخليفة وأن لايصيبه برزيته التى أوقفت نصر الدين بفقد الخليفة، هذا الخليفة الذى حزن عليه الجميع حزناً شديداً.

ثم أخذ الشاعر بعد ذلك فى مدح الخليفة المعتضد، وترجع براعة الشاعر فى قصيدته فى جمعه بين الرثاء والمدح والثناء فى قصيدة بعينها لأن ذلك من صعب الرثاء الذى لايقدر عليه إلا شاعر فنان موهوب أعطى مقدرة فائقة على النظم فى شتى فنونه .

وممن رثى "الموفق" عبد الله بن المعتز العباسى" حيث قال يرثيه: (٣)

ألست ترى موت العلا والمحامد وكيف دفنا الخلق فى قبر واحد
وللدهر أيام تسىء عوامدا ويحسن أن أحس غير عوامد

يرى ابن المعتز أن موت الخليفة الموفق هو موت العلا والمحامد وأن الخليفة الميت يعدل جميع الخلق فى شخصه، فهم حينما دفنوا الخليفة فى قبره فقد دفنوا فيه الخلق أجمعين، إنها روعة وبلاغة قول

(١) ناصر الدين : هو لقب الموفق .
(٢) الإغرام : التغريم . الماعون : المعروف .
(٣) ص٣٣١ جـ٢ ديوان عبد الله بن المعتز .

مالها نظير من شاعر البلاغة فى عصره عبد الله بن المعتز. ثم يرى أن الدهر لايدوم على حالة واحدة فقد يسىء إلى البشر متعمداً وقد يحسن إليهم دون أن يفطنوا أو يأخذوا حذرهم .

وابن المعتز تأثر فى رثائه للموفق بقول جرير :(١)

إذا غضبت عليك بنو تميم ... رأيت الناس كلهم غضابا

وقول أبى نواس :(٢)

ليس على الله بمستكبر ... أن يجمع العالم فى واحد

كذلك رثى الشعراء الخليفة "المعتضد" وبكوا عليه أمثال الشاعر "أبى العباس الناشىء" حيث يقول يرثيه :(٣)

قالت شريرة ما لجفنك ساهراً ... قلقاً وقد هدأت عيون النوم
ماقد رأيت من الزمان أجل بى ... هذا وتحت الصدر مالم تعلمى
يانفسى صبراً للزمان وريبه ... فهو الملىء بما كرهت فسلمى
إن الذى حاز الفضائل كلها ... هو ذاك فى قعر الضريح المظلم
أما السيوف فمن صنائع بأسه ... لولاه لم يروين من سفك الدم
وكأن أحداث الزمان عبيده ... فمتى يؤخرهن لاتستقدم
يقظان من سنة المضيع قلبه ... ومعول للمعول المتظلم
يرعى الضغائن قبل ساعة فرصة ... فإذا رآها أمكنت لم يجحم
كم فرصة تركت فصارت غصة ... تشجى بطول تلهف وتندم
ولرب كيد ظل يسجد بعدها ... فى بشر وجه مطلق متجهم
وهى المنايا إن رمين بنبلها ... يرمين فى نفس الأجل الأعظم
لله درك أى ليث كتيبة ... والخيل تعثر بالقنا المتحطم
ولقد عمرت ولاحريم معاند ... حرم ولا الإسلام بالمستسلم

---

(١) ص ديوان جرير .

(٢) ص ديوان أبى نواس .

(٣) ص٧٧٢ جـ٢ زهر الآداب للحصرى .

يبدأ الشاعر قصيدته فى رثاء الخليف "المعتضد" بذكر أمر محبوبته "شريره" وهذا يخالف المألوف عند العرب حيث كانوا لايقدمون نسبيا قبل الرثاء كما يصنعون ذلك فى المدح والفخر والهجاء وغيرها من الأغراض التى غالبا ماكانوا يستهلونها بالنسيب وذكر الأحبة ، وذلك لأن الأخذ فى الرثاء يجب أن يكون مشغولاً عن التشبيب بما هو فيه من الحسرة والاهتمام بالمصيبة(١)"

ثم يخاطب نفسه بأن تلتزم الصبر على مصائب الأيام ورزايا الدهر الكثيرة وعليها أن تسلم وترضى بالقضاء والقدر، ثم يأخذ فى تأبين الخليفة "المعتضد" ورثائه معدداً مناقبه مشيداً بفضائله ومآثره فهو صاحب الفضائل العظيمة وصاحب الشجاعة النادرة - حيث أبلى المعتضد مع أبيه فى حروب الزنج وغيرها بلاءً حسناً وأذاقهم الويل والعذاب فى ساحات المعارك التى خاضها حتى خافة الترك وقوادهم وظلوا فى رهبة وفزع منه طوال حياته وهم الذين كانوا يملكون ويحكمون من وراء ستار الخليفة منذ عصر المتوكل الذى قتل على أيديهم - وأخذ الشاعر يشيد بالشجاعة التى كانت للخليفة ويظهر ماكان يتمتع به من قوة وبأس زاد بهما عن حياض الإسلام الذى عمل جاهدا على رفع رايته .

فالمرثية تأبين وثناء على الخليفة وإشادة بفضائله ومناقبه وتعداد لصفاته وماكان يتمتع به من سمات عظيمة، وقد تأثر الشاعر فى مرثيته بروح الإسلام وتعاليمه : فهو يأمر نفسه أن ترضى بقضاء الله وقدره ويصف المرثى بصفات حميدة حضى عليها الإسلام، بل إنه أثنى على الخليفة وأشاد به لدفاعه عن الإسلام ونصره له .

إلا أنه يلاحظ خلو الأبيات من التفجع والندب والبكاء على الخليفة ولو أنه جمع الندب والتفجع مع التأبين والثناء لكان ذلك أروع وأحسن .

وقال "ابن المعتز" يرثى "المعتضد" ويبكى عليه ويؤبنه تأبيناً حاراً: (١)

يادهـر ويحـك ماأبقيت لى أحداً ... وأنـت والـد سوءٍ تأكـل الولـد
أستغفـر اللـه بـل ذا كله قدر ... رضيـت بالله رباً واحداً صمـداً
ياساكـن القبـر فـى غبراء مظلمة ... بالطاهريـة مقصـى الدار منفـردا
أيـن الجيوش التى قد كنت تسحبها ... أين الكنوز التـى أحصيتها عدداً
أيـن السريـر الذى قد كنت تملـؤه ... منهابـة من رأتـه عينـه ارتعـدا
أيـن الأعادى الأولى ذللت صعبهم ... أيـن الليوث التى صيرتها نقـدا

إلى أن قال :

ثـم انقضيت فلاعيـن ولاأثـر ... حتـى كأنـك يوماً لم تكن أحدا
لاشـىء يبقـى سوى خير تقدمه ... مـادام ملـك لإنسـان ولاخلـدا
فامهد لنفسـك والأقـلام جاريـة ... والتـوب مقبـل فالله قد وعـدا
لاتفرحـن بدنيـا أنـت تاركهـا ... عمـا قليـل تـزور القبر واللحدا

هذه المرثية طويلة اخترت منها هذه الأبيات وهى مرثية رائعة تجمع بين التحسر والتفجع والتعدد على الميت وإظهار المصيبة وهول الفجيعة وبين التأبين والثناء للميت وذكر فضائله وصفاته الحميدة وخلاله العظيمة .

وقد بدأ الشاعر مرثيته بمعاتبة الدهر الذى افترس كثيراً من أهله ثم التفت ثانية واستغفر ربه وجعل ذلك قدراً من الله الذى رضى به ثم أخذ ينعى الخليفة وينوح عليه نواحاً باكياً معدداً عليه كالثكالى معدداً فضائله ومناقبه وصفاته ومآثره : فقد كان صاحب الجيوش العظيمة والكنوز الكثيرة وصاحب سرير الملك الذى كان يملؤه بهجة ومهابة وصاحب الرجاء والأمانى وصاحب القصور والجنان والوصائف، وصاحب الجياد والرماح والسيوف والمجانيق فى ساحات المعارك، صاحب كل هذا ولكن أين هذا الكل ؟ ذهبت وانقضت مع صاحبها الخليفة حتى كأنها لم تكن موجودة من قبل .

(١) ص٣٣٠ - ٣٣١ جـ٢ ديوان ابن المعتز .

ثم يأخذ الشاعر فى تعزية نفسه طالباً منها أن ترضى بقضاء الله فكل شىء مصيره إلى فناء وزوال ولاشىء يبقى إلا مايقدمه الإنسان من الخير وأن على الإنسان ألا يعبأ بالدنيا فإنه عما قليل سيتركها ويسكن القبر واللحد .

فالمرثية رائعة بارعة فى قالبها وقلبها ويظهر فيها التأثر بالإسلام ومبادئه فى أفكارها ومعانيها، ويظهر فيها بوضوح أثر النكبات والآلام التى أحلت بالشاعر فى فقده للخليفة ويمزج مافيها من آلام وأحزان بحكم الحياة ومواعظها وبروح الشكوى والأنين وبعاطفة الحب العظيم والوفاء الحميم والولاء البعيد الذى يظهر بوضوح فى نفس الشاعر وقلبه وروحه وفكره .

هذا وقد أكثر ابن المعتز من رثاء الخليفة "المعتضد" وبكاه بكاءً حاراً يدل على حب الشاعر العميق له وحزنه الشديد عليه بعد فقده[١] .

وكيف لايرثيه ابن المعتز ويبكيه ويزرف الدمع عليه بعاطفة جياشة وقد كان محباً له صديقاً وفياً طوال حياته، فكان من الطبيعى ومن باب الوفاء أن يحزن الشاعر لموت الخليفة ويجزع عليه جزعاً شديداً ويرثيه بكثير من المراثى الحارة التى تذيب القلوب وتفتت الأكباد فقد ألف وجمع بينهما الدم والقربى فضلاً عن هذه الصداقة الحميمة التى جمعت بينهما أيضاً .

هذا وقد رثى كثير من شعراء العصر الخليفة "المعتضد" رثاءً سياسياً حاراً تظهر فيه السياسة وتبعاتها وخصائصها فى الصفات والسمات[٢].

---

(١) ينظر ديوانه جـ٢ صـ٣٦٢ .

(٢) ينظر على سبيل المثال لاالحصر : ص١٠٣٥ جـ٣ ديوان ابن الرومى و ص٧٧٣ جـ٢ زهر الآداب للحصرى . و صـ١٥٠ جـ٢ العمدة لابن رشيق.

وكما رثى "المعتضد" رثى من بعده من الخلفاء حتى آخر العصر العباسى الأول الذى ينتهى عام ٣٣٤ هـ .

وهكذا رثى الشعراء العباسيون الخلفاء وأبنوهم تأبيناً حاراً فى شعر تفوح منه رائحة السياسة قلباً وقالباً ، فالمرثى رجل سياسة بل أكبر رجل فى سياسة الدولة وصفات الرثاء صفات سياسية تتلاءم مع منزلة المرثى فى موقعه السياسى، فضلاً عن ظهور الرأى السياسى للشاعر ومايعتقده من مذهب سياسى معين فى رثائه للخليفة وبيان موقفه السياسى من الخليفة ومعارضيه .

رثاء الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة :

عرفت كلمة "وزير" فى اللغة العربية قبل العصر العباسى الأول حيث ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى قول الله تعالى على لسان موسى فى سورة طه : "واجعل لى وزيراً من أهلى . هارون أخى . اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى"(١) إلا أنها كانت تطلق على المؤاذر والنصير والمساعد، فلما جاء العصر العباسى الأول أطلقوا هذا الإسم على المستشار الأول للخليفة وسموه : وزيراً فالوزير باعتباره منصباً سياسياً وكونه بهذا المسمى على المستشار الأول للخليفة لم يعرف إلا فى دولة العباسيين، فلم يعرفه الأمويون ومن سبقهم، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمى الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً"(٢)، فلم تكن كلمة وزير بدعاً فى العصر العباسى إنما المبتدع هو إنشاء هذا المنصب وإعطاء صاحبه السلطة الرسمية وتلقيبه بهذا الإسم"(٣)، وقد اتخذ الخلفاء العباسيون معظم وزرائهم من الفرس فقلما نجد وزيراً غير فارسى وهذا أمر طبيعى فالدولة العباسية نفسها قامت بسواعد الفرس وبنصرتهم مما جعل الخلفاء العباسيين يقربونهم ويقدمونهم لهذا المنصب الخطير فى دولتهم، وكان "أبو سلمة الخلال" الفارسى الأصل هو أول وزير فى تاريخ الدولة العباسية حيث اتخذه أبو العباس السفاح وزيراً له ثم استوزر من بعده خالد البرمكى وتتابع الخلفاء العباسيون فى تقليد الموالى من الفرس هذا المنصب الكبير ومن هؤلاء الوزراء : "أبو أيوب الموريانى" وزير المنصور "ويعقوب بن داود" وزير المهدى و "يحى بن خالد البرمكى " وزير الرشيد" والفضل بن سهل " "والحسن ابن سهل" و "أحمد بن يوسف"

---

(١) الآيات : من ٢٩ - ٣٢ .

(٢) ص١١٠ ابن الطقطقى .

(٣) ص١٦٥ جـ١ ضحى الإسلام لأحمد أمين .

وزراء المأمون ، "والفتح بن خاقان" وزير المتوكل وغيرهم حيث كان أكثر الوزراء فى هذا العصر من الفرس وظلوا على هذه الحالة إلى أن أخذ المعتصم يفكر فى عنصر جديد يعتمد عليه فاتجه نحو العنصر التركى الذى أخذ يقبض على صنائع الأمر خاصة منذ عهد الخليفة "المتوكل" الذى قتل على أيديهم وأصبح لهم السلطان والغلبة منذ عهد ابنه المنتصر حتى أنهم كانوا هم الذين يجبرون الخليفة على تعيين ولى عهده حسب رغبتهم وهواهم .

وبجوار الوزراء جمع كبير من القواد والولاة وكبار رجال الدولة العباسية أمثال : "خازم بن خزيمة " قائد السفاح والمنصور من بعده، والفضل البرمكى وجعفر بن يحى البرمكى قائد المنصور : و "يزيد المهلبى" قائد المنصور و "معن" و "يزيد بن مزيد الشيبانى" قائد المهدى وسعيد بن حرب وإبراهيم بن الأغلب وطاهر بن الحسين وعبيد الله بن طاهر بن الحسين "وعمير بن الوليد" "وعيسى بن يزيد الجلودى" "ومحمد بن حميد الطوسى" "وخالد بن يزيد الشيبانى" وابن الزيات" والأفشين" وأبو دلف العجلى" ومحمد بن يوسف" "ومحمد بن عبد الله بن طاهر" وأبو أحمد طلحة" وأبو الساج" وغيرهم الكثير والكثير من هؤلاء القواد العظام الذين ظهروا أيام حكم العباسيين .

ومن الطبيعى أن يبكى شعراء العصر هؤلاء الوزراء والقواد ويرثونهم حينما يفارقون الحياة إلا أنه كان من بينهم من رثاه الشعراء وأبنوه وبكوا عليه بكاءً حاراً واستحوذ على قسم كبير من شعر الرثاء يفوق مثله أمثال : "جعفر البرمكى" ومعن بن زائدة" الشيبانى" ويزيد بن مزيد الشيبانى "وحميد الطوسى" ومحمد بن حميد الطوسى: وابن الزيات "وعبد الله بن طاهر" وغيرهم من وزراء العصر وولاته وقادته الذين بكاهم الشعراء وأبنوهم تأبيناً حاراً .

وقد راح شعراء العصر يرثون هؤلاء الوزراء والقواد والولاة رثاءً حاراً معددين فضائلهم ومناقبهم مشيدين بأعمالهم السابقة

وأمجادهم السالفة مصورين عظم الفجيعة وهول المصيبة التى أحلت بفقد هذا وفناء ذلك واصفين المصيبة وصفاً يمتزج بالأنين والأسى مكثرين من صفات المرثى وسماته إلا أن هذه الصفات كانت تتغير وفقاً لتغير منصب المرثى ووظيفته ومكانته ولكنها كانت فى أغلبها نفس الصفات التى كانت تستخدم فى شعر المدح. فرثاء الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة يلتقى مع مدحهم فى كثير من الخصائص والسمات بل إننا لانبالغ إذا قلنا إن مدار شعر الرثاء للوزراء وكبار رجال الدولة على المعانى التى تبرز فى قصيدة المدح لهم .

ولكن ليس معنى هذا أن كل رثاء الوزراء والقواد والولاة ذكر لفضائل أو تعداد لمناقب أو ثناء ومدح بل كان ذلك هو الأعم الأغلب فى رثائهم بجوار هذا الرثاء الباكى الحزين الذى يصور الفجيعة ويظهر الأسى والحسرة ويدعو إلى سيل الدموع لفقد وزير أو قائد أو والٍ .

ومن جيد الرثاء الذى رثى به الوزراء والقواد والولاة مانظمه "مروان بن أبى حفصة" يرثى به "معناً بن زائدة الشيبانى" (قائد المنصور المغوار وواليه على اليمن ثم سجستان) حيث يقول مروان يرثيه رثاء حاراً بقصيدة تعد بحق من عيون الرثاء فى عصره :

مضى لسبيله معنٌ وأبقى	مكارم لن تبيد ولن تُنالا [١]
كأن الشمس يوم أصيب معنٌ	من الإظلام ملبسة جلالا [٢]
هو الجبل الذى كانت نزار	تهدّ من العدو به الجبالا
وعطلت الثغور لفقد معنٍ	وقد يروى بها الأسل النهالا [٣]

---

(١) تبيد : تغنى .

(٢) الجلال : جمع الجل وهو الغطاء الذى تلبسه الدابة لتعان به .

(٣) الأسل النهال : الرماح المتعطشة إلى الدماء .

وأظلمت العراق وأورثتها ... مصيبته المجللة اختلالا (١)
وظل الشام يرجف جانباه ... لركن العز حين وهى فمالا
وكادت من تهامه كل أرض ... ومن نجد تزول غداة زالا
فإن يعل البلاد له خشوع ... فقد كانت تطول به اختيالا
أصاب الموت يوم أصاب معناً ... من الأحياء أكرمهم فعالا (٢)
وكان الناس كلهم لمعن ... إلى أن زار حفرته عيالا
ولم يك طالب للعرف ينوى ... إلى غير ابن زائدة ارتحالا

والمرثية طويلة تبلغ أربعة وخمسين بيتاً أخذ الشاعر فيها من أول بيت يرثى القائد المغوار ويؤبنه تأبيناً حاراً ويذرف الدمع عليه حتى آخر بيت فيها .

وقد ابتدأ المرثية بنأ بين المرثى وتعداد مناقبه وذكر فضائله وصفاته وكلها مناقب وصفات تتلاءم ومكانة المرثى ومنصبه الذى كان يشغله، فقد كان قائداً مغواراً وشجاعاً عظيماً فى ساحات المعارك كما كان جواداً معطاءً يعم الجميع بكرمه وعطاياه، وهذه الصفات هى التى أبّن بها الشاعر المرثى وعددها له تعديداً، فهو الجبل الذى كان يهد الجبال، وبموته عطلت الثغور، وأظلمت بفقده العراق وظل الشام يرجف جانباً وهو أكرم الناس فعالاً وأعظمهم رحالاً .

ويمضى مروان بن أبى حفصة فى رثائه يؤبن معناً تأبيناً حاراً ويعدد فضائله ويصفه بأوصاف تتلائم ومكانته فى المجتمع وتتناسب مع منصبه كقائد عظيم من قواد الدولة العباسية، ثم أخذ يصور عظم المصيبة والفجيعة التى أحلت بفقد معنِ الشيبانى ويصور عواطفه الحزينة نحوه قائلاً :

---

(١) المجللة : العظيمة .
(٢) الفعال : إسم الفعل الحسن من الكرم والجود .

فلست بمالك عبرات عين ... أبت بدموعها إلا انهمالا
وفي الأحشاء منك غليل حزنٍ ... كحر النار يشتعل اشتعالاً
كأن الليل واصل بعد معن ... ليالي قد قرن به فطالا
لقد أورثتني وبني هما ... وأحزاناً تطيل بها اشتغالاً[١]

ويمضى على هذه الشاكلة يصور حزنه لموت المرثى وجزعه الشديد عليه معبرا عن عواطفه ومشاعره الذاتية بكل الصدق والوفاء والولاء لهذا القائد المغوار ومصوراً عظم الفجيعة التى لحقت به لفقده شخصياً والتى لحقت بالدولة كلها بوجه عام لفقد أحد قوادها العظماء الأفذاذ .

هذا وقد كان الشاعر رائعاً فى مرثيته قلباً وقالباً، صوراً وأسلوباً معانى وأفكاراً، عبارات وألفاظاً، وزناً وقافية، ومن روعتها وحسنها أشاد بها الباحثون والدارسون والأدباء والنقاد، مثل: عبد الله بن المعتز فى كتابه طبقات الشعراء[٢] والدكتور شوقى ضيف وغيرهما وقد استحسنها الوزير العباسى جعفر بن يحيى البرمكى وطلب من مروان أن ينشده إياها وأجزل له العطاء بسببها حينما دخل عليه يمدحه فقال له : "ويحك أنشدنى مرثيتك فى معن :

وكان الناس كلهم لمعنٍ ... إلى أن زار حفرته عيالاً

فأنشده إياها حتى فرغ من القصيدة وجعفر يرسل دموعه فلما سكن قال : أثابك أحدٌ من ولده وأهله على هذه شيئاً ؟ قال : لا . قال جعفر : فلو كان معنٌ حياً ثم سمعها منك كم كان يثيبك عليها ؟ قال : أربعمائة دينار : قال جعفر : لكنى أظن أنه كان لايرضى لك

---

(١) ص٧٩ شعر مروان بن أبى حفصة، تحقيق / د . حسين عطوان ، الطبعة الثالثة دار المعارف .

(٢) ينظر ص٤٥ .

بذلك وقد أمرنا لك عن معن بضعف ماقلت وزدنا نحن مثل ذلك فاقبض من الخازن ألفاً وستمائة دينار قبل أن تتصرف إلى رحلك"(١) .

وقد رثى الشاعر مروان بن أبى حفصة معناً بن يزيد الشيبانى بأكثر من قصيدة وأبنه فيها تأبيناً حاراً معبراً فيها عن حزنه وألمه وحسرته لموته ضافياً عليه الكثير من الصفات التى تتلاءم ومكانة "معن" ومنصبه السياسى الذى كان يشغله فى الدولة العباسية(٢) .

ومن الشعراء الذين أجادوا فى رثاء معنٍ وبرعوا براعة عظيمة فى تأبينه وتصوير المصيبة والفجيعة فيه "الحسين بن مطير" فى قوله يرثيه :(٣)

ألمـا بمعـن ثـم قـولا لقبـره	سقتك الغوادى مربعـاً ثم مربعـا(٤)
فتى عيش فى معروفه بعد موته	كما كان بعد السيل مجراه مرتعاً(٥)
أيا قبـر معـنٍ كنت أول حفـرة	من الأرض خطت للسماحة مضجعاً(٦)
وياقبر معنٍ كيـف واريـت جوده	وقد كان منه البر والبحر منزعـاً(٧)
بلى قد وسعت الجود والجود ميت	ولو كان حياً ضقت حتى تصدعا(٨)
ولما مضى معن مضى الجود والندى	وأصبـح عرنيـن المكـارم أجدعـا

(١) ص٤٥ طبقات الشعراء لابن المعتز .

(٢) ينظر على سبيل المثال : ص ٤٠ و ص١١٤ شعر مروان بن أبى حفصة.

(٣) ص١٨٠ جـ٥ نهاية الأرب للنويرى .

(٤) الغوادى : السحاب . المربع : مطر الربيع .

(٥) المرتبع : مكان الرعى الخصب .

(٦) خطت : حضرت .

(٧) المذع : المملوء .

(٨) تصدع : تشقق .

نجد "الحسين بن مطير" يرثى معناً بأبيات لم يبلغه فيها شاعر ولم يصل مثل ماوصل إليه فى رثائه وتأبينه، حيث مضى الحسين يرثى معناً بأبيات رائعة بكل معنى الكلمة، فهو رائع فى أفكاره رائع فى معانيه رائع فى صوره رائع فى خياله وتصويره، رائع فى أسلوبه وألفاظه .

فالشاعر يدعو لقبر معن بالسقيا وليست أى سقيا بل سقيا السحاب بمطر الربيع، ويصف معروفه وكرمه ويبالغ فى ذلك فلم يكتف بتصوير معروفه فى حياته بل يجعل معروفه ممتداً حتى بعد موته، ويرى أن قبره أول حفرة حفرت للسماحة، ثم يتعجب من أن القبر كيف استطاع أن يوارى معناً بجوده وهو حفرة ضيقة مع أن البر والبحر على اتساعهما كانا يفيضان بجوده؟ ثم يقول : إذا كان القبر قد استطاع على ضيقه أن يسع جود معن فلأنه ميت ولو كان حياً ماااستطاع القبر أن يسعه وإلا لتصدع وانتثرت أحجاره، ويرى أنه بموت معن مات الجود والندى فلا جود بعده ولاندى بعد فقده.

فأى روعة هذه التى ضمتها الأبيات فى معانيها وأفكارها وأى بلاغة تلك التى احتوت عليها فى تصويرها وخيالها ؟

بل أى براعة تلك التى نسجت بها فى عباراتها وأسلوبها ؟ إنها البراعة المعدومة النظير والفصاحة السلسة التى تجرى كما يجرى الماء فى النهر .

ولروعة هذه الأبيات جعلها أبو هلال العسكرى أرثى ماقيل فى الجاهلية والإسلام(١)، وجعلها صاحب كتاب الأغانى من جيد الشعر(٢)، وجعلها ابن رشيق القيروانى من أفضل الرثاء(٣) وجعلها الدكتور شوقى ضيف أروع ماقيل فى شعر الرثاء عامة(٤).

---

(١) ص١٨٠ جـ٥ نهاية الأرب . (٢) ص١٦٨١ تجريد الأغانى .

(٣) ص١٤٨ جـ٢ العمدة . (٤) ص٦٤ الرثاء (فنون الأدب العربى)

فهذه الأبيات من أروع مانظم فى شعر الرثاء إن لم تكن أروعه بوجه عام، حيث كان الشاعر موفقاً كل التوفيق رائعاً أيما روعة فى كل العناصر الأدبية التى يحتوى عليها العمل الأدبى .

ومن رثى معناً أيضاً الشاعر العباسى "سلم الخاسر" حيث رثاه ومالكاً وشهاباً ابنى عبد الملك بن مسمع فى قصيدة واحدة حيث ماتوا جميعاً فى مدة متقاربة فقال يرثيهم مضمناً قصيدته أكثر من مرث: (١)

عيـن جـودى بعبـرة تهتـانِ	واندبـى من أصاب ريب الزمان(٢)
وإذا مابكيـت قومـاً كرامـاً	فعلـى مالـكٍ أبـى غسـان
أيـن معـنٌ أبـو الوليد ومن كا	ن غياثـاً للهالـك الحيـران
طرقتـك المنـون لاواهـى الحبـ	ـل ولاعاقـداً بحلـف يمـان
وشهـابٌ وأيـن مثـلُ شهـابٍ	عنـد بـذل الندى وحر الطعان
ذاك معـنٌ ثـوى ببست رهينـا	وشهـابٌ ثـوى بـأرض عمان
وهمـا ماهمـا لبـذل العطايـا	وللـف الأقـران بالأقـران
يسبقـان المنـون طعنـاً وضربـاً	ويفكـان كـل كبـلٍ وعـان(٣)

الشاعر يجمع فى أبياته بين ثلاثة من الموتى يرثيهم واحداً بعد الآخر ثم يصور عظم الفجيعة التى لحقت قبائلهم بفقدهم ويصف المأساة التى أصابت الدولة لفقد بعض أبطالها العظماء الذين عرفوا بالقوة والشجاعة فى ساحات المعارك والحروب، فنراه يصف المرثى وصفاً يتسم مع مكانته ومنصبه السياسى .

---

(١) ص٢٨١ - ٢٨٢ جـ١٩ الأغانى .

(٢) تهتان : منصبة ، وصف بالمصدر .

(٣) الكبل : القيد أو أعظم مايكون من القيود . العانى : الأسير .

والشاعر متواضع فى أبياته فلم يستطع أن يجارى مروان بن أبى حفصة أو الحسين بن مطير فى رثائهما لمعن بن يزيد الشيبانى بل لم يستطع أن يتعلق بهما فى أى عنصر من عناصر العمل الأدبى فقد تفوق عليه الشاعران فى الصور والتصوير والأفكار والمعانى والأسلوب .

ومن كبار رجال العصر العباسى الأول وعظماء الدولة العباسية الذين رزئت بهم الدولة وألهبوا بموتهم قلوب الشعراء: "منصور بن زياد" حيث بكاه الشعراء وأبنوه تأبيناً حاراً فمن ذلك قول" أشجع السلمى" يرثيه:(١)

أسعــدى بالدمـوع أو بالدمـــاء ... ليـس هـذا ياعيـن حيـن إبـاء

يخـرق المـوت فـى الصخـــر ويرقـى فـى القلة الملسـاء

لااستتــار منـه بأرجـاء أرض ... لا ولاعصمــة بجــو السمـاء

يارسولـى ريـب المنـون إليـه ... أى عـــز أبحتمـا للغنــاء

ليس تعفو كلوم مصرع منصو ... ر كـرورَ الإصبـاح والإمســاء

نرى الشاعر يبكى القائد العباسى ويطلب البكاء من عينه كعادة الشعراء العرب القدماء ثم تتحول المرثية عنده إلى موعظة وحكمة دينية ينفذ من خلالها إلى حقيقة الموت والفناء حيث لايقدر على الفرار من الموت أحد حتى ولو خرق الأرض ليسكنها أو صعد إلى السماء هرباً من الموت، والشاعر هنا متأثر بروح الإسلام "أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة"(٢).

كذلك رثى أشجع محمداً بن منصور بن زياد ونعاه وأبنه تأبيناً حاراً مشيداً بمناقبه وفضائله فى قوله يرثيه:(٣)

---

(١) ص١٢٨ الأوراق للصولى .

(٢) سورة : النساء . الآية رقة ٧٨ .

(٣) ص١٣١ الأوراق للصولى .

أنعى فتى الجود إلى الجود ... مامثل من أنعى بموجود
أنعى فتى أصبح معروفه ... منتشراً فى البيض والسود
أنعى ابن منصور إلى مسلم ... لأسره فى القد مصفود
أنعى فتى مصّ الثرى بعده ... بقية الماء من العود
أنعى فتى كان ومعروفة ... يملأ مابين ذرى البيد

وهكذا أخذ الشاعر ينعى المرثى ويبكيه معدداً خصاله ومآثره مثنياً عليه مبرزاً أهم الخصائص التى تميز بها المرثى فى حياته فقد كان من الشجعان العظماء والقواد الكرماء الذين ملأوا الدنيا شجاعة وكرماً فى عصرهم .

ومن هؤلاء الوجهاء والعظماء الذين برزوا فى الدولة العباسية واحتلوا مكانة رفيعة سامية عند الخلفاء والشعراء على السواء : القائد العربى "يزيد بن مزيد الشيبانى" الذى أخذ حظاً مرموقاً عند الخلفاء فى حياته وعند الشعراء فى حياته وبعد مماته فقد كان قائداً "للمهدى" "والرشيد" من بعده بل كان من أعظم قوادهما .

وقد كان موت يزيد بن مزيد الشيبانى فجيعة كبرى ومصيبة عظمى عند الشعراء العباسيين الذين غمرهم بجوده وكرمه فى حياته وغمرهم بالحزن والفجيعة فيه بعد مماته، فيزيد بن مزيد قائد عربى مشهور ووالٍ مرهوب فى عهد الرشيد أحبه شعراء العصر بكل أحاسيسهم وعواطفهم خاصة هؤلاء الشعراء الذين ينتمون فى أصلهم إلى العربية وذلك فى عصر كانت الزعامة فيه للعنصر غير العربى، وبالأخص عند الشاعر "مسلم بن الوليد" الذى كان صديقاً محبباً إليه وعاش مداحاً له طيلة حياته إلى أن مات فرثاه أحر رثاء وبكاه أوجع بكاء . ومن ذلك قوله يرثيه :(١)

---

(١) ص٥٥ جـ١٩ الأغانى .

أحقــــا أنــــه أودى يزيـــــد تبيـــن أيهـــا الناعـــى المشيـــد
أتدرى من نعيت وكيف دارت بـــه شفتـــاك دار بهـــا الصعيد
أحامـــى المجد والإسلام أودى فمـــا للأرض ويحـــك لا تميـــد
تأمـل هـل تـرى الإسلام مالت دعائمـــه وهــل شــاب الوليد
وهــل شيمـت سيوف بنى نـزار وهل وضعـت عن الخيل اللبـــود
وهــل تسقى البلاد عشار مزن بدرتهـــا وهـــل يخضـــر عـــود
أمـــا هـــدت لمصرعـــه نـــزار بلـــى وتقـــوض المجـــد المشيـد
وحـــل ضريحـــه إذ حـل فيـــه طريـــف المجـد والحسب التليد
أمـــا واللـــه ما تنفـــك عينـــى عليـــك بـــد معهـــا أبـــداً تجـود

ويستمر الشاعر فى قصيدته على هذه الشاكلة يرثى بها القائد العربى والصديق الحميم بكل العواطف والمشاعر الحزينة والأحاسيس الجياشة المكلومة، يرثيه وقلبه يتقطع عليه حزناً وألماً ويبكيه وعينيه تفيض الدمع حسرة ووجعاً لموت القائد العربى المسلم.

والشاعر فى أبياته يصور عظم المصيبة وهول الفجيعة التى لحقت به ولحقت بالدولة والإسلام بوجه عام فقد كان يزيد قائداً عربياً مسلماً يعمل على رفع راية العروبة والإسلام وظل طوال حياته مجاهداً فى سبيل الله ونصرة الإسلام فيحق للشاعر أن يبكيه بل يحق لقبة الإسلام أن تبكى عليه كما قال الشاعر فى بقية الأبيات.

ونرى الشاعر يصف المرثى بأوصاف تتلاءم مع منصبه السياسى وموقعه الحربى فهو حامى الإسلام والمجد ووضعت اللبود عن الخيل بعد موته، ويصف المصيبة وصفاً يمتزج بالأسى والحزن العميق موضحاً أثر هذه المصيبة على ذاته الشخصية وعلي الدولة العباسية والدين الإسلامى بوجه عام .

وللشاعر قصائد أخرى فى رثاء يزيد بن مزيد الشيبانى كلها تفجع وندب وتأبين وثناء حار وتعداد لمناقبه وفضائله مظهراً عظم

المصيبة التى أحلت بفقده سواء بالنسبة له شخصياً أو بالنسبة للدولة والدين بوجه عام[١] .

وينسب صاحب كتاب الأغانى هذه القصيدة للشاعر عبد الله بن أيوب التيمى[٢] إلا أنه جعلها فى رثاء "يزيد بن مزيد الشيبانى" أيضاً، وعلى أية وجهة فالشاهد فى موضعه والشاعران من شعراء العصر العباسى الأول .

والقصيدة سواء كانت لهذا الشاعر أو ذاك فهى من أجود شعر الرثاء فى الشعر العربى كله وقد أعجب بها "الرشيد" وفضلها على قصيدة "مروان بن أبي حفصة" فى رثاء معن التى ذكرناها فى موضعها، وذلك حينما طلب من رواية أن ينشده مرثية مروان فى معن فأنشده إياها ثم قال له : أنشدنى قصيدة أبى محمد التيمى فى مرثية يزيد بن مزيد فهى والله أحب إلى من هذه فأنشده هذه القصيدة ثم بكى هارون الرشيد بكاء شديداً اتسع فيه حتى لو كانت بين يديه سكرجة لملأها من دموعه[٣] .

ومن بين كبار رجال الدولة العباسية : "يحى بن خالد البرمكى" "والفضل بن يحيى البرمكى"وغيرهما من آل برمك الذين ظلوا طوال حكم السفاح والمنصور والمهدى والرشيد حتى نكبهم الرشيد نكبته المشهورة فراح الشعراء يبكونهم ويرثونهم رثاء حاراً مؤبنين لهم تأبيناً رائعاً مظهرين مناقبهم وفضائلهم وماكانوا يتمتعون به من عظيم الفضائل وحميد الشمائل موضحين دورهم البارز الذى قاموا به

---

(١) ينظر على سبيل المثال : ص٤٢ جـ١٩ الأغانى . و ص١٩٩٥ تجريد الأغانى و ص٦٦٥ جـ٢ زهر الآداب للحصرى .

(٢) ص٢٠٦٩ تجريد الأغانى القسم الثانى .

(٣) ص٢٠٦٩ - ٢٠٧٠ تجريد الأغانى القسم الثانى .

والأعمال الجليلة التى شيدوها للدولة العباسية أيام حكمهم، ومن رثاء آل برمك قول الرقاشي يرثى جعفر ابن يحى البرمكى :[١]

هدأ الخالون من شجوى فناموا	وعيني لا يلائمها منام
وما سهرت لأني مستهام	إذا أرقى المحب المستهام
ولكن الحوادث أرقتني	فلى سهر إذا هجد النيام
أصبت بسادة كانوا نجوماً	بهم نسقي إذا انقطع الغمام
على المعروف والدنيا جميعاً	لدولة آل برمك السلام
فلم أر قبل قتلك يا ابن يحى	حساماً فله السيف الحسام
أما والله لولا خوف واش	وعينٌ للخليفة لا تنام
لطفنا حول جذعك واستلمنا	كما للناس بالحجر استلام

فالمرثية تأبين رائع ليحى البرمكى وندب وتفجع عليه وعلى آل برمك جميعاً، ويعلن الشاعر عن مدى حزنه عليهم وعظم فجيعته ومصيبته التى أحلت به لفقدهم، فهو حزين لايهدأ أبداً للنوم بعد قتلهم وهو دائم السهر والأرق بسبب ماأصابهم من نكبات، ثم يعدد الشاعر مناقبهم وفضائلهم ويثنى عليهم ثناءً قيماً ويصفهم بأوصاف تتلاءم مع مكانتهم وعظم قدرهم : فهم السادة وهم النجوم وهم أهل الكرم والفيض الزاخر الذى عم الجميع بالعطايا والكرم وهم أهل المعروف والخيرات ويبلغ الشاعر منزلة العظمة والتقديس فى وصف يحيى البرمكى ومدحه حيث يجعله يحتل منزلة ومكانة البيت الحرام قداسة وتعظيماً ولولا خوفه من الخليفة لطاف حول قبره واستلمه كما يطوف الناس حول البيت الحرام ويستلمون الحجر الأسود .

فأى عاطفة وأى حب ملكاً الشاعر وسيطرا على وجدانه وقلبه وعقله؟ إنها العاطفة الحزينة الصادقة والحب والوفاء العظيمين حيث

(١) ص٣٤٠ جـ١ وفيات الأعاين لابن خلكان .

يرثى الشاعر يحيى البرمكى وآله ويتفجع عليه ويصفه بهذه الأوصاف البالغة العظيمة كأنه ملك عظيم بل نبى مرسل له المكانة القدسية العظيمة فى قلوب أمته وأنصاره .

وليس هناك من شك فى أن الشاعر صادق العاطفة جياشها حزين متألم أشد الألم على مرثيه فهو يرثيه بعد غيابه الأبدى عن الدنيا ويرثيه وهو يعلم علم اليقين ماأصابهم على يد الخليفة الذى بيده الأمر وصاحب السلطان المطلق .

وقد وفق الشاعر فى اختيار الألفاظ والعبارات والصور والصفات التى ضمنها أبياته كل التوفيق وجاء التصوير متلائماً مع التعبير فى وحدة فنية رائعة بكل العاطفة الصادقة والمشاعر الجياشة التى تتجلى فى كل بيت من أبياته .

بل إننا نرى الشاعر يعلن عن مدى حزنه وأساه ويصور مايختلجه من مشاعر فياضه وأحاسيس جياشة وحزن عميق وقلب مكلوم ويرى المكارم والفضائل قد انتهت والرزايا والمصائب قد صبت صباً فى رثائه "للفضل بن يحيى" وبكائه عليه حيث يقول: (١)

ألا إن سيفاً برمكياً مهنداً أصيب بسيف هاشمى مهند
فقل للعطايا بعد فضل تعطلى وقل للرزايا كل يوم تجددى

فالشاعر ينوح نوح الثكلى ويعدد على "فضل البرمكى" كما تعدد الحزانى اللاتى فقدن أعز من عندهن .

فالشاعر كان صادقاً فى رثائه وبكائه على "يحيى" والفضل" وآل برمك وكان محباً لهم أعظم حب وكثيراً مابكاهم وبكى عليهم بكاء مراً، فقد ذكر أن جعفر بن يحى لما قتل وصلب اجتاز به الرقاشى وجعفر على الجذع فوقف عليه يبكى أحر بكاء وأنشأ

---

(١) ص٣٤٠ جـ١ وفيات الأعيان لابن خلكان .

يرثيه في الأبيات الأولى التي ذكرناها"(١) فرثاؤه عن صدق ووفاء وحزنه عن ألم عظيم أصابه في قلبه وعقله وقد هزته المصيبة هزاً وحركته مشاعره وأحاسيسه تحريكاً فذهب يبكي عليهم ويندبهم مشيداً بهم وبمآثرهم في شعر رثائي رائع .

وبعد "الفضل بن سهل" (وزير الخليفة المأمون وصاحب النهى والأمر في عهده) من أعظم رجال الدولة العباسية وقد حظى بحب عظيم من جانب الشعراء الذين أحبوه وراحوا يمدحونه بغرر المدائح في حياته كما راحوا يرثونه ويبكون عليه بكاء حاراً بعد مماته وقد رثاه كثير من شعراء عصره رثاء حاراً وأبنوه تأبيناً عظيماً مشيدين بأعماله وأمجاده ومعددين فضائله ومناقبه، ومن هؤلاء الشعراء العباسيين الذين رثوه وبكوا عليه "مسلم ابن الوليد" ومما قاله في رثائه قوله :(٢)

ذهلت فلم أنقع غليلاً بعبرة ... وأكبرت أن ألقى بيومك ناعياً
فلما بدالي أنه لاعج الأسى ... وأن ليس إلا الدمع للحزن شافيا
أقمت لك الأنواح ترتد بينها ... مآتم تندبن الندى والمعاليا
وماكان منعى الفضل منعاة واحد ... ولكن منعى الفضل كان مناعيا
أللبأس أم للجود أم لمقاوم ... من الملك يزحمن الجبال الرواسيا
عفت بعدك الأيام لابل تبدلت ... وكن كأعياد فعدن مباكياً
فلم أر إلا قبل يومك ضاحكاً ... ولم أر إلا بعد يومك باكياً

المثية بكاء حار من الشاعر على الوزير الميت وندبٌ وعويل وولولة وحسرة عليه ونواح وصراخ عالٍ على فقده : فالشاعر فجيعته شديدة الوقع على نفسه بعد قتل الوزير وأصابته الصدمة فأذهلت لبه وحيرت عقله وأحلت به كارثة رهيبة فلا يستطيع إلا البكاء والنواح

---

(١) ص١٧٣١ تجريد الأغاني في القسم الثاني .
(٢) ص٥٦ جـ١٩ الأغاني . طبعة دار الكتب .

والعويل والولوله والتأوه المنبىء عن عظيم الحسرة والوجيعة التى سكنت أحشاءه، فكأنه لم يفقد صديقاً ووزيراً بل فقد حبيباً غالباً عليه وفجع فى عزيز لديه حيث أخذ ينوح ويولول ويذهب فكره ونفسه فى عاطفة الحزن والهم فلا يصدر عنهما إلا ماكان صدى لهذا الحزن والهم الدفين، فالأبيات تزخر بالبكاء وتفيض بالدموع وتئن بالحسرات وترتعد من هول المصيبة وعظم الفجيعة، وتنبىء الأبيات عن عظيم الوفاء وخالص الإجلال للوزير المرثى حيث رثاه بعاطفة موغلة فى صدقها وبمشاعر عميقة فى حبها وتقديرها للوزير موضوع المصيبة .

ونرى الشاعر فى مرثيته يجمع بين الندب والتفجع والتأبين والثناء على الميت فالوزير المرثى هو صاحب البأس وصاحب الجود وحامى الخلافة والملك، وأروع الرثاء وأجوده ماجمع فيه الشاعر بين الندب والتأبين .

ومن هؤلاء العظماء الذين برزوا فى مراثى شعراء العصر العباسى الأول وأخذوا نصيباً كبيراً فى بكاء الشعراء عليهم : القائد العربى المسلم : "خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى" (قائد المأمون والمعتصم) الذى كان له باع طويل فى ساحات المعارك ويد طولى فى تاريخ الحروب، فقد أكثر الشعراء من رثاء "خالد بن يزيد الشيبانى" وبكوا عليه بكاء حاراً وأزرفوا الدمع عليه أنهاراً بقدر ماأذرف الدماء من الأعداء فى ساحات الحروب، وكان "أبو تمام" الشاعر العباسى المشهور من أبرز الشعراء الذين رثوه وبكوا عليه حيث رثاه بأكثر من قصيدة بكاه فيها بكاء حاراً وأبنه تأبيناً عظيماً يتلاءم مع مكانة الميت ومنصبه كقائد عربى مسلم من قواد الدولة العباسية وأظهر مآثره وأوضح فضائله وماكان يتمتع به من شدة بأس وشجاعة نادرة فى ساحات المعارك وماكان يتميز به من خلال حميدة اتصف بها من مروءة ووفاء وكرم وغيرها من الصفات الحميدة.

ومن رثائه له قوله من قصيدة طويلة يرثيه فيها : (١)

نَعَاءِ إلى كل حى نعاء	فتى العرب احتلّ ربع الفناء. (٢)
أصبنا جميعاً بسهم النضال	فهلا أصبنا بسهم الغلاء. (٣)
ألا أيها الموت فجعتنا	بماء الحياة وماء الحياء. (٤)
فماذا حضرت به حاضراً	وماذا خبأت لأهل الخباء. (٥)
على خالد بن يزيد بن مز	يد امر دموعاً نجيعاً بماء. (٦)
فقد كثر الرزء قدر الدمو	ع وقد عظم الخطب شأن الكبار
فباطنه ملجأ للأسى	وظاهره مِيْسمٌ للوفاء. (٧)
مضى الملك الوائلى الذى	حَلَبْنا به العيش وسع الإناء. (٨)
سلْ الملك عن خالدٍ والملوك	بقمع العدى وبنفى العداء. (٩)
ألم يك أقتلهم للأسود	صبراً وأوهبهم للظباء

(١) ص٥ - ٣٦ جـ٤ ديوان أبى تمام .

(٢) النعى : رفع الصوت بالشيء ومعنى نعاء : أى انع . والربع : المنزل . واحتل : أى حل بالمكان .

(٣) سهم الغلاء : من قولهم غاليت الرجل إذا رمى ورميت لتنظر أيكما أبعد موقع سهم فى الأرض .

(٤) ماء الحياة : ماكان الناس يقيمون حياتهم به . وماء الحياء : مايعطى بلا سؤال فيصون وجوه الناس عن الطلب .

(٥) حضرت : صنعت . أهل الخباء : أهل البدو .

(٦) أمر : اسكب .

(٧) الميسم : العلامة .

(٨) الوائلى : نسبة إلى جده وائل بن عمرو .

(٩) الغداء : الظلم .

ألــم يجلــب الخيــل من بابــلٍ   شــوازبَ مثـل قداح السراء (١)
فمــدَّ علــى الثغــر إعصارهــا   بــرأى حســام ونفسٍ فضــاء

والمرثية طويلة تبلغ أربعة وستين بيتاً أخذ فيها أبو تمام يرثى القائد العربى المسلم "خالد بن يزيد الشيبانى" ويجمع فيها بين الندب والتفجع والتأبين والثناء على الميت وإن كان عنصر التأبين والثناء يحتل النصيب الأكبر من أبيات المرثية حيث أخذ يؤبن المرثى ويعدد مناقبه وفضائله ومآثره ويصفه وصفاً يتناسب مع مكانته ومنصبه السياسى كقائد عظيم من قواد الدولة العباسية، فهو ينعى فتى العرب وقد كان المرثى جواداً كريماً يعطى بلا سؤال، ثم يبكى عليه ويعلن عن حزنه وأساه ويرى أنه إذا بكى وأظهر الجزع أعلم ذلك قدر وفائه فبقدر الدموع يعلم قدر الرزء والخطب، ثم أخذ الشاعر يبرز ماكان يتمتع به من شجاعة وقوة حيث فتك بالعدو وأنزل الظلم عن المظلومين وكثيراً مافقل الشجعان من الأعوان وكثيراً ماجيش الجيوش ليحمى الثغور ويؤمن أركان الدولة. ويمضى أبو تمام على هذه الشاكلة فى مرثيته فى تأبين مرثيه مشيداً به وبأعماله وأمجاده السابقة وفضائله وخلاله التى كان يتميز بها كقائد عربى مسلم وكلها صفات تتلاءم مع مكانة المرثى ومنصبه السياسى فى الدولة.

وقد استطاع أبو تمام أن يصور جانب البطولة والشجاعة وغير ذلك مما كان يتمتع به المرثى من صفات تصويراً رائعاً بأسلوب رائع محكم رصين معتمداً على التشخيص والتشبيه وبعض ألوان البديع التى وقعت موقعها الملائم والتى زادت من حسن الأسلوب وروعته وبلاغته .

---

(١) شوازب : ضوامر . السراء : شجر يعمل من القس والقداح .

وهكذا كان أبو تمام رائعاً بارعاً فى رثائه للقائد العربى شأنه فى كل مراثيه التى أجادها وبرع فيها براعة معدومة النظير فهو لايجارى فى رثائه كما لايجارى فى مدحه وقد كان بصيراً بأمور الرثاء عليماً بخفاياه بما جعله متمكناً أيما تمكن فى نظم هذا اللون من الشعر .

وللشاعر نماذج أخرى رثى فيها هذا القائد وبكى عليه وأبنه تأبيناً رائعاً مثنياً عليه مشيداً بأعماله مصوراً لبطولاته التى كانت قبل مماته (١) .

ومن قواد الدولة العباسية العظماء الذين بكاهم الشعراء وأعولوا عليهم وأكثروا عويلهم "حميد الطوسى" أحد عظماء القواد الذين عرفتهم الدولة العباسية وكانت له يد طولى فى الدفاع عن الدولة وتأمينها وسلاح ممدود على كل الخارجين عليها والطامعين فيها، ولما مات رثاه الشعراء رثاء حاراً وأبنوه تأبيناً رائعاً آخذين فى تعديد فضائله ومناقبه وماقام به من بطولات وأمجاد سواء فى ساحات المعارك أم على صعيد الحياة السياسية والاجتماعية للدولة العباسية، ومن أروع مارثى به قصيدة الشاعر "على بن جبلة" الملقب: "بالعكوك" وهى مرثية وحيدة فى شعره الذى وصل إلينا حيث يقول فيها راثياً حميداً الطوسى: (٢)

أللدهر تبكى أم على الدهر تجزع ... وماصاحب الأيام إلاّ مفجع
ولو سهلت عنك الأسى كان فى الأسى ... عزاء معز للبيب ومقنع
أصبنا بيوم فى حميد لو انه ... أصاب عروش الدهر ظلت تضعضع

---

(١) ينظر على سبيل المثال : ص٦٥ جـ٤ ديوانه .
(٢) ص٨١ - شعر على بن جبلة ، تحقيق / الدكتور حسين عطوان الطبعة الثالثة : دار المعارف .

إلى أن قال :

وكـان حميدٌ معقـلاً ركعـتْ بـه　　　قواعـدُ ماكانت على الضيم تركع

ويمضى الشاعر فى قصيدته نادباً مؤبناً للقائد العربى حميد الطوسى تأبيناً حاراً معدداً كل فضائله وشمائله من شجاعة وفتوة وقدرة فائقة على القتال فى ساحات الحروب وشهامة وبسالة وقيادة حكيمة للكتائب وانتزاع النصر والصمود تجاه الشدائد والمحن فضلاً عما يتميز به من صفات: الكرم والمروءة وحماية الأعراض وإغاثة الملهوف والأخذ بيد الضعيف وغير ذلك من الصفات والخلال التى أبرزها الشاعر فى رثائه، كما نراه يصف المصيبة ويصور الفجيعة تصويراً ممزوجاً بالحزن والأسى مبرزاً عظم هذه المصيبة التى أحلت بفقده على الأفراد والدولة مجتمعة وعلى شخصه هو، ثم نراه يهون فى آخر الأبيات على العرب والمسلمين من هول هذه المصيبة التى أصابتهم بفقد هذا القائد العربى المسلم وكأنه يعزيهم ويدعوهم إلى الصبر وتحمل هذا الحادث الجلل، مردداً أن الله تعالى قد عوضهم بابنه محمد فهو خير خلف لخير سلف وأن الله تعالى قد عوض الأمة كلها فى وِلده لأنه لايقل شأناً عن أبيه شجاعة وفتوة وإحكام قيادة.

وقد ذكر أبو الفرج الأصفهانى هذه القصيدة بأكملها فى كتابة الأغانى وعلق عليها بقوله : وإنما ذكرت هذه القصيدة على طولها لجودتها وكثرة نادرتها وقد أخذ البحترى أكثر معانيها فسلخه وجعله فى قصيدتيه اللتين رثى بهما أبا سعيد الثغر :

"أنظر إلى العليـاء كيـف تضـام"

"بأى أسى تثنى الدموع الهوامل"

وقد أخذ الطائى أيضاً بعض معانيها[١]

---

(١) ص٢٧ - ٢٩ جـ٢٠ الأغانى .

وقد جعلها ابن واصل الحموى من جيد الشعر ونادره وأوردها أيضاً فى مؤلفه[١] "

والحق كل الحق أن القصيدة رائعة فى كل عناصرها صوراً وأفكاراً ومعان وأخيلة وبارعة فى أسلوبها وعباراتها والشاعر قد وفق فيها أعظم توفيق وتفوق فيها تفوقاً بعيداً .

ومن قواد العصر العباسى الأول البارزين والذين احتلوا مكانة كبيرة فى مراثى شعراء هذا العصر وأخذوا نصيباً وافراً فى بكائيتاتهم القائد العربى المسلم المشهور "محمد بن حميد الطوسى" أحد قواد المأمون ومن أشهر أبطال الدولة العباسية الذين أسهموا بنصيب كبير فى تأمين الدولة وتأديب الخارجين والمعتدين عليها وكثيراً مادوخ الجيوش وأرهب مضاجع الأعداء وأذهب النوم من أعينهم والراحة من نفوسهم .

من أجل هذا ومع ماكان يتمتع به من جود وكرم عظيم تعلق به الشعراء فى حياته فأشادوا ببطولاته وأمجاده ومناقبه ولما قتل فى ساحة الحرب أذرفوا الدمع عليه أنهاراً ونصبوا له المآتم فى كل مكان وأقاموا فى ساحات الحزن أياماً طويلة حزناً عليه وحسرة لمقتله، وراح الشعراء يبكونه بكاءً حاراً ويرثونه رثاءً كله آهات وزفرات وآلام وحسرات مشيدين بماله من أمجاد ومعددين فضائله ومناقبه ومصورين عظم الفجيعة التى أحلت لمصرعه تصويراً يمتزج بالأسى واللهفة والحسرة، ويعد "أبو تمام" من أشهر الشعراء الذين بكوا عليه ورثوه رثاء حاراً بكل الصدق والمشاعر الجياشة، معلناً عن عظم حزنه وألمه لفقده فى شعر حزين رائع فى تصويره بارع محكم فى أسلوبه وتبعيره ، ومن رثائه فيه قوله :[٢]

---

(١) ص٢٠٥٨ تجريد الأغانى القسم الثانى .

(٢) ص٧٩ - ٨٥ جـ٤ ديوان أبى تمام .

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يَفِضْ ماؤها عذر (١)
تُوفيتْ الآمال بعد محمد وأصبح فى شغل عن السفر السفر (٢)
وماكان إلا مال من قلّ ماله وذخراً لمن أمسى وليس له ذخر (٣)
وماكان يدرى مجتدى جود كفه إذا مااستهلت أنه خلق العسر (٤)
ألا فى سبيل الله من عطلت له فجاج سبيل الله وانثغر الثغر (٥)
فتى كلما فاضت عيون قبيلة دماً ضحكت عنه الأحاديث والذكر
فتى مات بين الضرب والطعن ميتة تقوم مقام النصر إذ فاته النصر
ومامات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلت عليه القنا السمر (٦)
وقد كان فوت الموت سهلاً فرده إليه الحفاظ المر والخلق الوعر (٧)
ونفس تعاف العار حتى كأنه هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر (٨)
فأثبت فى مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت أخمصك الحشر (٩)
غدا غدوةً والحمد نسْج ردائه فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
تردى ثياب الموت حمراً فما أتى لها الليل إلا وهى من سندس خضر (١٠)

---

(١) فدح الأمر : صعب . والفوادح : النوازل .
(٢) السفر : المسافرون .
(٣) الذخر : مايحفظ لوقت الحاجة .
(٤) مجتدى : سائل العطية .
(٥) الفجاج : الطرق . انثغر الثغر : اجتيزت الحدود .
(٦) مضرب السيف : حده .
(٧) الحفاظ : الحمية والغضب عند الحرمة. والوعر : الصعب الشديد الأنفة.
(٨) الروع : الحرب أو الشدة بوجه عام .
(٩) أخمص القدم : مالا يصيب الأرض من باطنها .
(١٠) تردى الثوب : لبسه . دجا الليل : أظلم .

كـأن بنـى نبهـان يـوم وفاتـه ... نجوم سماء خر من بينها البـدر (١)
يعـزون عن ثـاو تعـزى به العلـى ... ويبكى عليه الجود والبأس والشعـر (٢)
وأنى لهم صبرٌ عليـه وقـد مضـى ... إلى الموت حتى استشهدا هـو والصبر
فتى كان عذب الروح لامن غضاضة ... ولكـن كبـراً أن يقـال به كبر (٣)
فتـى سلبتـه الخيـل وهو حمى لها ... وبزتـه نار الحرب وهو لها جمـر (٤)
وقد كانت البيض المآثير فى الوغى ... بواتـر فهـى الآن من بعده بتر (٥)
أمـن بعـد طى الحادثات محمـداً ... يكـون لأثـواب النـدى أبداً نشـر؟
إذا شجـرات العرف جذّتْ أصولهـا ... ففى أى فرع يوجد الورق النضر (٦)
لئن أبغضن الدهـر الخـؤون لفقـده ... لعهدى به ممن يحب لـه الدهـر (٧)
لئـن غـدرت فى الروع أيامه بـه ... لمـا زالت الأيام شيمتها الغـدر (٨)
لئـن ألبسـت فيـه المصيبـة طيىء ... لمـا عريـت منهـا تميـم ولابكـر
كذلـك ماننفـك نفقـد هالكـاً ... يشاركنـا فى فقـده البدو والحضر
سقى الغيث غيثاً وارت الأرض شخصه ... وإن لـم يكـن فيه سحـاب ولاقطـر
وكيف احتمالى للسحاب صنيعـة ... بإسقائهـا قبـراً وفـى لحده البحر؟
مضـى طاهر الأثواب لم تبق روضة ... غـداة ثـوى إلا اشتهت أنها قبر

---

(١) بنونبهان : قوم أبى تمام وهم بطن من طيىء .
(٢) ثاو : مقيم ، والميت ثاو لأنه مقيم بالقبر لايبرحه .
(٣) الغضاضة هنا بمعنى : الذلة .
(٤) بزته : سلبته .
(٥) المآثير : جمع مأثور والسيف المأثور : القديم المتوارث . وبواتر : جمع باتر وهو : القاطع . وبتر : مقطوعة .
(٦) جذت : قطعت . والنقر : هو الحسن والبهاء .
(٧) البغض : الكره .
(٨) الشيمة : الطبيعة والسجية والخلق .

ثوى فى الثرى من كان يحيا به الثرى ويغمر صرف الدهر نائله الغمر (٩)
عليك سلام الله وقفاً فإننى رأيت الكريم الحر ليس له عمر

المرثية طويلة رائعة تنبىء عن أن قائلها فنان بارع فى فن الرثاء قد خبر أصوله وعرف عناصره واطلع على خفاياه، فقد بلغ الشاعر ذروة الإحسان والإجادة فى قصيدته قلباً وقالباً ومعنىً ومبنىً وجاءت أفكاره وصوره وأسلوبه فى انسجام تام وائتلاف رائع فجعلت الأبيات أنشودة بل ملحمة من ملاحم الشعر الجنائزى الرائع، فالقصيدة أغنية حزينة تنسجم موسيقاها مع عباراتها فى لحن رائع قد أجاد فى تلحينها وتأليفها الشاعر العملاق الفنان بلا نبو أو شذاذ فى الكلمات أو الموسيقى .

والشاعر يرثى القائد العربى المسلم رثاءً يتناسب مع منزلته ومنصبه كقائد عربى عظيم قضى عمره فى ساحات المعارك متصفاً بأعظم الصفات وأجلها، فبعد أن ابتدأ القصيدة بتصوير عظم المصيبة والفجيعة التى أحلت بفقده والتى استحقت أن تفيض من أجلها الدموع بكاءً وحزناً عليه مضى يؤبن المرثى تأبيناً حاراً معدداً فضائله ومناقبه ومآثره مبرزاً جانب الشجاعة والفتوة فى مرثية عارضاً لكثير من الصفات والشيم الحميدة التى تمتع بها المرثى فى حياته : فبموته انقطعت الآمال لأن الناس لم يكونوا يؤملون إلا فيه وشغلت الناس المصيبة فيه عن مشاكلهم وقضاء حاجاتهم .

وكان المال لمن لامال له والذخر لمن لاذخر له، وكان يجزل العطاء حتى إن سائليه ماكانوا يعرفون أن العسر قد خلق، وبموته عطلت الطرق واجتيزت الحدود، وأنه مامن قبيلة دحرت فى الحرب حتى فاض دمعها إلا ذكره الناس بالفخر لأنه هازمها، وأنه من عظم

---

(١) الثرى التراب اللين . النائل : العطاء . الغمر : الكثير .

شجاعته وقوته وشدة بأسه لم يقتل إلا بعد أن تثلم سيفه من شدة ماضرب به وحتى تكسرت الرماح فلم تعد صالحة للضرب والطعان، وإنه كان يستطيع أن يفلت من الموت بالهرب إلا أنه اختار الموت أنفة من عار الهروب والفرار لأنه قضى حياته كلها مبتعداً بنفسه عن كل عار بل كان يعده كفراً بل الكفر عنده أهون من أى عار، وأنه قد ثبت فى موقعه للموت فلا تتحول رجله إلى أن يموت حتى كأن الحشر من تحتها، وأنه قضى حياته محموداً مشكوراً ولقى ربه مثوباً مأجوراً، وأن قومه - بنى بنهان - ليحق لهم أن يتيهون به فخراً ولايبكون، وقد بكى عليه البأس والجود والشعر، وكيف لأهله أن يصبروا عليه وقد مات ومات معه الصبر فى قومه، وكان كريماً لين الجانب لاعن ذلة بل أنفة من أن يوصف بالتكبر، وكثيراً ماجيش الجيوش وخاض المعارك الضارية وأنه حين كان يحمل جيشه السيوف كانت تبلغ من الأعداء كل مبلغ وحينما مات ماتت قوتها على النضال، وبموته مات معه الجود والندى وبفقده جذت أصول شجرات العرف وأن الدهر إذا كان يستحق الكره لموته فإنه يستحق الحب بما سجله من عظائم ومفاخر فى حياته، ولموته لم تصب قبيلته بالمصيبة وحدها فقد عمت معها تيماً وبكراً لجلاله وعظم قدره، بل حزن عليه الناس أجمعون بدواً وحضراً، ثم يطلب الشاعر السقيا لقبره على عادة العرب القدامى ثم ينكر ذلك على نفسه ثانية فكيف يطلب السقيا من المطر للقبر وهو يضم بين جدرانه بحراً ؟ وأنه مضى طاهر الأثواب وتنافست الأرض كلها أن تكون له قبراً تضمه، ثم يبعث الشاعر التحية للمرثى ويرى أنه لم يمت بدخوله القبر فالكريم الحر مثله عمره طويل لاينقطع بموت ولاينتهى برحيله عن الحياة .

وهكذا أبن الشاعر المرثى بصفات رائعة وجعل من مصيبته مصيبة عامة ووصف المصيبة وصفاً رائعاً نافذاً من خلالها إلى إعلاء قدر المرثى وتبيان فضائله ومآثره ملقياً عليها بظلال خياله وروائع

صوره وتصويره بأسلوب قوى محكم النسج رائع العبارة بارع التصوير .

ويتضح من الأبيات نظرة الشاعر الفلسفية تجاه الموت فهو لايرى الموت مرحلة تأتى بعد الحياة لأنه موجود فيها بالفعل يرى أن الموت يمكن أن يكون خلاصاً رائعاً فى مواجهة العار ولهذا لايرى عيباً من أن يلبس الإنسان ثيابه الحمر ويقف فى ميدان الموت لأجل هدف نبيل .

وهكذا كان الشاعر فناناً فى صوره وتصويره وأفكاره ومعانيه بل فى أسلوبه وألفاظه وحتى مافى القصيدة من ألوان الزخرف لم يفسدها لأنها وقعت فى موقعها الملائم ودعت إليها الحاجة حيث كانت من صميم المبنى الحزين للأبيات ومن متطلبات معانيها .

وتعد هذه القصيدة من عيون قصائد الرثاء التى نظمت فى العصر العباسى الأول بل من عيون الرثاء فى الشعر العربى بوجه عام ولها مكانتها العظيمة فى الأدب العربى كله وقد أشاد بروعتها كثير من النقاد وأهل الأدب قديماً وحديثاً، فقد جعلها ابن رشيق القيروانى من جيد الرثاء ويرى أن الشاعر قد بلغ فيها مبلغاً عظيماً وماقصر فيها[(١)]، وقد أشاد بها "أبو دلف العجلى" واستحسنها وطلب من الشاعر أن ينشدها أمامه فأنشدها إياه فقال له : "والله لوددت أنها فىّ فقال : بل أفدى الأمير بنفسى وأهلى وأكون المتقدم قبله . فقال له : إنه لم يمت من رثى بهذا الشعر أو مثله"[(٢)]، وقد جعلها النويرى من أجود الرثاء وأصنعه وأتقنه وأبدعه[(٣)]، وأشاد بها الدكتور شوقى ضيف فى قوله : "ومراثى أبى تمام لاتقل عن

---

(١) ص١٤٨ جـ٢ العمدة .

(٢) ص١٧٨٧ تجريد الأغانى القسم الثانى . وص١٤ جـ٢ وفيات الأعيان.

(٣) ص٢٠٨ جـ٥ نهاية الأرب .

مدائحه روعة وإذا كان قد بلغ ذروة الإحسان فى أناشيد النصر وملاحمه فإنه بلغ أيضاً هذه الذروة فى مراثيه لابن حميد الطوسى الطائى ومثل لذلك بقصيدته الرائية الخالدة التى معنا.[١] بل إنه جعل أروع مارثى به محمد بن حميد الطوسى هذه القصيدة[٢].

وأشاد بها الأستاذ "السيد الهاشمى" وجعلها أروع قصائد الشاعر وأشهرها فى قوله : "وأجاد أبو تمام فى كل فن من فنون الشعر أما مراثيه فلم يعلق بها أحد جاش صدره بشعر وأشهرها القصيدة التى رثى بها "محمد بن حميد الطائى" وذكر أبياتاً من القصيدة[٣] .

وللشاعر مراث أخرى فى ابن حميد الطوسى كلها آيات فى الروعة ودلائل على البراعة المعدومة النظير للشاعر فى رثائه له منها العينية التى يبدؤها بقوله :[٤]

أصمّ بك الناعى وإن كان اسمعا ... وأصبح مغنَى الجود بعدك بلقعا

حيث أخذ فيها يرثى محمد ابن حميد الطوسى رثاء حاراً ويندبه ويتفجع لمقتله جامعاً فيها بين التفجع والثناء على الميت، مبرزاً فيها جانب الشجاعة والفتوة والكرم والجود التى تمتع بها المرثى وقد أفاض عليه من الصفات والفضائل أعظمها وأجلها وكلها صفات تتلاءم مع مكانة المرثى ومنصبه السياسى كقائد عظيم من قواد الدولة، وقد برع الشاعر فيها وأجاد إجادة بالغة لاتقل عن سابقتها فى رثاء الطوسى، وقد أشاد بها أيضاً النقاد والباحثون

---

(١) ص٢٨٦ العصر العباسى الأول .
(٢) ص٦٦ الرثاء (فنون الأدب العربى) .
(٣) ص١٩٢ جـ٢ جواهر الأدب .
(٤) ص٩٩ - ١٠٠ جـ٤ ديوانه .

مثل: ابن رشيق القيروانى الذى جعلها من جيد الرثاء وقال : إنه ليس فى ابتداءات المراثى المولدة مثل قوله :

أصم بك الناعى وإن كان أسمعا　　　وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا(١)

هذا وللشاعر أمثلة أخرى كثيرة فى رثاء الطوسى والبكاء عليه(٢) ، كما رثاه كثير من شعراء العصر وأبنوه تأبيناً حاراً مبرزين أعماله ومآثره مثنين عليه بصفات حميدة تتلاءم وموقعه فى الدولة.

ومن بين قواد الدولة العباسية ووجهاءها وكبار رجالها "عبد الله بن طاهر الحسين" وال المأمون على خراسان وعلى مصر أيضاً، وقد رثاه شعراء العصر وأبنوه تأبيناً رائعاً مشيدين بأمجاده وأعماله معددين مثالبه وفضائله واصفين إياه بصفات تتناسب وموقعه السياسى ومكانته فى الدولة مبرزين خلاله الحميدة وسماته العربية الأصيلة ومميزاته الإسلامية الجليلة. ومن رثائه قول ابن الجهم يرثيه فى مجلس حافل بالمعزين وأمام الجالسين فى المجلس :(٣)

أى ركن وهى من الإسلام　　　أىُّ يوم أخنى على الأيام
جل رزء الأمير عن كل رزء　　　أدركته خواطر الأوهام
سلبتنا الأيام ظلاً ظليلاً　　　وأباحت حمى عزيز المرام
يابنى مصعبٍ حللتم من النا　　　س محل الأرواح فى الأجسام
وإذا رابكم من الدهر ريبٌ　　　عمَّ ماخصكم جميع الأنام
انظروا هل ترون إلا دموعاً　　　شاهداتٍ على قلوبٍ دوامى
من يداوى الدنيا ومن يكلأ المل　　　ك لدى فادح الخطوب العظام

---

(١) ص١٤٩ جـ٢ العمدة .
(٢) ينظر ديوانه جـ٤ ص١٠١ و ص١٣٧ ص١٣٩ .
(٣) ص١٢٠ تجريد الأغانى القسم الأول .

نحـــن متنـــا بموتـــه وأحـــل الـ ـــخطب موت الســادات والأعـــلام
لـم يمـت والأمير طاهـــر حـــىٌ دائـــم الانتقـــــام والإنعـــــام
وهو مــن بعــده نظــام المعالــى وقـــوام الدنيـــا وسيـــف الإمـــام

نرى الشاعر يرثى "عبد الله بن طاهر" ويعزى ولده فيه ويصف المصيبة وصفاً ممتزجاً بالحزن والأسى مصوراً عظم الفجيعة وهول الخطب الذى حل بفقده، مادحاً المرثى مثنياً عليه بعظيم الصفات وجليل السمات فهو الذى كان يداوى الدنيا وهو الذى كان يكلأ الملك، بل هو ركن الإسلام الذى وهى كما قال فى بدء الأبيات .

ثم يعقب الشاعر رثاءه بأبيات يمدح فيها ولده طاهراً وأنه نعم الخلف لخير سلف بل هو امتداد لوالده ونظام المعالى وقوام الدنيا وسيف الإمام من بعده .

فالشاعر يجمع بين الرثاء والمدح فى قصيدة واحدة وذلك من أشد الرثاء صعوبة على الشاعر كما أوضحنا ذلك من قبل ولايقدر على الجمع بينهما إلا شاعر أصيل ملك ناصية التعبير وفنون القول فى أحرج المواقف .

وقد أثرت هذه الأبيات وكما يحكى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فى نفسه وتأثر بها تأثراً بالغاً وأخذ يبكى بكاء عظيماً حيث سماعها، فقال : فما أذكر أنى بكيت أو رأيت فى دورنا باكياً أكثر من يومئذ"(١) كما رثى كثير من الشعراء "عبد الله بن طاهر" وأبناءه رثاء حاراً مؤبنين ومعزين ونادبين رثاءً يظهر من ثناياه أنه رثاء لعظيم من عظماء الدولة تفوح منه رائحة السياسة والحكم(٢) .

---

(١) ص١٢٠٣ تجريد الأغانى ، القسم الأول .
(٢) ينظر على سبيل المثال : ص٦٣١ جـ٢ و صـ١٥٨٤ جـ٣ ديوان ابن الرومى و ص٢٢٣ نهاية الأرب الجزء الخامس. و ص٢٥٢ الأوراق للصولى .

وممن بكاهم الشعراء كثيراً ورثوهم رثاءً حاراً الوزير العباسى: "ابن الزيات" وزير الخليفة المتوكل وفيه يقول الحسن بن وهب :[١]

أميــر المؤمنيـــن هدمت ركنــاً	عليــه رحاكــم كانــت تــدور
سيبكى الملك من جــزع عليــه	ويحـــزن حيـن تضطرب الأمور
فمهــلاً يابنــى العبــاس مهــلاً	فقــد كويــت بغيظكم الصدور
إلــى كم تنكبــون النـاس ظلماً	لكــم فــى كــل ملحمة عقيــر
جزيتــم ناصــراً لكــم المنايــا	وليــس كذلكــم يجــزى النصير
قتلتــم سابــق الدنيـا إليكــم	وذلــك مـــن فعالكــم شهيــر
وكـــان صلاحـــه لـــو شئتمـــوه	قريبـــاً لايحـــار لــــه البصيــر
كـــأن اللـــه صيركـــم ملوكـــاً	لئـــلا تعدلـــوا ولأن تجـــوروا

المرثية سياسية خالصة تفوح منها رائحة السياسة ويعرف من أبياتها أنها لرجل من رجال الدولة العظماء، وهى فوق كونها بكاءً على الوزير المقتول هى ثورة عارمة على الخليفة العباسى القاتل الذي هدم ركناً من أركان دولته وهى تأبين حار للوزير المقتول فقد كان نصيراً للملك سابق الدنيا إلى الملوك كما كان تقياً صالحاً .

فقد جمع الشاعر فى أبياته بين الندب والتأبين والثورة العنيفة على القتلة .

كما رثى الشعراء كثيراً من الوزراء والولاة والقواد بل لم يمت وزير أو وال أو قائد أو عظيم من كبار رجال الدولة إلا ورثاه شعراء العصر وأبنوه تأبيناً حاراً مشيدين بأمجاده وأعماله معددين فضائله ومناقبه واصفين المصيبة التى حلت بفقده وصفاً ممزوجاً بالحزن والأسى معبرين عن عظم حزنهم وشدة ألمهم وصدق وفائهم وعظيم حبهم للميت المرثى تحدوهم عواطفهم الصادقة ومشاعرهم الجياشة، بل موضحين الألم العظيم الذى أصاب الأمة كلها في فقيدها الكبير.

---

(١) ص٢٣٦٨ تجريد الأغانى ، القسم الثانى .

إلا أنه يلاحظ أن رثاء القواد الذين كانوا يستشهدون فى ساحات المعارك كان أشد مرارة وأعظم ألماً وأصدق عاطفة بل وأغزر صوراً وفكراً وخيالاً وتصويراً من رثاء هؤلاء الذين يموتون على سرير الموت فى عقر دارهم، وهذا أمر طبيعى فالقائد الذى يخوض المعارك ويموت دفاعاً عن دينه ووطنه يكون جديراً بالحب العميق والمشاعر الجياشة والعواطف الملتهبة والرثاء الحزين الباكى المؤثر الذى يسيل الدموع أنهاراً ويأخذ بالأفئدة ويذيب الأكباد ويفتت القلوب تفتيتاً .

رثاء الشيعة لأئمتهم :

لم يتعرض أهل بيت من بيوتات المسلمين للنكبات والفواجع مثلما تعرض أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث سددت إليهم سهام المصائب ورماح الفواجع بما لم يشهده تاريخ المسلمين قديماً وحديثاً وكأنهم خلقوا للمصائب والمآسى والنكبات فى كل عصر وجدوا فيه وعاشوا فى حينه .

وقد بدأت مآسيهم بحرمانهم من الخلافة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وظلوا محرومين منها حتى تقلدها الإمام على بن أبى طالب بعد مقتل عثمان بن عفان إلا أن الأمر لم يدم له طويلاً فقد قتل الإمام علي رضى الله عنها بسببها سنة ٤٠ هـ يوم السابع عشر من رمضان دفن بمدينة "النجف" بأرض العراق.(١)

ثم تتابعت المصائب والنكبات من بعده فى ذريته وفى العلويين جميعاً، فقد مات الإمام الحسن مسموماً بإيماء من أعدائه الأمويين وقال الحسن رضى الله عنه : "سقيت السم مراراً ماأصابنى مثل ماأصابنى هذه المرة "(٢) .

ثم كانت فاجعة العلويين ومصيبتهم فى مسلم بن عقيل على يد شيطان من شياطين البيت الأموى وهو "عبيد الله بن زياد حيث قتله وصلبه وحمل رأسه إلى دمشق "فكان أول قتيل صلبت جثته من بنى هاشم وأول رأس حمل من رؤسهم إلى دمشق"(٣)، ثم كانت الفجيعة الكبرى والمصيبة العظمى التى أصابت العلويين جميعاً فى "الحسين بن على" رضى الله عنهما وآل بيته فى مجزرة كربلاء حيث

---

(١) ص٣٥٦ جـ٣ صبح الأعشى للقلقشندى ، طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٣١هـ - ١٩١٣ م .

(٢) ص٦٦ جـ٢ وفيات الأعيان لابن خلكان .

(٣) ص٧١ جـ٢ مروج الذهب للمسعودى .

قتل الأمويون الحسين ومن معه من آل بيته قتلة لاتزال ترتعد منها فرائص الدهر وديس بسنابك الخيل حتى تكسرت أضلاعه وفرك لحمه فى التراب وفصلت رأسه عن جسده وكانت رأسه أول رأس ترفع على خشبة". (١)

وقد قتل الإمام الحسين ظمآناً حيث منعه الآمويون من ماء الفرات الذى كان يفيض بالماء، ووجد به رضى الله عنه حين قتل ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة وقتل معه أصحابه كلهم وفيهم بضعة عشر شاباً من أهل بيته ولم يبق من أهل بيت الحسين إلا غلام مريض كان مع النساء فأمر به عبيد الله ابن زيد - شيطان بنى أمية - ليقتل فطرحت زينب نفسها عليه وقالت والله لايقتل حتى تقتلونى فرق لها فتركه وكف عنه"(٢). ولم يكف "يزيد بن معاوية" حرمته الشنيعة هذه بل كان يعبث بثغر الحسين بعد قتله بقضيب كان فى يده .

وقد كان لمقتل الحسين رضى الله عنه وعلى هذه الكيفية البشعة أثر كبير فى التحام صفوف الشيعة وإذ كاء نار التشيع فى نفوسهم وامتزج التشيع بدمائهم وتغلغل فى أعماق قلوبهم وأصبح عقيدة راسخة فى فكرهم وحملوا أرواحهم على أكفهم مطالبين بالقصاص من قتلة الحسين وآل بيته فى كربلاء، بل أخذ شعورهم يقوى لايبالون بما سوف يصيبهم ومايحدث لهم، من ذلك : أن "عبيد الله بين زياد" لما ارتقى المنبر بعد قتل الحسين وخطب خطبته التى قال فيها : الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه وقتل الكذاب ابن الكذاب وشيعته "قام عبد الله بن عفيف قائلاً : ياعدو الله إن الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه،

---

(١) ص٣٩٤ جـ٥ تاريخ الطبرى .

(٢) ص٣٩٠ جـ٥ المصدر السابق .

تقتل أولاد النبيين وتقوم على منبر الصديقين"(١)

ومن ذلك أيضاً إنكار "العبلى" الشاعر ماكان يحدث فى عصر الأمويين من سب على كرم الله وجهه على المنابر وتعرضه للنفى بسبب ذلك(٢)، وهكذا تأججت قلوب الشيعة ناراً بعد قتل الحسين وأشعلت نيران الحماس فى نفوسهم مما مهد لسقوط الدولة الأموية .

ولقد أخذ الأمويون يضطهدون آل البيت وشيعتهم أشد الاضطهاد خاصة أيام الحجاج، حتى أن الرجل ليقال له زنديق أو كافر أحب إليه من شيعة على"(٣). وأخذ الأمويون يتفننون فى إيذاء الشيعة ويعملون على إبادتهم حتى أبادوا الآلاف منهم وقتلوهم وصلبوهم فى جذوع النخل مثلما فعلوه مع "زيد بن زين العابدين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب" حيث قتل ودفن ثم استخرجت جثته من قبره وفصلت رأسه عن جسده وصلب عرياناً وظل مصلوباً خمس سنين عرياناً فلم ير أحد له عورة ستراً من الله تعالى وقال بعضهم : إن العنكبوت نسج على عورته(٤)"

ولم يقف اضطهاد العلويين وشيعتهم بعد زوال الدولة الأموية بل امتد الاضطهاد على أيدى العباسيين أبناء عمومتهم بل كان أشد ظلماً ووقعاً على نفوس آل البيت :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

---

(١) ص٤٠٩ تاريخ الإسلام السياسى والدينى / د / حسن إبراهيم حسن الطبعة التاسعة عام ١٩٧٩ م .

(٢) ص١٣١١ تجريد الأغانى .

(٣) ص٢٧٤ فجر الإسلام لأحمد أمين .

(٤) ص١١١ جـ٦ وفيات الأعيان .

ولقد تفنن العباسيون فى طرق إيذاء العلويين وساموهم سوء العذاب من : قتل وصلب وسجن وحبس وفتك وتشريد حتى لمجرد الشبهة فيهم ويتجلى ذلك فى مافعله الرشيد" "بموسى بن جعفر الصادق" : فقد قبض عليه وحبسه وقتله وأدخل عليه جماعة شهدوا أنه مات حتف أنفه"(١)، وأمر المنصور أن يحمل إليه العلويون مقيدين بالسلاسل والأغلال ثم حبسهم وأمر بهدم السجن عليهم، ولم يكتف العباسيون باضطهاد العلويين في حياتهم بل امتد اضطهادهم لهم بعد وفاتهم، ففى سنة ٢٣٦ هـ أمر الخليفة المتوكل بهدم قبر الحسين بن على وهدم ماحوله من المنازل والدور وأن يحرث ويسقى موضع قبره وأن يمنع الناس من إتيانه "(٢) .

فأى ظلم هذا الذى وقع على آل البيت من أبناء عمومتهم؟

وهكذا لقى آل البيت وشيعتهم أقسى ألوان الظلم والاضطهاد من الأمويين والعباسيين على السواء، ولم يظهر من عدد القتلى مثل الذي ظهر فى آل طالب، وأصبح تاريخ العلويين صفحة دامية تذيب القلوب وتستنزف الدمع وتطلق اللسان وأخذ شعراء الشيعة يبكونهم ويرثونهم رثاءً حاراً مفجعاً بكل عواطفهم الملتهبة ومشاعرهم الجياشة فى شعر رثائي حزين باك كله آهات حزينة وحسرات دفينة وتفجع وتوجع حتى كانت أشعارهم فى الرثاء مغرقة فى اللوعة والحزن والأسى بل والتحريض على الأخذ بالثأر والقصاص من الجناة.

ومضى شعراء الشيعة فى العصر العباسى الأول يرثون أئمتهم العلويين وشيعتهم رثاء حاراً ملتهباً يفيض بالحزن ويزخر بالألم والأسى ينفسون فيه عن نفوسهم المكلومة واصطبغ شعرهم بالحزن

---

(١) ص١٥٣ - ١٥٤ تاريخ الإسلام السياسى والدينى .

(٢) ص١٨٥ جـ٩ تاريخ الطبرى .

العميق والرثاء النائح والندب الحار مظهرين تفجعهم مبينين حسراتهم وفيه التلهف والأسف والاستعظام .

وبعد رثاء الشيعة لأئمتهم وشيعتهم من أجود شعر الرثاء وأروعه وأصدقه عاطفة وأحره مشاعراً، وكيف لايكون ذلك كذلك وقد ملك حب الأئمة قلوب الشعراء من الشيعة وأوجعتهم مصائبهم ورزاياهم المتلاحقة التى حدثت لهم طوال حياتهم وهم فى رثائهم لايرثون شخصاً عادياً بل يرثون أئمة لهم مكانتهم الدينية ومنزلتهم السياسية وهم فى مراثيهم ينافحون عن عقيدة راسخة رسخت فى قلوبهم وعلقت فى عقلهم واستحوذت على معتقداتهم وفكرهم .

ويعد رثاء الشعراء لأئمتهم شعراً سياسياً خالصاً لأنه فى حقيقته تحريض وتقرير للمذهب السياسى ولايستهدف غير الدفاع عن حق الشيعة الضائع فى خلافة المسلمين وحكمهم، بل لولا الخلافة وأحقية الحكم ماكانت هناك سنة ولاشيعة ولاخوارج فالخلافة هى المدار الرئيسى الذى قامت عليه الأحزاب السياسية وتبلورت بسببها عقائد كل حزب وكل فرقة من الفرق الإسلامية .

فحينما يرثى شعراء الشيعة أئمتهم يبكونهم ويبكون فيهم حقهم الضائع فى الخلافة مثبتين فى شعرهم أحقيتها مفندين دعاوى أعدائهم بشأنها داعين إلى استرداد هذا الحق السليب فى خلافة المسلمين .

ووجد فى العصر العباسى الأول كثير من الشعراء الذين رثوا أئمة آل البيت وبكوا عليهم فى شعر حزين باك فيه اللهفة والحسرة على ماأصابهم وفيه الثورة العارمة على أعدائهم ومعارضيهم فى الخلافة وفيه شرح المذهب السياسى للشيعة وماتضمنه من أفكار وآراء حول أحقية الخلافة لآل البيت وتفنيد مزاعم الآخرين من أمويين وعباسيين فى أحقيتهم لها .

ومن هؤلاء الشعراء "السيد الحميرى" "ومنصور النمرى" ودعبل الخزاعى" "وديك الجن" و"ابن الرومى" و "محمد بن صالح العلوى" و الحمانى العلوى " والمفجع البصرى" وغيرهم من شعراء الشيعة الذين ظهروا فى ذلك العصر .

ويمتاز شعر الرثاء للشيعة وأئمتهم بأنه شعر مطبوع على الحزن والعويل والبكاء، حتى ليقال إنه الشعر الباكى تسمعه فكأنك تسمع نواحة تنوح(١)، وفيه المحبة والحزن الشديد وفيه الدفاع عن عقيدة وفيه العاطفة الملتهبة والمشاعر الحارة الفوارة كأنها بركان يقذف حمماً ملتهبة تشتعل فيها النيران .

وقد ظهر لونان من شعر الرثاء للأئمة في العصر العباسى الأول : لون دار موضوعه على إمام شيعى واحد أخذ الشاعر يبكيه ويندبه ويرثيه فى قصيدة خاصة به لايشرك معه إماماً آخر أو جمعاً من الأئمة فى القصيدة، ولون آخر أخذ فيه الشاعر الشيعى يرثى أكثر من إمام شيعى فى قصيدة واحدة معدداً لهم واصفاً نكباتهم ومصائبهم بل نكبات ومصائب البيت النبوى كله .

فمن الأول قول السيد الحميرى يرثى الإمام الحسين بن على رضى الله عنهما فى شعر رثائي حزين باك كأنه نواحة تنوح:(٢)

امـرر علـى جـدث الحسيـ	ـن وقـل لأعظمـه الزكيـه
ياأعظمـاً لازلـت مـن	وطفـاء ساكبـةٍ رويـه
وإذا مـررت بقبـره	فأطـل بـه وقـف المطيه
وابـك المطهـر للمطهـ	ـر والمطهـرة التقيـه
كبكـاء معولـةٍ أتـت	يومـاً لواحدهـا المنيـه

---

(١) ص٢٢٥ المقارنة بين الشعر الأموى والعباسى فى العصر الأول د / عزيز فهمى تحقيق / محمد قنديل البقلى ، دار المعارف .

(٢) ص٨٧٥ تجريد الأغانى القسم الأول .

نرى السيد الحميرى يرثى الإمام الحسين ويندبه ندباً حاراً متفجعاً عليه نائحاً نوح الثكالى بل الثكلى التى فقدت وحيدها.

وكانت مجزرة كربلاء وماحدث فيها للإمام الحسين ملهماً قوياً لكثير من الشعراء ودافعاً أنطقهم بشعر رثائى كثير تفيض منه اللوعة واللهفة وتسيل منه العبرات وتذيب الأفئدة وتقطع الأكباد ولاغرو فى ذلك فهى صدى للواقع المر والحقيقة الحزينة المؤلمة حيث قتل الحسين قتلة لم يشهد التاريخ مثلها قديماً وحديثاً وتناثرت أشلاء الضحايا وأحرقت جثثهم ومزقت أجسامهم من آل البيت النبوي فأخذ الشعراء ينوحون ويولولون على الحسين فى شعر رثائى صادر من أعماق القلوب وقرار الأفئدة والعقول.

فهذا منصور النمرى يشدوا فى رثاء الحسين بأنشودة حزينة باكية مصوراً ماحدث له فيها من شدائد ومصائب، مصوراً المصيبة تصويراً ممتزجاً بالحزن والأسى العميق معبراً عن أثر المصيبة على نفسه متبرئاً من هؤلاء القتلة أصحاب هذه الفعلة الشنيعة فى قوله يرثيه وهو واقف على قبره :(١) .

فما وجدت على الأكتاف منهم ... ولا الأقفاء آثار النصول
ولكن الوجوه بها كلوم ... وفوق حجورهم مجرى السيول
أريق دم الحسين ولم يراعوا ... وفى الأحياء أموات العقول
فدت نفسى جبينك من جبين ... جرى دمه على خد أسيل
أيخلو قلب ذى ورع ودين ... من الأحزان والألم الطويل
وقد شرقت رماح بنى زياد ... برى من دماء بنى الرسول
بتربة كربلاء لهم ديار ... نيام الأهل دارسة الطلول
فأوصال الحسين ببطن قاع ... ملاعب للدبور وللقبول
تحيات ومغفرة وروح ... على تلك المحلة والحلول
برئنا يارسول الله ممن ... أصابك بالأذية والذحول

---

(١) ص٦٥١ جـ٢ زهر الآداب للحصرى .

وهذا الشاعر الشيعى الصادق فى تشيعه "دعبل الخزاعى" تلهبه حادثة كربلاء وماحدث فيها للإمام الحسين فينطلق بشعره يرثيه ويبكى عليه بكاء حاراً ويصور مصرعه وكله أسى وحسرة على مصرعه وكله عاطفة صادقة حزينة معبراً عن مشاعره الجياشة وعن شعوره الصادق بتشيعه وإخلاصه لإمامه القتيل حيث يقول من قصيدة يبكى الإمام الحسين:(١)

أأسبلت دمع العين بالعبرات ... وبت تقاسى شدة الزفرات؟
وتبكى على آثار آل محمد ... وقد ضاق منك الصدر بالحسرات
ألا فابكهم حقاً وأجر عليهم ... عيوناً لريب الدهر منسكبات
ولاتنسى فى يوم الطفوف مصابهم ... بداهية من أعظم النكبات(٢)
سقى الله أجداثاً على طف كربلا ... مرابع أمطار من المزنات
وصلى على روح الحسين وجسمه ... طريحاً لدى النهرين بالفلوات
أأنسى وهذا النهر - يطفح - ظمآناً ... قتيلاً ومظلوماً بغير تراث
فقل لابن سعد - أبعد الله سعده - ... ستلقى عذاب النار واللعنات
سأقنت طول الدهر ماهبت الصبا ... وأقنت بالآصال والغدوات
على معشر ضلوا جميعاً وضيعوا ... مقال رسول الله بالشبهات

نرى دعيلاً فى رثائه للإمام الحسين يبكيه ويتفجع عليه ويتوجع لمقتله معبراً عن وقع هذه الجريمة وأثرها على نفسه وموضحاً ماذكره التاريخ حول معركة كربلاء ومصرع الحسين فيها على أيدى الجيش الأموى - الذى أرسله يزيد بن معاوية وجهزه عبيد الله ابن زياد وقاده عمر بن سعد بن أبى وقاص - وأوضح الصورة المؤلمة فى منع الجيش الأموى للحسين من الماء حيث قتل ظمآناً ونهر الفرات يفيض بالماء ويطفح به على جانبيه، إلا أنه لم يصور المعركة وماحدث فيها وكيفية مقتل الحسين وتوضيح صموده وتصديه لأهل

---

(١) ص ١٥٠ ديوان دعبك الخزاعى .
(٢) الطفوف : الأرض التى استشهد بها الإمام الحسين .

الباطل من بنى أمية، فهو يبكيه ويندبه ويستدر عطف المسلمين عليه ويستبكيهم لمصرعه .

ونراه يدعو للقصاص وأخذ الثأر من قتلته محاولاً إثارة المسلمين وإلهاب عواطفهم وانتزاع نخوتهم فى قوله يرثيه :(١)

رأس ابـن بنت محمدٍ ووصيه	ياللرجـال علـى قناةٍ يرفـع
والمسلمـون بمنظـرٍ وبمسمـعٍ	لاجـازعٌ مـن ذا ولامتخشـع
أيقظـت أجفاناً وكنت لها كرى	وأنمـت عينـاً لم تكن بك تهجـع
كحلت بمنظرك العيـون عمايـةً	وأصـم نعيـك كـل أذنٍ تسمـع
ماروضـة إلا تمنـت أنهـا	لك مضجع ولخط قبرك موضـع

فدعبل يرثى الحسين ويصور حمل رأسه على الخشبة أمام المسلمين ولايتحرك منهم أحد ولايجزع ولايخشع لهذا المنظر البشع ويرى أنه بموته قد حرم النوم على أحبابه واستراحت نفوس الأعداء ونامت أعينهم، وتكحلت العيون عماية عندما أبصرت ماحدث للحسين وأصاب الآذان الصمم عند سماعها نبأ مصرعه وأنه لطيبه وشرفه وحسن منبته تتمنى كل بقعة شريفة من الأرض أن تكون مثوى لجسده وموضعاً لقبره .

ونلاحظ أن الشاعر فى البيت الأول قد تأثر فى أبياته بعقيدة الشيعة فى الخلافة حينما وصف الإمام الحسين بأنه : ابن وصى محمد صلى الله عليه وسلم، حيث يعتقد الشيعة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أوصى بالخلافة لعلى من بعده يوم غدير خم وقال له فى هذا اليوم : على منى بمنزلة هارون من موسى ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله" فالشيعة يعدون هذا القول بمثابة مبايعة من الرسول صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب بالخلافة من بعده أمام جموع المسلمين .

---

(١) ص٢٢٥ ديوان دعبل الخزاعى .

وهناك الكثير من قصائد الرثاء والبكائيات فى الإمام الحسين رضى الله عنه ويعد أكثر أئمة الشيعة رثاءً من جانب شعرائهم بل ومن غير شعراء الشيعة.[١] ويصور رثاؤه أكثر الرثائيات الشيعية وأحرها بكاءً وأكثرها عويلاً وتفجعاً وثورة عارمة على المغتصبين للحق العلوى الضائع فى خلافة المسلمين .

ومن أئمة الشيعة الذين جاء رثاؤهم مستقلاً فى قصائد مستقلة بعينها :

الإمام على بن أبى طالب[٢] والإمام على الرضا[٣] والإمام الحسين ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب فضلاً عن كثير من أتباعهم وقواد ثوراتهم والثائرين معهم من شيعتهم "كأبى السرايا" "وعمر بن يحيى العلوى" وغيرهم من الأئمة والثائرين معهم[٤] .

أما اللون الثانى من رثاء الشيعة لأئمتهم والتى جاءت قصائده مشتملة على أكثر من إمام مرث فى موضوعها بل اشتملت على رثاء آل البيت بوجه عام والبكاء عليهم وندبهم وتصوير مصائبهم ونكباتهم فكثيرة ومتعددة فى شعر الرثاء عند شعراء الشيعة فى العصر العباسى الأول ولعل أشهرها جميعاً قصيدة "دعبل الخزاعى" "التائبة الخالدة" التى أخذ فيها يرثى آل البيت ويصور ماحدث لهم من رزايا وحوادث ومدحه وإعلان حبه لهم

---

(١) ينظر الأوراق للصولى ص١٨١ - ١٨٣ ، وديوان ابن المعتز ص٣٥٢ جـ٢.

(٢) ينظر ديوان دعبل الخزاعى ص٣١٤ .

(٣) ينظر ديوان دعبل ص١٤٩ و ص١٨٥ و هـ٢٣٥ .

(٤) ينظر ديوان ابن الروحى جـ١ ص٤٩٢ و جـ٣ صـ١٣٤ .

وهجومه العنيف على بنى أمية والدفاع عن عقيدة الشيعة وتفانيه في ذلك، ويقول فيها يرثى آل البيت :[1]

مـــدارس آيات خلت مـن تـــلاوة ... ومنزل وحى مقفـر العرصــات[2]

لآل رسول الله بالخيف مـن منـــى ... وبالركـن والتعريـف والجمرات[3]

ديـــار علـــىٍ والحسيـــن وجعفـرٍ ... وحمـزة والسجاد ذى الثفنـات[4]

ديـــار لعبـد اللـه والفضـل صنـوه ... نجـى رسـول اللـه فى الخلوات[5]

إلى أن قال بعد أن عدد فضائل جمة لآل البيت :

ديـــار عفاهـــا جـور كل منابذٍ ... ولـم تعف للأيام والسنوات[6]

فياوارثـــى علـــم النبـــى وآلـــه ... عليكـم سلامٌ دائمُ النفحـات[7]

قفا نسأل الدار التى خف أهلها ... متى عهدها بالصوم والصلوات

وأيـــن الألى شطت بهم غربة النوى ... أفانيـــن فـــى الآفاق مفترقات؟[8]

هم أهل ميراث النبـــى إذا اعتـــزوا ... وهـم خيـر ســادات وخير حمـاة

مطاعيم فى الإعسار فى كل مشهدٍ ... لقـد شرفـوا بالفضـل والبركـات

---

(١) القصيدة من ص١٢٤ إلى ص١٤٥ ديوان دعبل الخزاعى .

(٢) المتفر : الخالى من الناس . العرصات : ساحات الدار .

(٣) الخيف ومنى والركن والتعريف والجمرات : أسماء أماكن بمكة لاتزال قائمة .

(٤) الثفنات : جميع ثفنة والثفنة : الركبة ومجتمع الساق والفخذ . والسجاد : على بن الحسين .

(٥) يريد : عبد الله بن عباس وأخاه الفضل .

(٦) عفاها : محاها .

(٧) آله بالنصب عطفاً على المنادي المضاف : ياوارثى علم النبى .

(٨) شطت: بعدت. النوى: البعد. الأفانين: الأحوال جمع فنون ومفرده: فن.

وماالنـــاس إلا حاســـد ومكــذب ومضطغـــن ذو إحنـــةٍ وترات(١)

إذا ذكـــروا قتلـــى ببـــدرٍ وخيبـــرٍ ويـــوم حنينٍ أسبلـــوا العبرات(٢)

وكيــف يحبـــون النبـــى ورهطه وهـــم تركـــوا أحشاءهـم وغرات(٣)

لقـــد لاينوه فـــى المقال وأضمـــروا قلوبـــاً علـى الأحقاد منطويـــات

فـــإن لـــم تكن إلا بقربى محمـــدٍ فهاشـــم أولـــى من هنٍ وهنات(٤)

سقـــى اللـــه قبراً بالمدينة غيثـــه فقـــد حـــل فيه الأمـــن بالبركـــات

نبـــى الهـــدى صلى عليه مليكـــه وبلـــغ عنـــا روحـــه التحفـــات(٥)

وصلـــى عليـــه اللـــه ماذر شارق ولاحـــت نجـــوم الليل مبتدرات(٦)

أفاطم لـــو خلت الحسيـــن مجـــدلاً وقد مـــات عطشاناً بشط فـــرات(٧)

إذن للطمـــت الخـــد فاطـــم عنـــده وأجريـــت دمـــع العين فى الوجنات

أفاطـــم قومـــى يابنة الخير واندبى نجـــوم سمـــاواتٍ بـــأرض فـــلاة

قبـــور بكـــوفـــانٍ وأخـــرى بطيبـــةٍ وأخـــرى بفـــخٍ نالهـــا صلواتى(٨)

---

(١) مضطغن : من الضغن . والإحنة : الحقد . وترات : جمع ترة للموتور الذى قتل له قتيل ، وذو ترات : ذو دماء .

(٢) أسبلوا العبرات : أذرفوا الدموع لمجدهم الضائع .

(٣) الوغرة : شدة الحرارة .

(٤) هنٍ وهنات : كناية عما لايمكن التصريح به من أمور .

(٥) التحفات : جمع : التحفة وهى مايتحف به .

(٦) ذر : طلع . شارق : مشرق .

(٧) فاطم : فاطمة الزهراء . مجدلاً صريعاً .

(٨) كوفان : الكوفة وفيها قتل الإمام على والحسين ابنه ومسلم بن عقيل . وطيبة : المدينة المنورة، وفيها قبور : الحسن بن على وعلى بن الحسين وجعفر الصادق. وفخ : واد بمكن وفيها قبر الحين بن على بن الحسن وآخرين .

وقبرٌ بأرض الجو زجان محلـه وقبرٌ بباخمرا، لدى الغربات[١]

وقبر بغداد لنفس زكية تضمنها الرحمن في الغرفات[٢]

نفوس لدى النهرين من أرض كربلا معرسهم فيها بشط فرات[٣]

توفوا عطاشاً بالفرات فليتني توفيت فيهم قبل حين وفاتي

إلى الله أشكو لوعة عند ذكرهم سقتني بكأس الذل والقطعات

نقسمهم ريب الزمان، فما ترى لهم عقوة مغشية الحجرات[٤]

لهم كل حين نومة بمضاجع لهم في نواحي الأرض مختلفات

إلى أن قال يبكي عليهم :

سأبكيهم ماحج لله راكب وماناح قمري على الشجرات[٥]

بنفس أنتم من كهول وفتية لفك عناة أو لحمل ديات[٦]

فياعين بكيهم وجودي بعبرة فقد آن للتسكاب والهملات

لقد حفت الأيام حولي بشرها وإني لأرجو الأمن بعد وفاتي

---

(١) الجوزجان : إسم كورة واسعة من كور بلخ بين مرو الروز وبلخ . وفيها قبر يحى بن زيد بن على بن الحسين قتل في أيام الأمويين وصلب جسده طويلاً . وباخمرا : موضع بين الكوفة وواسط، وبها قبر إبراهيم بن عبد الله بن الحسن ابن على قتل أيام المنصور سنة ١٤٥ هـ .

(٢) وفى بغداد قبر الإمامين : موسى الكاظم ومحمد الجواد ابن الإمام الرضا.

(٣) المعرس : من التعريس : النزول في المكان، والنفوس : هى نفوس الإمام الحسين بن على ومن معه من الأبرار الذى استشهدوا فى كربلاء عام ٦١ هـ .

(٤) العقوة : الساحة أو ماحول الدار .

(٥) القمرى : نوع من أنواع الحمام .

(٦) عناة : جمع عانى وهو الأسير . والديات : جمع الدية وهى التعويض عن القتيل .

ألـم تر أنـى مـن ثلاثين حجـة أروح وأغـدوا دائـم الحسرات[١]
أرى فيئهـم فـى غيرهـم متقسمـاً وأيديهـم من فيئهـم صفـرات[٢]

إلى أن قال موازناً بين البيت النبوى والبيت الأموى :

بنـات زياد في القصور مصونـة وآل رسـول اللـه فى الفلـوات
ديار رسـول اللـه أصبحن بلقعاً وآل زيـاد تسكـن الحجـرات
وآل رسـول اللـه تدمى نحورهم وآل زيـاد آمنـوا السربات[٣]
وآل رسـول اللـه نحف جسومهم وآل زيـاد غلـظ القصرات[٤]

فهذه الأبيات من القصيدة الطويلة التي نظمها دعبل فى رثاء آل البيت النبوى والتى تبلغ خمسة عشر بيتاً بعد المائة أخذ فيها دعبل يرثى آل البيت رثاءً حاراً ويبكيهم ويولول عليهم وكله مشاعر فوارة وعواطف صادقة وكأنه يقذف حمماً من اللهيب وبراكين من النيران الموقدة فى كل بيت من أبياتها .

وقد اختلف الباحثون والرواة فى مطلع القصيدة، فقد ذهب معظمهم إلى أن مطلعها :

مدارس آيات خلـت من تـلاوة ومنـزل وحـى مقفـر العرصات

أمثال : ياقوت الرومى[٥] وعبد الله بن المعتز[٦] وابن شهـرا

---

(١) الحجة : السنة .
(٢) الفىء : الخراج أو الغنيمة . صفرات : أى لاشىء فيها من حقهم المسلوب.
(٣) السرب : الإبل ، ومارعى من المال .
(٤) القصرة : أصل العنق .
(٥) معجم الأدباء جـ١١ ص١٠٣ .
(٦) ص٢٦٧ طبقات الشعراء لابن المعتز .

شوب[١] وابن الفتال[٢] وأبو الفرج الأصفهانى[٣] وأحمد أمين فى ضحى الإسلام[٤] ومؤلفى المنتخب فى أدب العرب[٥] والدكتور شوقى ضيف[٦] ومحمد سيد كيلانى[٧] وغيرهم من الباحثين القدامى منهم والمحدثين .

وذهب الأستاذ عبدا لصاحب عمران الدجيلى أن مطلعها هو :

تجاوبــن بالإرنــان والزفـرات نوائح عجم اللفـظ والنطقات[٨]

وذهب البعض أن مطلعها :

بكيت لرسم الـدار من عرفـات وأذريـت دمـع العين بالعبرات

مثلما هو فى مخطوطة توبنجن، ومثلما ذهب الدكتور عز الدين إسماعيل[٩] والدكتور محمد يوسف نجم فى تحقيق ديوان دعبل" .

ولم يقتصر الخلاف على المطلع بل امتد إلى عدد الأبيات وبعض الألفاظ والعبارات .

والمرثية طويلة رائعة التصوير بارعة النسج محكمة الأسلوب وقد أخذ دعبل يرثى فيها آل البيت رثاء حاراً ويبكيهم بكاء شديداً وكله حزن وهم لما أصابهم وكله حب ووفاء عظيم لأئمته.

---

(١) ص٤٥٠ جـ٣ المناقب .
(٢) ص١٩٤ جـ٣ المناقب .
(٣) ص١٨١ جـ٢٠ الأغانى .
(٤) ص٣١١ جـ٣ ضحى الإسلام .
(٥) جـ٣ صـ٧٥ .
(٦) ص٣٢٠ العصر العباسى الأول .
(٧) ص٩١ أثر التتبع فى الأدب العربى .
(٨) ص١٢٤ ديوان دعبل تحقيق الأستاذ : الدجيلى .
(٩) ص٦٠ فى الشعر العباسى الرؤية والفن .

وقد أخذ يعدد مصائبهم وكوارثهم التى أحلت بهم على مر العصور منذ قتل الإمام على بن أبى طالب والحسن والحسين وجعفر ومسلم بن عقيل ومضى يصور ماحدث لهم من فواجع ونكبات مصوراً الخراب الذى حل بديارهم بعد رحيلهم متفجعاً عليهم متوجعاً لفراقهم وماحدث لهم مشيداً بمكانتهم وفضلهم على سائر الخلق وجميع البشر مركزاً على ماحدث من مصائب فى مجزرة كربلاء التى قتل فيها الإمام الحسين ومن معه من أهل وأتباع، معدداً لمصائبهم التى شملتهم فى كل مكان وكل زمان حيث انتشرت قبورهم فى مختلف الأمصار والمدن الإسلامية سواء من كان منها بالكوفة أو المدينة أو بفخ أو الجوزجان أو باخمرا أو بغداد وغيرها من المدن والمواضع التى ضمت فى ترابها أجساد آل البيت الطاهرة.

وبعد أن عدد مصائبهم ووصفها وصفاً ممتزجاً بالحزن والأسى - بل كلها حزن وأسى - أخذ يبكيهم ويندب عليهم ويسيل الدمع عليهم أنهاراً جارفة، وكيف لايبكيهم ويتقطع عليهم حسرة وألماً وهو الذى قضى حياته مغرقاً فى حبهم مدافعاً عن حقهم هاجياً لأعدائهم رافعاً راية الثورة والغضب فى وجوه مغتصبى الخلافة منهم، ثم نراه يلجأ - وهو يصور ماحدث لآل البيت من مصائب ورزايا - إلى الموازنة بين آل البيت وماهم عليه من مآسى وفواجع وبين آل البيت الأموى ومايعيشون فيه من ثراء ورغد عيش بينما بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم محروم من كل ذلك وهو الأولى بكل حق ومتعة من غيره .

ثم نراه فى آخر القصيدة - وبعد أن تفجع وتحسر على آل البيت وبكاهم وأعلن حبه لهم وهجومه على بنى أمية - يتحدث عن المهدى المنتظر الذى يعود فيملاء الأرض عدلاً بعد ماملئت جوراً وظلماً ويرد الحق إلى آل البيت ويمنى نفسه بهذا الخلاص معلناً أنه سيظل على حبه وولائه لآل البيت بل وسيظل يبكيهم مدى الحياة.

فالمرثية بكاء على آل البيت وتصوير لمصائبهم ووصف لرزاياهم وفواجعهم وثناء عليهم وإشادة بفضائلهم وعظمتهم وهجومٌ وثورة عارمة على بنى أمية وإثبات لحق آل البيت فى الخلافة.

وقد أخذ الشاعر يرثى آل البيت فى قصيدته الخالدة وكله مشاعره جياشة وأحاسيس صادقة ونفس كلها ألم وحسرة وأسى لمصابهم وقلب مفعم بالفجيعة ومملوء بالهم والحزن لرزاياهم، فالشاعر كان صادقاً فى عاطفته كل الصدق، كان صادقاً فى رثائه صادقاً فى حبه لآل البيت صادقاً فى بغضه لبنى أمية صادقاً فى عقيدته الشيعية مؤمناً بمبادئها وعقائدها .

وقداستطاع الشاعر أن يلائم بين صياغة القصيدة وموضوعها، فجاءت ألفاظه قوية جزلة وعباراته رصينة فحلة إلا أنه بعد بها عن الغرابة والوعورة - إلا فى قليل منها - وجاءت ألفاظه وعباراته موحية عما يجول به فكره وتجود به قريحته من معانٍ وأفكار، فحينما يتحدث عن المصائب والكوارث يستخدم أسلوباً ملائماً وحينما يتحدث عن حبه لآل البيت أو يتعرض للأمويين بالهجوم يأتى بالأسلوب الملائم والألفاظ المناسبة والمعبرة عن غرضه وفكره ومعانيه، بل إنه كان موفقاً كل التوفيق فى اختيار الوزن والقافية فى قصيدته، فقد لحنها على بحر الطويل الذى يلائم مقام الرثاء وجو الحزن والألم لأنه يتسع لخواطر الشاعر وأحاسيسه وفضلاً عن أنه أنسب البحور لإطلاق الآهات وإخراج الزفرات، وقد زاد من جمال القصيدة وروعتها هذه الإطلاقة الأخيرة فى القافية التى تنتهى بالتاء التى يسبقها ألف المد والتى توحى بالندب والتفجع من نفس مكلومة قد طبقها الحزن وخيم عليها الأسى وسكنت فيها الهموم والآلام .

والقصيدة تمثل الرثاء السياسى أتم تصوير فهى فضلاً عن كونها بكاء على آل البيت وتصوير لآلامهم فهى هجوم على بنى أمية الذى اغتصبوا الخلافة من آل البيت وفعلوا بهم مافعلوا بسببها،

وفضلاً عن أنها تمثل عقيدة الشاعر السياسية التى آمن بها والتى ضمن قصيدته بعض معتقداتها فقد ذكر : "عقيدة الوصية" وعقيدة الإرث والوراثة "وعقيدة حب الإمام" وأن محبه فى أمان يوم القيامة "وأن القرآن قد بشر بخلافة آل البيت"، "وأن الخلافة فى آل البيت"، "والمهدى المنتظر" وغير ذلك من عقائد الشيعة فى الخلافة والأئمة .

وهكذا برع دعبل فى قصيدته وأجاد إجادة بالغة حتى أصبحت هذه القصيدة من عيون شعر الرثاء فى الأدب العربى بوجه عام ونالت شهرة فائقة فى القديم والحديث من التاريخ الإسلامى وأعجب بها الخلفاء والأدباء والرواة والباحثون والدارسون فى مختلف العصور .

فقد أعجب بها الخليفة المأمون وتأثر بها تأثراً بالغاً حيث جزع وبكى بكاء عظيماً حتى أخضل لحيته بدمعه عند سماعه لها(١)، كما أعجب بها عبد الله بن المعتز وأشاد بها وجعلها أشهر من الشمس.(٢)

كما أشاد بها الأستاذ "أحمد أمين" وجعلها من بدائع الرثاء فى الشعر العربى(٣) وأشاد بها "ياقوت الحموى" وجعلها من أحسن الشعر(٤) . وأشاد بها "الدكتور شوقى ضيف"(٥) "والدكتور أحمد الحوفى"(٦) والدكتور عز الدين إسماعيل(٧)، والدكتور على إبراهيم

---

(١) ص١٨١ جـ٢٠ الأغانى .   (٢) ص٢٦٧ طبقات الشعراء .

(٣) ص٣١٠ جـ٣ ضحى الإسلام .

(٤) ص١٠٣ جـ١١ معجم الأدباء .

(٥) ص٣٧ الرثاء و جـ٣٢٠ العصر العباسى الأول و ص٧٠ الشعر وطوابعه الشعبية .

(٦) ص٢٠٣ أدب السياسة فى العصر الأموى .

(٧) ص٦٠ فى الشعر العباسى الرؤية والفن .

أبو زيد[١] والأستاذ محمد سيد كيلانى[٢] وغيرهم .

وللشاعر نماذج أخرى كثيرة فى رثاء آل البيت إلا أنها أقل روعة وبراعة من هذه التائية الخالدة[٣]، كما نجد دواوين شعراء الشيعة فى العصر العباسى الأول تفيض بهذا اللون من الرثاء فى رثاء الأئمة من آل البيت[٤] .

وهكذا كان شعر شعراء الشيعة لأئمتهم حزيناً باكياً يتفجعون على موتاهم وقتلاهم ويرثون أنصارهم محتجين للشيعة بالخلافة، وفى شعرهم حملات وثورات على الأمويين والعباسيين على السواء ويغلب على رثائهم طابعهم المذهبى وهدفهم السياسى فجاء رثاؤهم رثاءً سياسياً وثيق الصلة بالحزب الشيعى وآلامه وآماله، فيه الدعوة بالخلافة لآل البيت والثورة العنيفة على أعدائهم بجوار رثاء الأئمة وشيعتهم وتصوير مآسيهم والبكاء والعويل عليهم.

---

(١) ص١٣٨ إلى ص١٤٦ الصورة الفنية فى شعر دعبل .

(٢) ص١٢٧ أثر التشيع فى الأدب العربى .

(٣) ينظر على سبيل المثال ديوانه : ص١٩٥ ص١٩٦ ص١٩٧ ص١٩٨ .

(٤) ينظر على سبيل المثال : ص٩٢ جـ١ زهر الآداب و ص٣١١ جـ٣ ضحى الإسلام و ص٤٩٢ جـ١ ديوان ابن الرومى و ص١٣٤ جـ٣ ديوان ابن الرومى .



«الفصل الخامس»

«رثاء الدول والمدن في العصر العباسي الأول»



«رثاء الدول والمدن»

رثاء الدول :

يعد رثاء الدول الزائلة فى الأدب العربى من موضوعات الرثاء القديمة التى عرفها الشعر العربى منذ العصر الجاهلى، كرثاء الشاعر الجاهلى "الأسود بن يعفر" لدولة المناذرة إلا أن هذا اللون من الرثاء كان قليلاً فى الأدب العربى قبل العصر العباسى الأول حيث لم يرد إلينا من هذا اللون إلا نماذج قليلة تدل على قلة هذا اللون من الرثاء فى تلك الأعصر السابقة، فلما زالت الدولة الأموية وسقطت من التاريخ وحكم العباسيون وقامت دولتهم نمى هذا اللون وازدهر إلى حدٍ ما عما كان عليه قبل ذلك وكانت الدولة الأموية موضوعاً من موضوعات الرثاء للدول الزائلة فى العصر العباسى الأول حيث بكاها بعض الشعراء فى العصر العباسى وأعلنوا عن حزنهم وألمهم لزوالها نادبين إياها مؤبنين خلفاءها فى شعر رثائى حزين فيه البكاء والعويل والحسرة والأنين على الدولة العربية التى سقطت وسقط معها خلفاؤها .

ومن الشعراء الذين بكوا على الدولة الأموية ورثوها رثاء حاراً فى شعر صادق العاطفة الشاعر "أبو عدى عبد الله بن عمر العبلى" - أحد الشعراء المخضرمين الذين أدركوا العصرين : الأموى والعباسى - وأخذ يرسل الدمع عليها مدراراً معلناً حزنه وأسفه لما أصاب الدولة الأموية من سقوط وزوال من على خريطة التاريخ، ومن قوله فى رثائها قصيدته السينية التى استهلها بقوله :

تقول أمامة لما رأت ... نشوزى عن المضجع الأنفس
وقلة نومى على مضجعى ... لدى هجعة الأعين النعس
أبى ! ماعراك ؟ فقلت الهموم ... منعن أباك فلاتبلسى

ثم مضى يرثى الدولة الأموية رثاء حاراً كله لوعة وحسرة على ماأصابها . حتى آخر القصيدة [١] .

ويحكى صاحب كتاب الأغانى : أن "عبد الله والحسن ابنى الحسين (الإمامين العلويين) قصداً أبا عدى الشاعر واستنشداه هذه القصيدة فأنشدها فلما أتى عليها بكى "محمد بن عبد الله بن حسن فقال له عمه الحسن بن حسن : أتبكى على بنى أمية وأنت تريد بنى العباس ماتريد ؟ فقال : والله ياعم لئن كنا نقمنا على بنى أمية مانقمنا فما بنوا العباسى إلا أقل خوفاً لله منهم وإن الحجة على بنى العباسى لأوجب منها عليهم ولقد كانت للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبى جعفر - المنصور - ثم أعطوا أبا عدى مالاً كثيراً وانصرفوا" [٢] .

وللشاعر قصيدة أخرى رائعة فى رثاء الدولة الأموية أخذ فيها يبكى الدولة وينعى إلى الدنيا زوالها مشيداً بها وبخلفائها الأمويين إشادة عظيمة مؤبناً إياهم تأبيناً حاراً قوياً رائعاً وكله ألم وحسرة على ملكهم الزائل ودولتهم التى سقطت ومما جاء فيها قوله :

فبنوا أمية خير من وطىء الثرى ... شـرفاً وأفضل ساسة أمراؤها

ومن أهم الشعراء الذين رثوا الدولة الأموية الزائلة وبكوها بكاء حاراً وأذرفوا الدمع عليها أنهاراً الشاعر المخضرم أبو العباسى الأعمى السائب بن فروخ - أحد الشعراء الذين أدركوا الدولتين : الأموية والعباسية - وكان ميالاً بطبعه وهواه إلى الأمويين وكثيراً مامدحهم فى حياتهم وأشاد بدولتهم - ومما قاله فى رثاء الدولة الأموية الزائلة : [٣]

---

(١) ص١٠٥ جـ١٠ الأغانى .
(٢) نفس المصدر .
(٣) ص١٧٥٦ تجريد الأغانى ، القسم الثانى .

ليت شعرى أفاح رائحة المسـ ـك وماإن إخال بالخيف أنسى (١)
حين غابت بنو أمية عنه والبهاليل من بنى شمس
خطباء على المنابر فر سان عليها وقالةً غير خرس
لايعابون صامتين وإن قا لوا أصابوا ولم يقولوا بلبس
بحلوم إذا الحلوم استخفت ووجوه مثل الدنانير ملس

فالشاعر يرثى الدولة الأموية الزائلة ويبكى بكاء دامعاً على خلفائها ويؤبنهم تأبيناً رائعاً معدداً بعض صفاتهم وفضائلهم فهم البهاليل من بنى شمس وهم خطباء بلغاء وفرسان فصحاء ليس فيهم عيب إن صمتوا وذووا عقول راجحه ووجوه منيرة .

ومما قاله فى رثاء الدولة الأموية قصيدته الرائعة التى قال فيها : (٢)

آمت نساء بنى أمية منهم وبناتهم بمضيعة أيتام
نامت جدودهم وأسقط نجمهم والنجم يسقط والجدود تنام
خلت المنابر والأسرة منهم فعليهم حتى الممات سلام

هذا وللشاعر أشعار كثيرة فى رثاء الدولة الأموية الزائلة وكلها دموع عليها وحسرات وزفرات لسقوطها وتفيض باللوعة والأنين والمشاعر الجياشة والعاطفة الحزينة الصادقة الملتهبة التى تدل على حب الشاعر ووفائه للدولة الزائلة وخلفائها الذين أسترهم التاريخ وحجبهم إلى الأبد وراء أحجار وأستار .

ومن رثاء الدول الزائلة فى الشعر العباسى قصيدة البحترى التى رثى فيها دولة الفرس - السينية المشهورة - حيث أخذ يرثى فيها دولة الفرس ويبكى مجدهم الضائع وحضارتهم المندثرة، ومن

(١) الخنيف : ماانحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء .
(٢) ص١٧٥٧ تجريد الأغانى القسم الثانى .

قوله فيها يرثى دولة الفرس بعد أن صدرها بشكواه من الدهر :

حضرت رحلى الهموم فوجهـ ـت إلى أبيض المدائن عنسى [١]

أتسلى عن الحظوظ وآسى لمحل من "آل ساسان" درس

أذكر تنيهم الخطوب التوالى ولقد تذكر الخطوب وتنسى [٢]

إلى أن قال :

ومساع لولا المحاباة منى لم تطقها مسعاة عنس وعبس [٣]

نقل الدهر عهدهن عن الجد دة حتى رجعن أنضاء لبس [٤]

إلى أن قال :

فكأنى أرى المراتب والقو م إذا مابلغت آخر حس

وكأن الوفود ضاحين حسرى من وقوف خلف الزحام وخنس

حتى آخر القصيدة :

فالبحترى يرثى دولة الفرس الزائلة ويبكي عليها بكاء حاراً مشيداً بمجدهم الداثر وحضارتهم التى أصبحت أطلالاً، ويعلن خلال الأبيات عن حزنه وألمه وأسفه لما حل بهذه الدولة العظيمة التى تشاركه الهموم والمصائب .

وبكاء البحترى لدولة الفرس لاينم عن مذهب شعوبى عنده بل إن البحترى عربى أصيل فى عروبته سواء كان ذلك من جهة أبيه أو أمه فأبوه عربى قحطانى وأمه عربية عدنانية، فهو - وكما صرح هو نصه فى القصيدة ذاتها - يرثى الدولة الفارسية ويبكى أهلها وفاء لما قدمه الفرس لأهله من مساعدة فى حربهم ضد حبيش إرياط الذى فتح اليمن قديماً ثم خلفه أبرهة وقام سيف بن ذى يزن بطرد الأحباش بمعونة الفرس من وطنه وتحرير بلاده منهم .

---

(١) ص١١٥٤ جـ٢ ديوان البحترى .

(٢)

(٣)

(٤)

فالدولة الأموية والدولة الفارسية الزائلة كانتا موضوعاً مهماً لشعر رثاء الدول الزائلة فى العصر العباسى الأول حيث لم يتضمن رثاء الدول فى الشعر العباسى فى العصر الأول غير هاتين الدولتين الزائلتين، وأنا لاأتفق مع الدكتور شوقى ضيف(١) أو غيره(٢) من الباحثين والدارسين الذين جعلوا رثاء البرامكة "من رثاء الدول الزائلة، وكيف يكون ذلك كذلك ولم يكن للبرامكة دولة باسمهم تسمى "دولة البرامكة" فالدولة كانت دولة عباسية وخلفاؤها العباسيون وماالبرامكة إلا بعض عمالها ولم تزل الدولة بزوالهم بل بقيت بعد فنائهم مدة طويلة، ولايعد فناء شخصى أو أشخاص فناء للدولة وزوالاً لها، فرثاء البرامكة رثاء سياسى شخصى يدور حول رثاء شخص أو أشخاص ذوى منصب سياسى فى نظام حكم الدولة ليس إلا ولايعد من رثاء الدول الزائلة .

وهكذا عرف الشعر العباسى فن رثاء الدول الزائلة وأجاد فيه إجادة عظيمة وإن لم يبلغ مبلغ رثاء الدول والممالك الزائلة فى العصر الأندلسى حيث فاق الأندلسيون العباسيين فى هذا اللون من الرثاء كماً وكيفاً، فشعر الأندلسيين يزخر بالكثير من القصائد التى تتضن رثاء الدول والممالك الزائلة فضلاً عن أن هذا الرثاء الأندلسى أكثر روعة وأشجى حزناً وأصدق عاطفة وأحر مشاعر من رثاء العباسيين للدول الزائلة، وهذا أمر طبيعى فقد زالت الدول والممالك فى بلاد الأندلس على يد المسيحيين الأسبان وأفنوا معالم الإسلام والمسلمين منها وأصبحت دولاً مسيحية صليبية بعد أن كانت دولاً وممالك إسلامية يرفع من فوق مآذنها نداء الإسلام وشعار المسلمين أما الدولة الأموية فكانت دولة إسلامية تلتها دولة إسلامية فى ربوعها

(١) ص٤١ الرثاء - فنون الأدب العربى .
(٢) ص١٨٢ جـ٥ نهاية الأرب .

بعد زوال الدولة الأولى والدولة الفارسية حلت محلها الدولة الإسلامية العباسية. فالفرق واضح ظاهر والباعث مختلف بين هذا وذاك .

رثـاء المـدن :

يعد رثاء المدن من موضوعات الرثاء الجديدة المبتكرة التى استجدت فى العصر العباسى الأول وأصبح رثاء المدن منحى جديداً فى شعر الرثاء اتجه إليه شعراء العصر بفطرتهم وخيالهم وأضحى إطاراً جديداً تحرك فيه الشعراء لأسباب تتعلق بالنقلة الحضارية فى العصر العباسى الأول حيث تعلق الشعراء بمدنهم وارتبطوا بها ارتباطاً وثيقاً "فإن المدينة كانت فى العصر العباسى قد صارت تمثل كياناً له معنى ووجود فى نفوس أهلها وإن أهلها قد صاروا تربطهم بها روابط كثيرة مادية ومعنوية وقد تولد فى نفوسهم نتيجة لذلك شعور إنسانى نبيل إزاء المدينة عبروا عنه فى صدق وحرارة عندما رأوا الخراب والدمار يحل بها كأنهم فقدوا بها عزيزاً لديهم"(١).

لهذا ظهر فى العصر العباسى الأول إطار مبتكر للرثاء هو رثاء المدن حيث كان إطاراً مبتكراً لم يكن له أصول فى الأدب العربى قبل العصر العباسى، فلم يعرف شعراء العصر الجاهلى هذا الإطار من الرثاء كما لايعرفه الشعراء الإسلاميون والأمويون كذلك، ولعل ذلك يرجع إلى عدم إلحاق الخراب والدمار بالمدن الإسلامية فى هذه العصور السابقة مثلما حدث لها فى العصر العباسى الأول، فضلاً عن أن علاقة العربى بمدينته فى العصور السابقة لم تتوثق بالشكل الذى كان عليه الحال فى العصر العباسى

---

(١) ص٣٦٤ فى الشعر العباسى الرؤية والفن . د / عز الدين إسماعيل . طبع : دار المعارف عام ١٩٨٠ م .

حيث توثقت العلاقة توثقاً شديداً بين الإنسان والمدن وارتبط بها ارتباطاً تاماً وثيقاً .

وكانت أول مدينة رثاها الشعراء هى مدينة "بغداد" حيث كانت أول مدينة عربية أصابها الدمار والخراب وذلك فى الصراع الذى حدث بين الخليفة المأمون وأخيه الأمين، وفيه حاصرت جيوش المأمون المدينة "ونزل زهير بن المسيب الضبى قصر رقة كلوا ذى ونصب المجانيق[١] والعرادات[٢] واحتفر الخنادق وجعل يخرج فى الأيام عند اشتغال الجند بحرب طاهر فيرمى بالعرادات من أقبل وأدبر ويعشر[٣] أموال التجار ويجبى السفن ويلغ من الناس كل مبلغ وبلغ أمره طاهراً وأتاه الناس فشكوا إليه مانزل بهم من زهير بن المسيب وبلغ ذلك هرثمة فأمده بالجند ونزل هرثمة نهر بين وجعل عليه حائطاً وخندقاً وأعد المجانيق والعرادات وأنزل عبيد الله بن الوضاح الشماسية ونزل طاهر البستان بباب الأنبار . فذكر عن الحسين الخليع أنه قال : لما تولى طاهر البستان بباب الأنبار دخل محمداً أمر عظيم من دخوله بغداد وتفرق ماكان فى يده من الأموال وضاق ذرعاً وتحرق صدراً فأمر ببيع كل مافى الخزائن من الأمتعة وضرب آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم وحملها إليه لأصحابه وفى نفقاته وأمر حينئذ برمى الحربية بالنفط والنيران والمجانيق والعرادات يقتل بها المقبل والمدبر .. ولما اشتدت شوكة طاهر على محمد وهزمت عساكره وتفرق قواه كان فيمن استأمن إلى طاهر سعيد بن مالك بن قادم فلحق به فولاه ناحية البغيين والأسواق وأمره بحفر الخنادق ونباء الحيطان فى كل ماغلب عليه من الدور والدروب

(١) المجانيق : آلة ترمى بها الحجارة (معربة) .

(٢) العرادات : جمع العرادة وهى أصغر من الآلة السابقة .

(٣) يعشر : يأخذ منهم العشر .

وأمده بالنفقات والفعلة والسلاح وأمر الحربية بلزومه على النوائب ووكل بطريق دار الرقيق وباب الشام واحداً بعد واحد وأمر بمثل الذى أمر به سعيد بن مالك وكثر الخراب والهدم حتى درست محاسن بغداد"(١) .

وهكذا أصبحت "بغداد" هدفاً للتدمير والدمار من كلا الطرفين المتحاربين حتى أصبحت خراباً بعد عمران وعم الدمار والهدم كل مافيها من البنيان والإنسان على السواء حتى أوحشت بغداد ودرست معالمها وفنيت محاسنها .

فانطلق شعراء العصر يرثونها ويبكون عليها ويذرفون الدمع أنهاراً لما أصاب مدينتهم التى تحولت خراباً وعمتها الوحشة وهى التى طالما نعمت بالأمن والأمان ونعم فيها أهلوها واستظلوا بظلها، وراح كثير من شعراء العصر يرثيها ويندبها ويتفجع عليها ويتوجع لما أصابها وماحرق من قصورها وديارها وأريق من دماء أهلها الآمنين .

وفى رثائها يقول "عمرو بن عبد الملك العترى الوارق" :(٢)

من ذا أصابك يابغداد بالعين	ألم تكونى زماناً قرة العين
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم	وكان قربهم زيناً من الزين
صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا	ماذا لقيت بهم من لوعة البين
استودع الله قوماً ماذكرتهم	إلا تحدر ماء العين من عينى
كانوا ففرقهم دهر وصدعهم	والدهر يصدع مابين الفريقين

---

(١) ص٤٤٥ - ٤٤٧ جـ٨ تاريخ الطبرى . تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الثالثة ، دار المعارف .

(٢) ص٤٤٧ جـ٨ نفس المصدر .

يرثى الشاعر مدينته "بغداد" ويبكى عليها بكاءً شديداً وكله حزن وحسرة على ماأصابها وكله حب صادق ومشاعر جياشة لم ينته واصفاً المصيبة التى حلت بالمدينة وصفاً ممتزجاً بالحزن والأسى مصوراً عظم المصيبة وفداحتها، ويوضح الشاعر هذا الخراب الذى حل ببغداد وهذا الفناء الذى لحق بأهلها وهى التى كانت تزخر بالأمن وتفيض بالبهجة بل كانت قرة العين يزينها مافيها من ساكنيها، ثم يتحسر الشاعر ويبكى على بغداد وأهلها وتلدغه لوعة الأسى فتسيل الدمع من عينيه أنهاراً عليهم .

فالشاعر يرثى مدينته وأهلها بعاطفة صادقة تفيض لوعة وحزناً ويتفجر منها مشاعر إنسانية نبيلة وأحاسيس ذاتية جياشة.
وللشاعر مراث أخرى كثيرة أخذ يبكى فيها مدينة "بغداد" ويندبها ندباً حاراً مصوراً ماأصابها من خراب ودمار معبراً عن مشاعره الجياشة وعاطفته الحزينة وموضحاً حنينه وحبه لبغداد [١].

وممن بكى "بغداد" ورثاها الشاعر العباسى "الحسين الخليع" حيث يقول :

أتسرع الرجلة إغذاذا	عن جانبى بغداد أم ماذا [٢]
ألم تر الفتنة قد ألفت	إلى أولى الفتنة شذاذا
وانتفضت بغداد عمرانها	عن رأى لاذاك ولاهذا
هدماً وحرقاً قد أبيد أهلها	عقوبة لاذت بمن لاذا
ماأحسن الحالات إن لم تعد	بغداد فى القلة بغداداً

(١) ينظر تاريخ الطبرى جـ٨ ص٤٥٩ و ص٤٦٠ و ص٤٧٠ و ص٥٠٠ و ص٥٠١ .
(٢) ص٤٤٧ جـ٨ المصدر السابق .

فالشاعر فى رثائه لبغداد يصور ماحدث لها على أيدى الجانبين المتحاربين من دمار وخراب وهدم وحرق وإبادة لأهلها حيث أخذ كل منهما يدمر ماأمامه من منازل ويقتل كل من أبى إجابته والدخول فى طاعته حتى أوحشت بغداد وبقيت خراباً .

وفى رثاء بغداد يقول بعض فتيانها :(١)

بكيت دماً على بغداد لما ... فقدت غضارة العيش الأنيق
تبدّ لنا هموماً من سرور ... ومن سعةٍ تبدلنا بضيق
أصابتها من الحساد عين ... فأفنت أهلها بالمنجنيق
فقومٌ أحرقوا بالنار قسرا ... ونائحة تنوح على غريق
وصائحةٌ تنادى واصباحا ... وباكية لفقدان الشفيق
وحوراء المدامع ذات دل ... مضمنة المجاسد بالخلوق
تفر من الحريق إلى انتهاب ... ووالدها يفر إلى الحريق
وسالبة الغزالة مقلتيها ... مضاحكها كلألأة البروق
حيارى كالهدايا مفكرات ... عليهن القلائد فى الحلوق
ينادين الشفيق ولاشفيق ... وقد فقد الشقيق من الشقيق
وقوم أخرجوا من ظل دينا ... متاعهم يباع بكل سوق
ومغترب قريب الدار ملقى ... بلا رأسٍ بقارعة الطريق
توسط من قتالهم جميعاً ... فما يدرون من أى الفريق
فلا ولدٌ يقيم على أبيه ... وقد هرب الصديق بلا صديق
ومهما أنسى من شىءٍ تولى ... فإنى ذاكرٌ دار الرقيق

الأبيات مكتظة بنيران الحنين الملتهب وتفيض بالأحزان والآلام وتغرق فى بحر من دموع الشاعر وليس البحر بحراً من مياه بل هو بحر من دماء سكبتها عيون الشاعر على ماأصاب بغداد وأحل بها

(١) ص٤٥٧ جـ٨ تاريخ الطبرى .

من خراب ودمار، وقد استطاع الشاعر أن يصور مأساة بغداد تصويراً رائعاً مفصلاً القول معدداً للمشاهد واصفاً كل ماحدث لها ولأهلها مبرزاً هذه المآسى والفواجع التى نكب بها أهل المدينة إبرازاً دقيقاً مفصلاً رائعاً، كله لقطات تسجيلية تصور حالة الناس وسط هذا الجحيم الذى صب على مدينتهم وعاشوا تحت نيرانها : فقوم قد أفنتهم المنجتيق وآخرون التهمتهم النيران وهم محاصرون وآخرون قد ماتوا غرقى وتنوح عليهم النائحات، ومنهم التى تندب حظها العاثر ومنهم الباكية على زوجها الفقيد ومن بينهم الجميلة التى أخذت تفر من النيران إلى الانتهاب والسلب ومنهم الأب الذى فقد لبه وصوابه فأخذ يفر من النيران إلى النيران ومنهم الذى نهب ماله ومنهم الملقى على قارعة الطريق وقد قطعت رأسه وفصلت عن جسده ومنهم الحيارى الذين لايدرون ماذا يصنعون وهكذا أخذ يصور الشاعر هذه المآسى تصويراً دقيقاً بارعاً واصفاً حالة الضياع التى أصابت أهل المدينة وكأنهم فى هول يوم القيامة "يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه" ولايعرف الخليل خليله ولاالصديق صديقه "فلكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه" .

فأى براعة وأى روعة وأى لوعة تلك التى للأبيات ؟ إنها البراعة فى التصوير والروعة فى الوصف واللوعة فى المعانى والصدق فى العاطفة .

وهذه الأبيات تتفوق على ماسبقها من أبيات فى رثاء "بغداد" سواء مارثى به العترى أو مارثى به الخليع فهى تفوقها وصفاً وتصويراً دقيقاً بالغ الدقة عظيم الروعة وإن اتفق الثلاثة فى مشاعرهم الصادقة الجياشة وعاطفتهم الحزينة الصادقة وحبهم العظيم لبغداد وأهلها .

ولعل أروع قصيدة فى رثاء بغداد بل أروع وأهم قصيدة فى رثاء مدينة من المدن قصيدة الشاعر العباسى أبى يعقوب إسحق

الخزيمى" التى رثى فيها بغداد ويكى عليها وهى قصيدة طويلة تبلغ خمسة وثلاثين بيتاً بعد المائة صور الشاعر فى مستهلها روعة بغداد وعظمتها وماكان يعيش فيه أهلها من سعة وسرور وغبطة قبل مصيبتها ونكبتها ثم أخذ يصور بعد ذلك مصيبتها ونكباتها وماأحل بها وبأهلها حتى أصبحت خراباً تسكنها الوحشة ويقيم فيها البؤس والرهبة، فقال الخزيمى فى مستهسل قصيدته :[١]

قــالوا : ولم يلعب الزمان ببغـ	ـــداد وتعثـــر بهـــا عواثرهـــا
إذ هى مثـل العـروس باطنهـا	مشـــوق للفتـــى وظاهرهـــا
جنـــة خلـــد ودار مغبطـــة	قـــل مـــن النائبـــات واترهـــا
درت خلوف الدنيـا لساكنهـا	وقـــل معســـورهـا وعاسرهـــا
وانفرجـت بالنعيـم وانتجعـت	فيهـــا بلذاتهـــا حواضرهـــا
فالقوم منها فى روضـة أنـف	أشـــرق غب القطـــار زاهرهـــا
من غره العيـش فى بلهتيـه	لو أن دنيـــا يـــدوم عامـــرها
دار ملـوك رسـت قواعدهـا	فيهـــا وقـــرت بهـــا منابرهـــا
أهل العلا والنـدى وأنديـة الـ	ـفخـــر إذا عـــددت مفاخـــرها

أخذ الخزيمى يصور بغداد قبل النكبة ثم تعرض للفتنة التى أحدثت الشقاق ونقض الأمين البيعة لأخيه المأمون ثم تلاها بأبيات تصور صورة بغداد بعد نكبتها متخذاً أسلوب الموازنة سبيلاً لتصوير هذه النكبة حيث أخذ يوازن بين صورة بغداد قبل النكبة وصورتها بعدها فى قوله :

ياهـل رأيـت الجنـان زاهـرة	يـروق عيـن البصيـر زاهرها
وهل رأيـت القصـور شارعـة	تكـنُ مثـل الدمـى مقاصرهـا
وهل رأيت القرى التى غرس ال	أمـلاك مخضـرة دساكرهـا

---

(١) ص٤٤٨ - ٤٥٤ جـ٨ تاريخ الطبرى .

محفوفة بالكروم والنخيل والر يحـان مايستغـل طائرهـا
فإنها أصبحـت خلايـا من الـ إنسان قـد أدميـت محاجرهـا
قفراً خلاءاً تعـوى الكلاب بهـا ينكسر منها الرسـوم زائرهـا
وأصبـح البـؤس مايفارقهـا إلفـاً لهـا والسـرور هاجرهـا

إلى أن قال :
فأيـن حراسهـا وحارسهـا وأيـن مجبورهـا وجابرهـا
وأيـن خصيانهـا وحشوتهـا وأيـن سكانهـا وعامرهـا
أين الظباء الأبكار فى روضة الـ ـملك تهـادى بهـا غرائرهـا
أيـن غضارتهـا ولذتهـا وأيـن محبورهـا وحابرهـا
فأيـن رقاصهـا وزامرهـا يجبـن حيـث انتهـت حناجرها
كأنمـا أصبحـت بساحتهـم عـادٌ ومسهـم صـراصرهـا

فالشاعر يتخذ من الموازنة أسلوباً له فى تصوير المأساة التى حدثت لبغداد حيث أخذ يوازن بين حالتها قبل المصيبة وحالتها بعد المصيبة ليوضح عظم المصيبة ويبين حجم الفجيعة والمأساة وهو بذلك يفجر المأساة من خلال مقارنته الأبيض بالأسود والموجب بالسالب "كما يقول الدكتور عز الدين إسماعيل" (١) .

فبغداد أصبحت خراباً قفراء موحشة بعد أن كانت عامرة زاهية بسكانها وحدائقها وقصورها، وسكنتها الكلاب الضالة بعد أهليها من بنى الإنسان وسكنها البؤس بعد أن كان السرور لها سكناً، وذهب الحارس والحراس والمجبور والجابر والأهل والسكان وذهب كل جميل كان يسكنها كأنما أسقطت عليهم صاعقة من السماء مثل صاعقة عاد وثمود .

(١) ص٣٦٩ فى الشعر العباسى الرؤية والفن .

ثم يفصح الشاعر عما بداخله فيذكر أن ماحدث لبغداد وأهلها إنما هو انتقام من الله تعالى بسبب ظلمهم وفسادهم فى الأرض وأن الله تعالى قد عاقبهم بعد أن بارزوه بالمعاصى والكبائر وبعد أن أمهلهم كثيراً :

فيقول فى ذلك :

يابؤس بغداد دار مملكة	دارت على أهلها دوائرها
أمهلها الله ثم عاقبها	لما أحاطت بها كبائرها
بالخسف والقذف والحريق وبالـ	ـحرب التى أصبحت تساورها
كم رأينا من المعاصى ببغدا	د فهل ذو الجلال غافرها
حلت ببغداد وهى آمنة	داهية لم تكن تحاذرها
طالعها السوء من مطالعه	وأدركت أهلها جرائرها
رق بها الدين واستخف بذى الـ	ـفضل وعز النساك فاجرها
وخطم العبد أنف سيده	بالرغم واستبعدت جرائرها
وصار رب الجيران فاسقهم	وابتز أمر الدروب ذاعرها

ثم أخذ الشاعر يصور حالة بغداد وحصارها وماحل بأهلها من خراب ودمار أهلك الحرث والنسل واصفاً المصيبة وصفاً ممتزجاً بالحزن والأسى مصوراً عظم المصيبة وهول الفجيعة معدداً للكثير من الصور البشعة والمآسى المؤلمة التى أصبحت تعم المدينة على اختلاف عناصرها وطبقات مجتمعها وعلى اختلاف الأعمار والأجناس وصور مايعيش فيه الناس من ذعر وفزع، فيقول فى ذلك :

من ير بغداد والجنود بها	قد ربقت حولها عساكرها
كل طحون شهباء باسلة	تسقط أحبالها زماجرها
تلقى بغى الردى أو انسها	يرهقها للقاء طاهرها
والشيخ يعدو حزماً كتائبه	يقدم أعجازها يعاورها
كتائب الموت تحت ألوية	أبرح منصورها وناصرها
فتلك بغداد مايبنى من الذ	لة فى دورها عصافرها

محفوفــة بالــردى منطقـــة   بالصغـر محصـورة جبابرهـــا

إلى أن قال :

بل هل رأيت السيوف مصلتــة   أشهرهــا فى الأسواق شاهرهــا
والخيـــل تستــن فى أزقتهــا   بالتـرك مسنونــة خناجرهـــا
والنفـــط والنــار فى طرائفهــا   وهابيـــاً للدخـــان عامرهـــا
والنهــب تعدو به الرجال وقــد   أبــدت خـلا خيلهـا حرائرهــا
كـــل رقـــود الضحى مخبـأة   لــم تبــد فى أهلها محاجرها
بيضـــة خــدر مكنونــة بـرزت   للنـــاس منشـــورة غدائرهـــا
تعثـــر فــى ثوبهـــا وتعجلهـــا   كبــة خيــل ريعــت حوافرها
تســـأل أيـــن الطريـــق والهـــة   والنـــار مـــن خلفهـــا تبادرهـا
لم تجتل الشمس حسن بهجتها   حتـــى اجتلتها حـرب تباشرهــا
ياهـــل رأيـت الثكلـى مولولة   فى الطرق تسعى والجهد باهرها
فـــى إثـــر نعش عليه واحدها   فـــى صـــدره طعنـــة يساورهـــا
وقد رأيت الفتيان فى عرصة الـ   ـمعرك معفـــورة مناخرهـــا
كـــل فتـــى مانـــع حقيقتـــه   تشقــى به فى الوغى مساعرهـا
باتــت عليـــه الكـــلاب نهشـــه   مخضوبـــة مـــن دم أظافرهـــا
أمـــا رأيــت الخيـــول جائلـة   بالقـــوم منكوبـــة دوائرهـــا
تعثـــر بالأوجه الحســان من الـ   قتلـــى وغلـــت دماً أشاعرهـــا
يطـــأن أكبـــاد فتيـــة نجـــد   يفلـــق هامـا تهـــم حوافرهـــا
أمـــا رأيت النســاء تحت المجا   نيـــق تعـــادى شعثـــاً ضفائرها
عقائـــل القـــوم والعجائـــز والـ   ـعنس لـــم تختبـــر معاصرهـــا
يحملن قوتاً من الطحين على الـ   أكتـــاف معصوبـــة مهاجرهـــا
وذات عيـــش ضنـــك ومقعســـة   تشدخهـــا صخـــرة تعاورهـــا
تســـأل عن أهلهـــا وقـــد سلبـــت   وابتـــز عـــن رأسهـــا غفائرهـــا

يصور الشاعر فى هذه الأبيات ماأصاب بغداد من حصار ودمار وفتك وهدم وقتل وتشريد ومصائب لسكانها وأخذ يعدد

كثيراً من المآسى والفواجع التى عمت جميع أهل المدينة فهم مابين قتيل وجريح ينزف الدماء وبين من يعيش فى رعب وفزع وهلع وندب وبكاء على الهلكى والقتلى، وقد عم الهول والفزع جميع سكان المدينة حتى هؤلاء الحرائر المكنونة قد خرجن من بيوتهن ناشرات شعورهن من هول الفجيعة التى أحاطت بالمدينة، ويمضى الخريمى فى أبياته يصور المأساة التى أحاطت بالمدينة وأهلها تصويراً رائعاً مفصلاً تفصيلاً دقيقاً واستطاع أن ينقل إلينا صورة المدينة وماأصابها من خراب ودمار وماحل بأهلها من كوارث ونكبات فى تصوير رائع ووصف بارع دقيق معدداً للكثير من هذه الصور البشعة التى حدثت فى بغداد أيام محنتها، وقد مضى الخريمى فى قصيدته يرثى المدينة ويبكى أهلها بكاءً حاراً ينم عن صدق العاطفة ونبل الشعور الإنسانى وبدافع شخصى محض دعاه إليه حزنه العميق على ماأصاب بغداد وأهلها وحبه العظيم لمدينته وإخوانه وهو القائل فى نهاية القصيدة بعد أن تمنى عودة المدينة المنكوبة إلى سابق عهدها :

لاطمعــاً قلتهــا ولابطــراً	لكـل نفـس هــوى يؤامرهــا
سيرهــا اللــه بالنصيحــة والــ	خشية فاستدجـت مرائرهــا
جاءتـك تحكى لك الأمور كمــا	ينشــر بــز التجــار ناشرهــا
حملتهـــا صاحبــاً أخـا ثقــة	يظــل عجبــاً بهــا يحاصرهــا

مما يدل على أن الشاعر لم يدفع إلى رثاء المدينة من أحد أو لأى غرض أو كسب مادى أو معنوى، بل انطلق فى هذا الرثاء بدافع ذاتى محض نتيجة للعلاقات الوجدانية بينه وبين المدينة. ولأن علاقة الخريمى ببغداد - كعلاقة أى شاعر بمدينته الكبيرة - كانت تتجاذبها مشاعر الحب والنقمة معاً فإن هذه المشاعر قد برزت بوضوح فى ثنايا المرثية. لكنه مهما كانت نقمته عليها فإنه آخر الأمر - وكما هو شأن الشاعر مع مدينته - لايملك إلا أن يرثى لما

حل بها من خراب وبوار . وقد كان هذا المنحى فى الرثاء جديداً كل الجدة على مستوى الشعور الإنسانى والتعبير الفنى على السواء"(١) .

ومن أهم المدن التى رثاها شعراء العصر العباسى الأول مدينة "البصرة" حيث أحلت بها وبأهلها نكبة فادحة على أيدى الزنج وقائدهم "على بن محمد" الذى ادعى أنه ينمتى إلى "زيد بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب" والذى قام بثورة عنيفة ضد الخلافة العباسية دمر خلالها الأخضر واليابس وأقلق الخلافة العباسية وجعلها تعيش فى فزع ورعب وحروب عنيفة طوال أربع عشرة سنة وبضعة أشهر ظلت فيها السيوف متشابكة منذ عام ٢٥٦ إلى عام ٢٧٩ من الهجرة، وقد استطاع هذا الزنجى الثائر أن يجمع حوله الآلف من الزنج بزعم أنه قام بثورته لتخليصهم من ربقة العبودية والذل وسرعان ماتجمعوا حوله وخاض معهم وبهم حروباً قاسية استباح فيها كل محرم وشنيع حيث استباح استرقاق الأحرار حتى ولو كانوا من البيت العلوى مما يؤكد كذب دعوته وكذب نسبه إذ انه لو كان علوياً كما زعم لما استباح استرقاق العلويات، ولو كان هدفه تخليص العبيد من الذل والعبودية مااستباح استرقاق الأحرار .

المهم أن صاحب الزنج هذا قد استطاع أن يكون جيشاً من الزنج أخذ به يغير على المدن العباسية وينهب الأموال والدواب وأحكم حصاراته على مدينة البصرة بعد إغاراته الكثيرة التى شنها عليها حتى جاء عام ٢٥٨ هـ فأوقع بالبصرة وأهلها وقعة عظيمة خرب فيها المدينة ودمر بناءاتها وقتل الكثير من أهلها، وأعمل فيها السلب والنهب والقتل وإشعال النار"(٢) .

---

(١) ص٣٧٣ - ٣٧٤ فى الشعر العباسى الرؤية والفن .

(٢) ص٤٨١ جـ٩ تاريخ الطبرى .

ويقدر عدد القتلى فى هذه المعركة بنحو ثلثمائة ألف قتيل بين ذكر وأنثى وأحرق مبانيها ومسجدها الجامع واختفى الناس ذعراً فى الدور والآبار وكانوا يظهرون بالليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها وكذلك الفئران والسنانير وأفنوها حتى لم يقدروا منها على شيىء وكان إذا مات نهم الواحد أكلوه(١)" .

واستغاث أهل "البصرة" بالخلافة والمسلمين جميعاً فى أرجاء الدولة وبكى الشعراء المدينة ورثوها رثاءً عنيفاً ثائراً مصورين مآسى المدينة واصفين خرابها داعين إلى الهمة والنجدة لإنقاذ المدينة المنكوبة، وأثارت هذه النكبة المروعة قلوب الشعراء جميعاً فراحوا يبكون ويذرفون الدمع أنهاراً على مدينتهم وأهلها البائسين . وكان "ابن الرومى" فى مقدمة هؤلاء الشعراء الذين بكوا البصرة وصور مأساتها تصويراً حزيناً رائعاً حيث أثارته نكبة المدينة وهزته هزاً من الأعماق فراح يرثيها ويبكى عليها بدموع غزار فى قصيدة رائعة طويلة بلغت ستة وثمانين بيتاً، ويقول فى مستهلها :(٢)

ذاد عـــن مقلتـــى لذيــذ المنـام	شغلهـــا عنــه بالدمــوع السجام
أى نــوم من بعــد ماحل بالبصـ	ـرة مــن تلكم الهنات العظـام
أى نــوم من بعد ماانتهك الزنـ	ـبج جهــاراً محـــارم الإسلام
إن هـــذا مــن الأمــور لأمــر	كــاد أن لايقــوم فى الأوهــام
لرأينـــا مستيقظيـــن أمــوراً	حسبنـــا أن تكـون رؤيـا منـام
أقـــدم الخائـــن اللعيـــن عليها	وعلـــى اللــــه أيـــا إقـــدام
وتسمـــى بغيـــر حـــق إمامـــاً	لاهـــدى اللـــه سعيـه من إمام

---

(١) ص١١٩ جـ٤ مروج الذهب للمسعودى .

(٢) ص٢٣٧٧ - ٢٣٨٠ جـ٦ ديوان ابن الرومى، تحقيق د/ حسين نصار طبع : الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨١ م .

فقد أقلقت النكبة ابن الرومى وأوجعت قلبه وأوقعت الحسرة فى نفسه فراح يبكى على البصرة وأهلها بكاء مراً مستمراً لم تتوقف عيناه عن الدموع ولم يستطع أن يهدأ أو يركن فى منامه بعد هذه الفعلة الشنيعة التى أقدم عليها الخائن الدعى صاحب الزنج .

ثم راح الشاعر يبكى البصرة وينوح عليها نواحاً مؤثراً ويندبها ندباً حاراً مولولاً معولاً عليها مصوراً حالتها وماكانت عليه من جمال وعظمة قبل نكبتها وتخريبها فيقول :

لهف نفسى عليك أيتها البصـ ـرة لهفاً كمثل لهب الضرام
لهف نفسى عليك يامعدن الخيـ ـرات لهفاً يعضنى إبهامى
لهف نفسى عليك يافرضة البلـ ـدان لهفاً يبقى على الأعوام
لهف نفسى لجمعك المتفانى لهف نفسى لعزك المستضام

نرى ابن الرومى يتحسر على البصرة ويصف حالتها قبل أن تصاب بمصيبتها وتنكب بنكبتها فقد كانت مصدر الخيرات وكانت قبة الإسلام وكعبة العلم ومهد العلماء ومستقر العز والبهجة، كل ذلك يصفه ابن الرومى وكله أسى وحسرة على ماأصاب البصرة وأحل بأهلها من فوادح ومصائب وأهوال .

ونرى ابن الرومى يستخدم أسلوب الموازنة فى قصيدته ويعتمد عليه اعتماداً كبيراً فى تصوير المأساة ووصف المصيبة، حيث وصف البصرة قبل خرابها فى الأبيات السابقة ثم تلاها بوصف حالتها بعد خرابها وتصوير ماحل بها وبأهلها على أيدى الجناة من الزنج فى مشاهد حية متعاقبة تبرز المأساة إبرازاً واضحاً وتصور عظم المصيبة تصويراً دقيقاً، فيقول مصوراً البصرة بعد خرابها ودخول الزنج إليها وماأحدثوه فيها :

بينما أهلها بأحسن حالِ إذ رماهم عبيدهم باصطلام
دخلوها كأنهم قطع الليـ ـل إذ راح مدلهم الظلام

طلعوا بالمهندات جهراً فألقت ... حملها الحاملات قبل التمام

أى هول رأوا بهم أى هول ... حق منه تشيب رأس الغلام

إذ رموهم بنارهم من يمين ... وشمال وخلفهم وأمام

كم أغصوا من شارب بشراب ... كم أغصوا من طاعم بطعام

كم ضنين بنفسه رام منجى ... فتلقوا جبينه بالحسام؟

كم أخ قد رأى أخاه صريعاً ... ترب الخد بين صرعى كرام؟

كم أب قد رأى عزيز بنيه ... وهو يعلى بصارم صمصام؟

كم مفدى فى أهله أسلموه ... حين لم يحمه هناك حامى؟

كم رضيع هناك قد فطموه ... بشبا السيف قبل حين الفطام؟

كم فتاة بخاتم الله بكر ... فضحوها جهراً بغير اكتتام؟

كم فتاة مصونة قد سبوها ... بارزاً وجهها بغير لثام؟

صبحوهم فكابد القوم منهم ... طول يوم كأنه ألف عام

ألف ألف فى ساعة قتلوهم ... ثم ساقوا السباء كالأغنام

من رآهن فى المساق سبايا ... داميات الوجوه للأقدام

من رآهن فى المقاسم وسط الز ... نج يقسمن بينهم بالسهام

من رآهن يتخذن إماء ... بعد ملك الإماء والخدام

رب بيع هناك قد أرخصوه ... طال ماقد غلا على السوام

رب بيت هناك قد أخرجوه ... كان مأوى الضعاف والأيتام

رب قصر هناك قد دخلوه ... كان من قبل ذلك صعب المرام

رب ذى نعمة هناك ومال ... تركوه محالف الإعدام

رب قوم باتوا بأجمع شمل ... تركوا شملهم بغير نظام

عرجا صاحبى بالبصرة الزهـ ... ـراء تعريج مدنف ذى سقام

فاسألاها ولا جواب لديها ... لسؤال ومن لها بالكلام؟

أين فلك فيها وفلك إليها ... منشآت فى البحر كالأعلام؟

أين تلك القصور والدور فيها ... أين ذاك البنيان ذو الأحكام؟

بدلت تلكم القصور تلالاً ... من رماد ومن تراب ركام

يمضى ابن الرومى على هذه الشاكلة فى قصيدته مصوراً ماأصاب البصرة من فواجع وماأحل بها من كوارث، حيث عم الخراب والدمار كل شىء في المدينة من السكان والبنيان، فبينما كان أهل البصرة يعيشون فى أمن ورغد فاجأهم صاحب الزنج بجنوده وفعل بهم من الأهوال والفواجع ماتشيب له الولدان حيث أخذ يرمى المدينة بالنيران دون تمييز أو تفريق فقتل الإخوان والأبناء والآباء حتى إن الأخ كان يرى أخاه قتيلاً معفراً بالتراب والأب يرى ابنه وهو يضرب بالسيف القاطع فلايستطيع أحد أن يحرك ساكناً، بل لم يسلم الأطفال الرضع من قتل هؤلاء الهمج ولم تسلم الفتيات من القتل وانتهاك الأعراض جهاراً دون مراعاة لحرمة دين أو ضمير وأخذوا يقسموهن بينهم كأنهن سبايا وغنائم واتخذوهن لهم إماء وخداما وكن الأحرار العفيفات المحصنات المصونات .

ولم يقتصر أهل الزنج على مافعلوه بأهل المدينة من قتل وهتك عرض وسبى حتى بلغ عدد ماقتلوه نحو المليون مابين ذكر وأنثى وشيخ وطفل بل راحوا يشعلون النيران فى كل ماأمامهم من دور وقصور حتى تحولت القصور والديار إلى أكوام من التراب وأصبحت المدينة قفراً لاترى فيها إلا أطلالاً مندثرة وأشلاءً متناثرة هنا وهناك ووجوها مخضبة بالدماء والكثير من اليتامى والأرامل الباكيات، بل شمل دمارهم وخرابهم المسجد الجامع بالمدينة فلم يراعوا حرمة للدين ولالبيوت الله فى المدينة، بل شمل الدمار والفناء هؤلاء العباد الزهاد الذين كانوا يعمرون مساجد الله بالصلاة وتلاوة القرآن .

ثم أخذ ابن الرومى - بعد أن صور مأساة المدينة وبكى عليها -يستحفز همم المسلمين ويستصرخ الشعب كله لإغاثة البصرة ونجدتها واستخلاصها من أيدى الزنج، رافعاً أمام الناس راية الجهاد منادياً إياهم باسم الإسلام ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يوحدوا

صفهم ويجمعوا شملهم ويعزموا أمرهم على خلاص البصرة وإخراج الغزاة من الزنج ودحرهم عن المدينة، ومضى ابن الرومي ينادي بصوت مرتفع مستنفراً المسلمين لإنقاذ هذه المدينة المنكوبة فيقول في ذلك :

كم خذلنا من ناسكٍ ذي اجتهادِ ... وفقيه في دينه علام؟

واندامي على التخلف عنهم ... وقليل عنهم غناء ندامي

واحيائي منهم إذا ماالتقينا ... وهم عند حاكم الحكام

أي عذر لنا وأي جوابِ ... حين ندعى على رؤس الأنام

ياعبادي : أما غضبتم لوجهي ... ذي الجلال العظيم والإكرام؟

أخذلتم إخوانكم وقعدتم ... عنهم - ويحكم - قعود اللئام؟

كيف لم تعطفوا على أخواتِ ... في حبال العبيد من آل حام؟

لم تغاروا لغيرتي فتركتم ... حرماتي لمن أحل حرامي

إلى أن قال :

واحيائي من النبي إذا ما ... لامني فيهم أشد الملام

وانقطاعي إذا هم خاصموني ... وتولى النبي عنهم خصامي

مثلوا قوله لكم أيها النا ... س إذا لامكم مع اللوام:

أمتي أين كنتم إذ دعتني ... حرة من كرائم الأقوام

صرخت : "يامحمداه" فهلا ... قام فيها رعاة حق مقامي

إلى أن قال :

إنفروا أيها الكرام خفافاً ... وثقالاً إلى العبيد الطغام

أبرموا أمرهم وأنتم نيام ... سوءةً سوءةً لنوم النيام

صدقوا ظن إخوة أملوكم ... ورجوكم لنبوة الأيام

أدركوا ثأرهم فذاك لديهم ... مثل رد الأرواح في الأجسام

لم تقروا العيون منهم بنصرِ ... فأقروا عيونهم بانتقام

أنقذوا سبيهم وقل لهم ذا ... ك حفاظاً ورعية للذمام

عارهــم لازم لكــم أيهــا النا   س لأن الأديـــان كالأرحـــام
إن قعدتـم عـن اللعين فأنتـم   شركــاء اللعيــن فــى الآثام

إلى أن قال :

لاتطيلــوا المقـام عن جنة الخلـ   ـد فأنتـم فـى غير دار مقام
فاشتروا الباقيات بالعرض الأد   نـى وبيعـوا انقطاعه بالدوام

وهكذا أخذ ابن الرومى يستحفز المسلمين ويستنصرهم لأهل البصرة متخذاً من الجهاد الدينى واسم الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم والتبشير بالثواب الجزيل من الله تعالى سبلاً بنى عليه دعوته ونداءه للشعب العباسى .

وقد أثرت هذه القصيدة فى جموع طبقات الشعب حكاماً ومحكومين واستجابوا لصراخ ابن الرومى وندائه وجهزت الدولة جيشاً ضخماً تحت قيادة "الموفق" أخى الخليفة "المعتمد" وقاتل الزنج وهزمهم شر هزيمة ومازال "الموفق" يتابع حروبه ضد الزنج حتى قضى على ثورتهم وعاد برأس زعيمهم وأمنت الدولة شرهم وراح الشعراء يهنئون الموفق ويمدحونه ويشيدون به وبشجاعته إشادة بالغة كما فعل "ابن الرومى" وعبد الله بن المعتز" وغيرهما من شعراء العصر الذين مدحوه .

وهكذا برع ابن الرومى فى قصيدته قلباً وقالباً واستطاع أن يؤثر فى الشعب العباسى حتى اشتفت نفسه بالثأر من الزنج وهزيمتهم شر هزيمة بقيادة الموفق بالله العباسى، "فهذه المرثية التى قالها ابن الرومى فى مدينة البصرة كان الهدف منها صياغة المأساة صياغة شعرية فيها مايكون فى الشعر من تهويل وإثارة لحفز همة الخليفة المعتمد على النهوض لنصرة المدينة البائسة والتصدى لأولئك الثوار الخطرين .. وانطلق يصور المأساة بدافع ذاتى ولكنه أدى فى

الوقـت نفســه دوراً فعـالاً فـى حفـز الهمـم لإدراك المدينـة المستباحة"(١).

ومن المدن التى رثت فى العصر العباسي الأول مدينة "سر من رأى" حيث لحقها الخراب والدمار دون حروب أو معارك بعدما تركها الخليفة المعتضد بن الموفق واستبدل بها بغداد فضاعت أبهتها وخربت بعد أن كانت تضارع "بغداد" وهجرها الناس بعد انتقال مقر الخلافة إلى بغداد مرة أخرى فأصبحت خربة موحشة، وفيها يقول "عبد الله بن المعتز" يرثيها ويصف حالتها البائسة بعد تهدمها:(٢)

قـــد أقفـرت سر من را	فمـا الشيـــىء دوام(٣)
فالنقـض يحمـل منهـا	كأنهـــا الآجـــام(٤)
ماتت كمـا مـات فيـل	تسـل منـه العظـام

فابن المعتز يرثى مدينة "سر من رأى" ويصف حالتها البائسة حيث خلت المدينة من مظاهر الحياة وأنها أصبحت أطلالاً بالية وقد أخذ الناس يحملون أنقاضها كأنهم يحملون فروع شجر من الغابات عند احتطابهم وأن أنقاض المدينة تنتزع كما تنتزع عظام الفيل للانتفاع بها، وهكذا ماتت المدينة ولم تقم لها قائمة .

ويلاحظ على هذه الأبيات أنها تخلو من الثورة والقوة والغضب والعنف فى رثائها فشتان بين هذه الأبيات وبين رثاء "بغداد" والبصرة" فى رثائهما حيث كان الأسلوب قوياً عنيفاً صاخباً مصوراً المأساة بحدة وقـوة أما أبيات ابن المعتز فهى رثاء سهل فـى

---

(١) ص٣٧٦ فى الشعر العباسى الرؤية والفن .

(٢) ص١١٢ جـ٣ المنتخب من أدب العرب .

(٣) سر من رأى : مدينة عظيمة .

(٤) النقض : البناء المهدم . الآجام : الشجر الملتف .

أسلوبه وتصويره لم تبرز المأساة فيهـا عنيفة حادة وتخفت فيها عاطفة الشاعر خفوتاً واضحاً فلم تكن كعاطفة الشعراء الثائرة العنيفة فى رثاء بغداد والبصرة ولعل السبب هو حجم المصيبة المختلف بين هذا وتلك، فمصيبة بغداد ونكبة البصرة كانتا أقوى وأعظم وأعنف من مصيبة سر من رأى حيث عم الخراب والدمار المدينتين وشمل البنيان والإنسان فى صور بشعة رهيبة أما مصيبة "سر من رأى" فقد وقفت عند مبانيها ولم تشمل ساكنيها فكانت أخف وطأة وأقل نكبة عن سابقيتها .

هذا وقد اعتمد الشاعر اعتماداً كبيراً على التشبيه فى تصوير الدمار والخراب الذى حل بالمدينة فالشاعر فى هذا الميدان لايبارى .

كذلك رثى الشعراء "المدينة المنورة" حينما خربت وعذب أهلها على يدى "محمد بن الحسن بن جعفر بن موسى" وأخيه "على" فى صفر سنة إحدى وتسعين ومائتين، وفى رثائها يقول الفضل بن العباس العلوى :(١)

أخربت دار هجرة المصطفـى البـ	ـر فبكـى والمنبـر الميمونـا
وعلى المسجد الذى أسـه التقـ	ـوى خلاءً أضحى من العابدينا
وعلـى طيبة التـى بـارك اللـه	عليهـا بخاتـم المرسلينـا
قبح اللـه معشـراً أخربوهـا	وأطاعـوا مشـرداً ملعونـا
أخربـوهـا بـرأى أسـود عبـدٍ	آبـق لايديـن للـديـنـا
فأبـى الدهـر لاأراك لمانـا	لـوه مـن حرمـة النبى حزينا

يبكى الشاعر لما أصاب مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصور النكبة التى أصابتها فأبكت جموع المسلمين، هذه المدينة المقدسة التى تضم فى ربوعها قبر الرسول صلـى اللـه عليه وسلـم

(١) ص٣١٥ معجم الشعراء للإمام أبى عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الثانية، عام ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م.

ومسجده الذى أسسه على التقوى ومنبره ومثوى جسده الطاهر بل كانت دار هجرته ومكان نزول الوحى على الرسول صلى الله عليه وسلم. ثم أخذ الشاعر فى سب ولعن هؤلاء الجناة الذين خربوا المدينة المنورة بزعامة عبدِ آبقٍ لادين له .

كذلك كانت "مكة المكرمة" من بين المدن التى رثت فى العصر العباسى الأول حيث تعرضت للحرق والنهب فى خلافة "المستعين" حينما تغلب إسماعيل بن يوسف من أولاد "على بن أبى طالب" على مكة ونهب منزل عاملها ومنازل أصحاب السلطان وأخذ من الناس نحو مائتى ألف دينار وأخذ كسوة الكعبة ومافى الكعبة وخزائنها من الأموال ونهبت مكة وأحرق بعضها .. وجاء القرامطة فأفسدوا فى البلاد وزحفوا على مكة واستولوا عليها وارتكبوا أشنع الفظائع ونهبوا الحجاج ومنعوهم من زيارة البيت الحرام وفى سنة ٣١٢ نكلوا بالحجاج أعظم تنكيل وكان عدد الذين قتلهم القرامطة فى تلك السنة من الحجاج وفى بيت الله وشوارع مكة وضواحيها ثلاثة آلاف غير الذين ماتوا جوعاً ونهبوا من الأموال آلاف الآلاف"(١).

وفى رثاء "مكة" تقول "عائشة العثمانية"(٢):

أرقت لبرق بدا ضوؤه	بمكة يبدو ويخفى مرارا
فبت أململ فى مضجعى	وأبكى جهاراً وأبكى سراراً(٣)
لأم القرى خربت بالحريق	ومات بها الناس سيفاً وناراً

---

(١) ص٣١٢ - ٣١٣ جـ١ ظهر الإسلام لأحمد أمين، الطبعة الخامسة ١٩٧٨م .

(٢) ص٤٢٤ طبقات الشعراء . لابن المعتز .

(٣) ململة المرض : جعله يتقلب على فراشه .

إلـى اللـه أشكـو مقـام العـدا	بمكـة قد حاصروهـا حصـارا
وأسـرى تقطـع أيديهـم	فماتـوا صفوفـاً وماتوا حذارا
فمن صابر نفسه فـى البـلاء	ومـن خائـف فـر منها فطارا
ومـن حامل نفسه فـى السفين	يجوب الدجى ويخوض البحـارا
فياقرية كنت مـأوى الضعيـف	إذا لـم يجد فى سواهـا قرارا
ومأوى الغريب ومأوى القريـب	وآمنـة ليلهـا والنهـارا
سأبكـى قريشـاً لمـا نالهـا	ويدلهـا الخـوف داراً فـدارا
وأضحـوا عباديـد قد شـردوا	وحلوا الجبـال وحلـوا القفـارا
بجيـران بيتـك حـل النكـال	وقـد عـز من كان للـه جـارا

نرى الشاعرة ترثى "مكة المكرمة" وتصف المصيبة التى حلت بها وصفاً ممزوجاً بالحزن والأسى مصورة عظم الفجيعة وهول الكارثة تصويراً مفصلاً، فهى حزينة متألمة قد أرقت لما أصاب مكة ولم تهدأ نفسها أو تركن للراحة وهى دائمة البكاء عليها جهاراً وإسراراً، وتصف ماحدث لمكة فتقول : إنها قد خربت حرقاً وقتالاً وحصاراً وذاق أهلها المآسى والأهوال فهم بين : قتيل وصابر على البلاء وخائف فر هارباً، وهى المدينة التى كانت يأمن فيها الضعيف والغريب والقريب إلا أنها قد تغيرت وتشتت أهلها فى الجبال والصحراء .

فالشاعرة ترثى "مكة" رثاء حاراً وتصف مصيبتها متخذة من الموازنة بين حالتها قبل الخراب وبعده سبيلاً لتصوير المأساة وتعظيم حجمها وبيان خطبها الجلل، كل ذلك تصوره الشاعرة بعاطفة حزينة صادقة ومشاعر جياشة وبنفس تعتصر ألماً وحسرة لما أصاب أم القرى "مكة" .

---

(١) العباديد : الفرق .

وهكذا عرف شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول "رثاء المدن" وهو رثاء جديد وإطار مبتكر استجد فى العصر العباسى الأول "ومهما يكن من شيء فإن رثاء المدن فى العصر العباسى كان يمثل موقفاً جديداً لشاعر العصر فرضته عليه ظروف الحياة فى المدينة وارتباطه الوجدانى بها إلى جانب الأحداث والظروف السياسية الداخلية التى عرفها ذلك العصر. وإذ لم يكن فى تراثه الشعرى القديم تقاليد فنية راسخة لمثل هذا الرثاء كان عليه أن يعول على نفسه فى ابتكار الأطر المعنوية والفنية التى يصوغه فيها"(١).

ومع أن رثاء المدن يعد رثاء جديداً فى الأدب العربى ابتكر منذ العصر العباسى الأول رأينا بعض الباحثين لايقرون ذلك ويعتبرون الفضل فيه لأهل الأندلس كما ذهب إلى ذلك الدكتور أحمد أمين حيث يقول : "لقد رأينا مدناً فى المشرق تتساقط تساقط أوراق الشجر تستوجب الرثاء والبكاء كما سقطت بغداد فى يد التتار وأزالوا كل مافيها من مظاهر مدنية وحضارة، وفعل التتار فيها مالا يقل عما فعله الأسبانيون فى الأندلس، وغزا هولاكو وتيمور لنك ونحوهما بلاد الشام وأسقطوها بلداً بلداً فما رأينا عاطفة قوية ولارثاء صارخاً ولاأدباً رقيقاً ولاتاريخاً مسجلاً كالذى رأيناه فى الأندلس، فإن قلنا إن هذه الناحية فى التاريخ الأندلسى أقوى وأشد لم نبعد عن الصواب"(٢).

فإننا نرى الدكتور أحمد أمين فى حديثه يتجاهل تماماً رثاء المدن فى العصر العباسى الأول ولم يشر إلى ذلك لامن بعيد ولامن قريب حيث تعرض فى أول الحديث لسقوط بغداد فى يد التتار حينما

---

(١) ص٣٧٨ فى الشعر العباسى الرؤية والفن .

(٢) ص٢٨٧ جـ٣ ظهر الإسلام، الطبعة السابعة ، مكتبة النهضة المصرية.

أزالوا كل مافيها من مظاهر المدينة والحضارة وكان هذا السقوط فى أواخر العصر العباسى بينما لم يتعرض للتدمير والخراب الذى أصاب بعض المدن فى العصر العباسى الأول مثلما أصاب : "بغداد" "والبصرة" وسر من رأى "والمدينة المنورة" ومكة المكرمة" وراح شعراء العصر يبكونها بكاءً قوياً صارخاً مسجلاً التاريخ مصوراً هذا التدمير والخراب تصويراً مفصلاً رائعاً بكل اللوعة والحسرة وصدق العاطفة والمشاعر الصادقة الجياشة، والدكتور أحمد أمين - وكما هو واضح من كلامه - يثبت وجود هذا اللون من رثاء المدن بعد سقوط بغداد فى يد التتار ويرى أنه لم يرق إلى مستوى رثاء المدن عند الأندلسيين بينما يتجاهل تماما الحديث عن رثاء المدن فى العصر العباسى الأول وكأن هذا العصر لم يعرف هذا اللون من الرثاء وكأنه لم يعرف إلا بعد سقوط بغداد فى يد التتار وهذا يخالف الصواب والحقيقة فرثاء المدن عرف منذ العصر العباسى الأول وإليه يرجع الفضل فى وجود هذا اللون من الرثاء فى أدبنا العربى ثم احتذته العصور التالية سواء كانت فى المشرق أو المغرب خاصة عند الأندلسيين الذين برعوا براعة فائقة فى نظم هذا اللون وإن كان قد سبقهم إليه شعراء العصر العباسى الأول .

فرثاء المدن فن جديد استجد فى العصر العباسى الأول واخترعه شعراء العصر وأبدعوا فيه إبداعاً عظيماً وقد ذكرنا بعض القصائد الرائعة التى تثبت هذا القول عند حديثنا عن رثاء "بغداد "والبصرة"وغيرهما من المدن العباسية التى رثاها شعراء العصر وبكوا عليها بكاءً حاراً ملتهباً لايقل روعة عن رثاء المدن فى الأندلس وإن كان رثاء المدن فى الأندلس أكثر كماً وأكثر صراخاً وعويلاً وأعظم حسرةً وفجيعة حيث ذهبت المدن الإسلامية فى الأندلس وانتزعت من أيدى المسلمين على يد الأسبان المسيحيين الذين أزالوا كل مافيها من مظاهر إسلامية وكل من فيها من المسلمين، فالمصيبة التى

أصابت المدن الأندلسية كانت أكبر وأعظم وأفدح من المصائب التى أصابت بعض المدن فى العصر العباسى الأول، فقد بكى شعراء الأندلس مدناً إسلامية قد دمرت وخربت وأبيد كل مافيها ومن فيها من المسلمين على أيدى أعدائهم بينما ظلت المدن العباسية - على الرغم مما أصابها من تدمير وخراب - فى أيدى المسلمين وبقيت فيها كل مظاهر الإسلام وعبادة الله تعالى قائمة.

فمن هنا كان رثاء الأندلسيين لمدنهم أقوى وأروع وأكثر من رثاء العباسيين لمدنهم وإن كان رثاء العباسيين لمدنهم أيضاً رائعاً قوياً صارخاً ولكن ذلك لاينفى سبق العباسيين لهذا اللون من الرثاء وابتداعهم له وإجادتهم فيه .

وكما تجاهل الدكتور أحمد أمين رثاء المدن فى العصر العباسى الأول تماماً رأيناه - ومن خلال حديثه الذى ذكرناه - ينفى هذا اللون من الرثاء - فى أول حديثه - عن دول المشرق كما يتجلى فى قوله : "فما رأينا عاطفة قوية ولارثاء صارخاً ولاأدباً رقيقاً ولاتاريخاً مسجلاً" .

وهذا يخالف الواقع والحقيقة فلدول المشرق بعد العصر العباسى الأول رثاء رائع فى رثاء المدن - وإن كان يقل روعة عن رثاء الأندلسيين والعباسيين فى عصرهم الأول لضعف الشعر العربى بوجه عام فى عصر الغزو التتارى إلا أنهم قد رثوا مدنهم وعرفوا هذا اللون في شعرهم كرثاء الشاعر شمس الدين الكوفى لمدينة بغداد" ورثاء الشاعر علاء الدين العزولى لمدينة "دمشق" وغير ذلك مما هو موجود فى الشعر العربى لهذه العصور .

كذلك وقع الدكتور أحمد أمين فى التناقض والخلط فى أول حديثه وآخره حيث نفى فى أول الحديث رثاء المدن عند دول المشرق بينما نراه يعترف ضمناً فى آخر حديثه بوجود هذا اللون عندهم. فقوله : "فإن قلنا : إن هذه الناحية فى التاريخ الأندلسى أقوى

وأشد لم نبعد عن الصواب قد يبدو متعارضاً مع قوله : فما رأينا رثاء صارخاً ولاأدباً رقيقاً ولاتاريخاً مسجلاً لأن القول الأخير يعترف بوجود هذا اللون على نحو أقل من لون الأندلس والقول الأول يكاد يحكم بعدمه مع أن المتصفح لكتب الأدب والتاريخ يرى رثاء المدن ذائعاً فى كل محنة" كما يقول أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومى"(١) .

فرثاء المدن فن جديد ابتكر فى العصر العباسى الأول وابتدعه الشعراء فى ذلك العصر وأبدعوا فيه إبداعاً عظيماً، وقد اعترف بذلك كثير من الباحثين والناقدين، ففضلا عن الدكتور محمد أحمد البيومى - كما ذكرنا ذلك من قبل - نرى الدكتور شوقى ضيف يرى سبق العباسيين لهذا اللون من الرثاء على الأندلسيين فى قوله : "ولم يحتدم فى الأندلس رثاء الدول الزائلة وبكائها فحسب فقد احتدم معه رثاء المدن التى كانت تتساقط فى أيدى المسيحيين الإسبانيين وليس هذا الضرب من الرثاء جديدا فقد بكى الخريمى، وغيره بغداد حين رماها طاهر بن الحسين قائد المأمون بالمجانيق فى حربه لأخيه الأمين نادبين ماحرق من قصورها وأحيائها وأريق من دماء أهلها. وبكاء ابن الرومى للبصرة حين خربها الزنج وسفكوا دماء أهلها ذائع مشهور والمدينتان جميعاً لم تسقطا فى أيدى أعداء على نحو ماكانت تسقط مدن الأندلس ولافر أهلهما منهما إلى غير مآب ومن أجل ذلك كان بكاء الأندلسيين لمدنهم أكثر حرارة"(٢).

---

(١) ص٢١١ الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثر ، للدكتور/ محمد رجب البيومى . طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

(٢) ص١٦٢ فصول فى الشعر ونقده ، الطبعة الثانية . دار المعارف .

فالدكتور شوقى ضيف يرى سبق العباسيين فى هذا اللون من رثاء المدن وإن كان رثاء الأندلسيين لمدنهم أكثر حرارة تبعاً لعظم المصيبة وهول الفجيعة .

كذلك ذهب هذا المذهب الدكتور / عز الدين إسماعيل[(١)]، والدكتور جودت الركابى[(٢)] . وغيرهما من الباحثين والنقاد، وهو مانقره ونثبته ونراه رأياً صائباً .

ومما يتصل برثاء المدن اتصالاً مباشراً وثيقاً رثاء القصور فى العصر العباسى الأول وهو لون جديد من ألوان الرثاء ظهر فى هذا العصر وابتكره شعراؤه، حيث راح الشعراء يبكون القصور ويرثونها ويندبونها ندباً حاراً واصفين عظم المصيبة وهول الفجيعة التى أحلت بالقصور وصفاً ممزوجاً بالحزن والأسى معبرين عن مشاعرهم ومتأثرين تأثراً عظيماً بما حدث لها ومشاركين القصور همومها وفواجعها التى حلت بها ومصورين ماحدث للقصور من خراب ودمار واصفين المأساة وصفاً حزيناً فى براعة وروعة، ولعل أبرع شاعر من شعراء العصر العباسى الأول فى رثاء القصور هو "البحترى" حيث برع براعة معدومة النظير فى رثاء القصور وندبها والبكاء عليها وتصوير المصيبة التى حلت بها تصويراً رائعاً مجسداً، ومن هذا القبيل رثاؤه لقصر الخليفة المتوكل "الجعفرى" وهو القصر الذى قتل فيه الخليفة أمام البحترى وناله التخريب والإفساد أمام عينيه فيقول يرثيه:[(٣)]

محل على القاطول أخلق داثره ... وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره[(٤)]

كأن الصبا توفى نذوراً إذا انبرت ... تراوحه أذيالها وتباكره[(٥)]

---

(١) ص٣٦٤ فى الشعر العباسى الرؤية والفن .

(٢) ص١١٤ فى الأدب الأندلسى، الطبعة الرابعة .

(٣) ص١٠٤٥ جـ٢ ديوان البحترى .

(٤) القاطول: نهر من دجلة. أخلق: بلى. داثره: البالى. تغاوره: تحاربه .

(٥) تراوحه : تهب عليه آخر النهار . وتباكره : تهب عليه أول النهار .

وربَّ زمــانٍ ناعمٍ - ثَـمَّ - عهده ... تـرق حواشيـه ويونـق ناضـره (١)

تغيـر حســن الجعفـرى وأنســه ... وقوض بـادى الجعفـرى وحاضـره (٢)

تحمـل عنـه ساكنـوه فجـاءةً ... فعــادت سـواءً دوره ومقابـره (٣)

إذا نحـن زرنـاه أجـد لنـا الأسى ... وقـد كـان قبل اليوم يبهج زائره (٤)

ولـم أنس وحش القصر إذ ريع سربه ... وإذ ذعــرت أطـلاؤه وجـآذره (٥)

وإذ صيـح فيـه بالرحيـل فهتكت ... علـى عجـل أستاره وستائره (٦)

ووحشتــه حتـى كـأن لم يقم بـه ... أنيسٌ، ولم تحسن لعينٍ مناظره (٧)

كـأن لـم تبـت فيه الخلافة طلقـة ... بشاشتهـا، والملـك يشرق زاهره (٨)

ولـم تجمـع الدنيـا إليـه بهاءهـا ... وبهجتهـا والعيش غضٌ مكاسره (٩)

فالبحترى يرثى قصر "الجعفرى" ويبكى على ماأصابه من خراب ودمار شمل كل جانب من جوانبه، ويصور المصيبة التى لحقت

---

(١) ترق حواشيه : تسعد جوانبه . يورق ناضره : يحسن عهده .

(٢) قوض : تهدم . باديه : ظاهره . حاضره : داخله .

(٣) تحمل : إرتحل .

(٤) أجد لنا الأسى : جدد لنا الحزن .

(٥) وحش القصر : : نساؤه الجميلات . ريع : أفزع . السرب : الجماعة . الأطلاء : الظباء . الجآذر : أولاد البقر الوحشى .

(٦) هتكت : مزقت . أستاره : جمع ستر . ستائره : جمع ستارة .

(٧) الوشحة : الخلو ، حتى كأن لم يكن به أحد .

(٨) طلقة : ضاحكة مشرقة . البشاشة : طلاقة الوجه . الزاهر : المشرق الجميل من الألوان .

(٩) بهاءها : حسنها وجمالها . البهجة : الحسن . غض : طرى ناعم . مكاسره : جمع مكسر ، والمكاسر من الشجر : جذوعها حيث تكسر منه الأغصان واستعاره هنا : للعيش .

به ويصفها وصفاً ممزوجاً بالحزن والأسى، ويندب أيام المجد والبهاء التى عاش فيها القصر وشهدها أيام كانت الخلافة طلقه فيه، لقد تغير القصر عما كان عليه من جمال وحسن، وتهدم ظاهره وداخله وارتحل عنه ساكنوه فأصبح خراباً كأنه القبر فى وحشته، وكلما زاره البحترى جدد أحزانه وألهب مشاعره وهو الذى كان قبل ذلك موئلاً للبهجة والسرور ومرتعاً للحسن والبهاء، ثم أخذ الشاعر يندب القصر ندباً حاراً ويبكى على أهله : من نساء جميلات قد أفزعن وتشتتن منه بعد مصرع المتوكل .

والبحترى لاينسى هذا المنظر المفزع - حيث كان حاضراً مقتل الخليفة المتوكل وشاهد ماحدث للقصر وأهله من أهوال وفواجع - لنساء القصر الجميلات اللاتى يشبهن البقر الوحشى فى جمال العيون واللاتى يشبهن أولاده فى ذعرهم وفزعهم عند حدوث الخطر بهم كما لاينسى خروجهن من القصر وهن باكيات معولات بعد أن خربت أستاره ومزقت ستائره، كما لاينسى وحشة القصر وخلوه من ساكنيه - وهو الذى كان يأنس بهم - كأنه لم يكن فى يوم من الأيام مكاناً للخلافة ومستقراً للملك المشرق وكأنه لم يكن فى يوم من الأيام زينة الدنيا ونعيم العيش .

فالبحترى يرثى القصر رثاء حاراً ويندبه ندباً مفجعاً ويبكى عليه بكاء دامعاً بكل الصدق والوفاء والمشاعر الصادقة الجياشة حيث أخذ يبكيه وخليفته من منطلق ذاتى محض بعد خراب القصر ومصرع صاحبه. وقد استطاع البحترى أن يصور المأساة تصويراً حياً رائعاً مؤثراً يهز القلوب هزاً ويحرك المشاعر حزناً لما أصاب القصر وعطفاً وحباً لأهله، كل ذلك بأسلوب عذب محكم وتصوير بارع حى يجسد المصيبة تجسيداً .

ومن أروع رثاء القصور كذلك رثاء البحترى "للإيوان الفارسى" "قصر كسرى الأبيض" حيث رثى القصر وندبه وبكى أهله بكاء حاراً

فى سينتيه المشهورة التى تعد وبحق من عيون الشعر العربى، ومن قوله فيها يرثى القصر الفارسى : "ص١١٥٤ جـ٢ ديوانه" .

حضـرت رحلى الهمـوم فوجهـ ـت إلـى أبيـض المدائـن عنـس

إلى أن قال :

فكـأن الجرمـاز مـن عـدم الإنـ ـس وإخلالـه بنيـة رمـس

لـو تـراه علمـت أن الليالـى جعلـت فيـه مأتمـاً بعد عرس

وهـو ينبيك عـن عجائـب قـوم لايشـاب البيـان فيهـم بلبـس

ثم أخذ بعد ذلك يصف صورة صورت على جدران الإيوان ويصورها تصويراً رائعاً معتمداً فى ذلك على تصويره الحسى المتحرك .

فالبحترى يبكى قصر كسرى ويندبه ندباً حاراً مصوراً عظم المصيبة وهول الفجيعة التى حلت به متخذاً أسلوب الموزانة بين حالة القصر أيام بهائه وحالته بعد فجيعته وفنائه سبيلاً لتصوير عظم المصيبة وكبر فداحتها، فهذا الإيوان قد تحول إلى قبر ضخم وتحولت فيه الأعراس مآتماً بعد أن كان يكتظ بالترف والنعيم أيام الأكاسرة.

إلا أنه يلاحظ أن رثاء القصر لم يأت فى قصيدة مستقلة بعينها بل جاء رثاؤه فى قصيدته الأولى ضمن قصيدة رثا فيها الخليفة المتوكل مصدراً القصيدة برثاء القصر الجعفرى، وجاء رثاؤه للقصر الفارسى ضمن قصيدة يرثى فيها دولة الفرس ويبكى على أيامهم وحضارتهم وآثارهم ومنها هذا الإيوان الفارسى" .

وإذا كان رثاء القصور من موضوعات الرثاء الجديدة التى برزت فى العصر العباسى الأول فإن لذلك أصولاً قديمة فى الأدب العربى، فرثاء الأطلال وبكاؤها يعد تمهيداً لرثاء القصور التى جدت وجد معها رثاؤها، بل إن رثاء الإطلال وبكائها هو الذي أوحى للبحترى ولغيره بهذا الموضوع الجديد وهو "رثاء القصور" .



«الفصل السادس»

«رثاء الحيوانات والطيور»



«رثاء الحيوانات والطيور»

كذلك يعد رثاء الحيوانات والطيور الأليفة من موضوعات الرثاء التى وجدت واستحدثت فى العصر العباسى الأول فلم تكن معروفة من قبل فى رثاء العصور السابقة على هذا العصر، فهو ضرب من الرثاء جديد ابتكر فى العصر العباسى الأول ولم يتجه إليه الشعراء السابقون لافى العصر الجاهلى ولاالإسلامى ولاالأموى حيث لم تبلغ الحضارة ولم تربط العاطفة بين الشعراء والحيوان والطير مثلما كانت فى العصر العباسى فقد بلغت الحضارة وحياة الترف مبلغاً عظيماً لم يوجد مثله فى العصور السابقة وتوطدت العلاقة والعاطفة بين الإنسان فى العصر العباسى وبين كل من الحيوان والطيور الأليفة توطداً وثيقاً .

صحيح لقد اتجه الشعراء منذ العصر الجاهلى إلى الحيوان والطير فوصفوا كلاً منهما وصفاً رائعاً إلا أنهم لم يتجهوا إلى رثائه وبكائه بعد مماته مثلما فعل شعراء العصر العباسى الأول .

"فهو ضرب جديد من الرثاء يكشف عن معنى حضارى، حيث تتولد العاطفة التى تربط بين الإنسان وهذا النوع من الحيوان - وكذلك الطير - والتى تغدو قوية فى نفس الإنسان حتى إن فقده للحيوان الأليف لديه - وكذلك الطير الأليف - يبعث فى نفسه الأسى والحزن"(١) .

ومن مراثى الحيوانات فى العصر العباسى الأول رثاء أبى نواس لكلب صيد لسعته حية فمات فقال يرثيه بقوله:(٢)

---

(١) ص٣٧٨ فى الشعر العباسى الرؤية والفن .

(٢) ص١٠٥ ديوان أبى نواس . دار بيروت للطباعة والنشر عام ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م .

يابؤس كلبي سيد الكلاب … قد أغناني عن العقاب
وكان قد أجزى عن القصاب … وعن شراء الجلب الجلاب[(١)]
ياعين جودي لي على حلاب … مَنْ للظباء العفر والذئاب
وكل صقر طالع وثاب … يختطف القطان في الروابي
كالبرق بين النجم والسحاب … كم من غزال لاحق الأقراب
ذي جينة صعب وذي ذهاب … أشبغي منه من الكباب
خرجتُ والدنيا إلى تباب … به وكان عدتي ونابي[(٢)]
أصفر قد خرج بالملاب … كأنما يدهن بالزرياب[(٣)]
فبينما نحن به في الغاب … إذ برزت كالحة الأنياب
رقشاء جرداء من الثياب … كأنما تبصر من نقاب
فعلقت عرقوبه بناب … لم ترع لي حقاً ولم تحاب
فخر وانصاعت بلا ارتياب … كأنما تنفخ من جراب
لاأبت إن أبت بلا عقاب … حتى تذوقي أوجع العذاب

الشاعر العباسي يرثي كلبه ويبكي عليه ويندبه ويندب حظه فيه ويأخذ في أثناء ذلك في تعداد فضائله وماكان يتصف من صفات عظيمة بين أمثاله وأضرابه من كلاب الصيد، فقد كان أعظم الكلاب وسيدها، ويغني صاحبه عن أدوات الصيد الأخرى كما يغني صاحبه عن احتياجه للخدم حيث كان الكلب يقوم بقضاء حوائج صاحبه فقد كان كلباً فطناً ذكياً، كما أنه كثيراً مااصطاد لصاحبه الصيد الكثير الذي سد به حاجته وأغناه به عن شراء اللحم .

وكان كلباً شجاعاً يهاجم الظباء والذئاب والصقور المفترسة ويمنعها أن تلحق الأذى بالناس -خاصة الأطفال منهم- وكان سريعاً

---

(١) أجزى : أغنى . الجلب : الخدم المجلوبة .

(٢) التباب : الهلاك .

(٣) خرج : درب . الملاب . دهن يدهن به . الزرياب : ماء الذهب .

كالبرق الخاطف بين النجم والسماء، وكان نظيفاً جميلاً أصفر اللون كأنه دهن بماء الذهب .

وبعد أن عدد أبو نواس فضائل كلبه وصفاته أخذ يقص قصة قتله : حيث كان معه فى رحلة صيد فى الغابة إذ فاجأته حية كثيرة السم فلدغته وقتلته وعادت بكل هدوء وقد تركته صريعاً ولم ترع حقاً لصاحبه وعادت تنفخ من فمها معبرة عن نصرها عليه .

ثم نرى الشاعر - فى آخر بيت - يتوعد الحية ويذكر أنه سيقتص منها ويأخذ الثأر لكلبه .

فأبو نواس فى رثائه لكلبه يذكر فضائله ومميزاته ثم يذكر كيفية مصرعه لتضح المصيبة وتبرز الفجيعة، ونراه - وبحق - حزيناً متألماً لمصرع كلبه ويرثيه بعاطفة صادقة ومشاعر جياشة تفيض حزناً وحسرة على كلبه وتدل على حبه العظيم له .

فالمرثية رائعة تكشف لنا عن مدى التطور الحضارى وعن عظم الخبرات والإمكانيات التى اكتسبها شعراء العصر العباسى الأول فى تطويع إمكانياتهم لكل جديد مستحدث فى شعرهم .

ومن رثاء الكلب فى العصر العباسى الأول مرثية الشاعر "محمد بن المغيرة العتكى" والتى ورد منها بيت واحد فى معجم الشعراء للمرزبانى يبدو أنه مطلعها فقط وهو :[1]

أقفرت منك ياكليب الديار   وبكى لفقدك العيون الحوار

كذلك رثى ابن الزيات فرساً أشهب لم ير مثله فراهة وحسناً فلما مات رثاه بقصيدة طويلة قال فيها :[2]

كيف العزاء وقد مضى لسبيله   عنا فودعنا الأحم الأشهب[3]

---

(١) ص٤٤٢ معجم الشعراء ، للمرزبانى .

(٢) ص٦ ديوان ابن الزيات .

(٣) الأحم : الأسود . الأشهب : من الشهبة : وهى سواد يخالطه بياض .

منــع الرقـاد جوى تضمنه الحشا وهوىً أكابـده وهم منصب(١)

ويعد الشاعر العباسى "أبو محمد القاسم بن يوسف" أبرز شاعر من شعراء العصر العباسى وأكثرهم رثاء للحيوانات، وأشعر شاعر فى هذا الفن الشعرى حتى إنه لرأس فيه متقدم جميع من نحاه"(٢) فمن قوله يرثى عنزاً سوداء :(٣)

عين بكـــى لعنزنـــا الســـوداء كالعـروس الأدمـاء يوم الجلاء

ذات لون كالعنبر الورد قـد عـ ـل بمـا فـاق لـــون الطـــلاء

ذات روقيـــن أملسيـــن رقيقيـ ـن وضرعيـــن كالـــدلاء الملاء

ذات جيـد ومقلتيـــن كوحـــ ـشية قفر من جاريات الظباء

ويمضى الشاعر على هذه الشاكلة يعدد فضائل العنزة وصفاتها ويتعرض بالوصف والتصوير لكل جزء من أجزائها، فوصف لونها ورأسها وجيدها ومقلتيها وأذنيها وهيكلها وقوامها وامتلاء جسمها ونعومتها وجمالها واهتمامه بها إلى أن قال يبكى عليها ويندبها بقوله :

ثـــم لم ينجنـــا الحـــذار عليها إذ دهانـــا فيهـــا حلول القضاء

أصبحت فى الثرى رهينة رمس وثناهـــا حـــىٌ لـــدى الأحيـــاء

لست أنسى محاسن السوداء ما سقى الأرض صوب ماء السماء

بوركـــت حفـــرة تضمنـــت السو داء بـل ضمنـت مـــن السوداء

كيف لى بالعزاء لا، كيف عنها سلبتنى الســوداء حسن العزاء

فالشاعر ينعى نفسه لموت عنزته ويندبها ويتفجع عليها كأنه يتفجع على شخص عزيز فقده، فهو لاينساها مدى الحياة ويدعو للقبر الذى ضمها بالبركة، وهى أكبر من أن يقبل العزاء فيها .

---

(١) الجوى : عذاب الهوى . منصب : متعب .

(٢) ص١٦٣ الأوراق للصولى .

(٣) ص١٦٤ - ١٦٦ نفس المصدر .

ثم عاد يندبها معولاً باكياً معدداً لكثير من صفاتها ومنافعها فهى عربية خالصة فى نسبها وكانت تلد فى الحر والقر ولاتشتكى جوعاً ولاظمأ ولبنها غزير كثير فى الصباح والمساء وكم شرب من لبنها وأكل من جبنها وزبدها هو وأهله وكم من مواليدها أكل وربى، فكانت غيثاً حياً وربيعاً طيب النثا وحسن الثناء .

ثم يعود ويتوجع عليها ويتحسر لفقدها ويتمنى أنه لوفداها بكل مرتخص وغال، ثم أخذ يعزى نفسه ويرى أنه لايبقى شىء على الأرض فالكل مصيره الفناء، فيقول :

أى حى يبقى فتبقى لنا الـ ... سوداء هيهات مالنا من بقاء
كيف يرجو البقاء سكان دار ... خلق الله أهلها للفناء
ولهم بعدها معادٌ إلى دا ... رِ خلود إقامةٍ وجزاء

وهكذا رثى الشاعر العنزة وبكاها وندبها ندباً حاراً كأنه يبكى على عزيز فقده من أهله .

والمرثية تجربة طريفة وتوضح – من غير شك – عظم المعانى الإنسانية الحضارية ومدى العلاقة العاطفية عند الشاعر خاصة والمجتمع العباسى بوجه عام .

وكما رثى الشاعر العنزة "رثى الشاة" وبكى عليها وعدد فضائلها وصفاتها معزياً صاحبها فيها داعياً إياه بالتجلد والصبر (١).

كذلك رثى "هرة" فى قصيدة تبلغ ثلاثين بيتاً باكياً عليها معدداً فضائلها وصفاتها معبراً عن حزنه وألمه لفقدها حيث يقول: (٢)

---

(١) ص١٧٦ – ١٧٨ الأوراق للصولى .

(٢) نفس المصدر

ألا قـل لمخـة أو مـاردة	تعـزوا عن السهرة الصائـدة
عسـى أن تدور صـروف الزمان	بحـسن الخلافـة والفائـدة
وإن رحلـت عنكم نعمة ففـي	غدكـم نعمـة وافـدة
يقولـون كانـت لنـا هـرةً	مريبـة عندنـا تالـده
لهـا قنـص كاقتناص الفهـو	د واثبـة فيـه أو لابـده

ويمضى الشاعر يرثى الهرة معزياً أصحابها فيها معدداً فضائلها ومنافعها وصفاتها التى كانت تتصف بها فى حياتها .

ومن رثى الهر فى العصر العباسى أيضاً واشتهر ذلك عنه وبرع فى ذلك : الشاعر العباسى : "الحسن بن على بن أحمد بن بشار" المعروف "بابن العلاف النهروانى" حيث كان له هر يأنس به وكان يدخل أبراج الحمام الذى لجيرانه ويأكل فراخها وكثر ذلك منه فأمسكه أربابها فذبحوه فرثاه بهذه القصيدة :(١)

ياهـر فارقتنـا ولـم تعـد	وكنـت عندى بمنزل الولـد
فكيـف ننفـك عن هـواك وقد	كنـت لنـا عـدة مـن العـدد
تطـرد عنـا الأذى وتحرسـنا	بالغيـب مـن حيـة ومـن جرد
وتخـرج الفـأر من مكامنهـا	مابيـن مفتوحهـا إلـى السدد
يلقـاك فـى البيـت منهم مـدد	وأنـت تلقاهـم بـلا مـدد
لاعـدد كـان منـك منفلتـاً	منهـم ولاواحـدٌ مـن العـدد
لاترهـب الصيـف عندها جرة	ولاتهـاب الشتـاء فـى الجمد
وكـان يجـرى ولاسـداد لهـم	أمرك فـى بيتنا على سـدد
حتـى اعتقـدت الأزى لجيرتنـا	ولـم تكـن للأذى بمعتقـد
وحمـت حـول الردى بظلمهـم	ومـن يحـم حـول حوضـه يرد
وكـان قلبـى عليـك مرتعـداً	وأنـت تنسـاب غيـر مرتعـد
تدخـل بـرج الحمـام متئـداً	وتبلـغ الفـرخ غيـر متئـد

(١) ص١٠٨ - جـ٢ وفيات الأعيان لابن خلكان .

وتطرح الريش فى الطريق لهم … وتبلع اللحم بلع مزدرد
أطعمك الغى لحمها فرأى … قتلك أربابها من الرشد
حتى إذا داوموك واجتهدوا … وساعد النصر كيد مجتهد
كادوك دهراً فما وقعت وكم … أفلت من كيدهم ولم تكد
فحين أخفرت وانهمكت وكا … شفت وأسرفت غير مقتصد
صادوك غيظاً عليك وانتقموا … منك وزادوا ومن يصد يصد

ومنها :

فلم تزل للحمام مرتصداً … حتى سقيت الحمام بالرصد
لم يرحموا صوتك الضعيف كما … لم ترث منها لصوتها الغرد
أذاقك الموتَ ربُهن كما … أذقت أفراخه يداً بيد

ومنها :

كأن جبلاً حوى بجودته … جيدك للخنق كان من مسد
كأن عينى تراك مضطرباً … فيه وفى فيك رغوة الزبد
وقد طلبت الخلاص منه فلم … تقدر على حيلةٍ ولم تجد
فجدت بالنفس والبخيل بها … أنت ومن لم يجد بها يجد
فما سمعنا بمثل موتك إذ … مت ولا مثل عيشك النكد
عشت حريصاً يقوده طمعٌ … ومت ذا قاتل بلا قود

ومنها :

يا من لذيذ الفراخ أوقعه … ويحك هلا قنعت بالغدد
ألم تخف وثبة الزمان كما … وثبت فى البرج وثبة الأسد
عاقبة الظلم لا تنام وإن … تأخرت مدة من المدد
أردت أن تأكل الفراخ ولا … يأكلك الدهر أكل مضطهد
هذا بعيد من القياس وما … أعزه فى الدنو والبعد
لابارك الله فى الطعام إذا … كان هلاك النفوس فى المعد
كم دخلت لقمة حشاشرة … فأخرجت روحه من الجسد
ماكان أغناك عن تسورك الـ … ـبرج ولو كان جنة الخلد
قد كنت فى نعمةٍ وفى دعة … من العزيز المهيمن الصمد

تأكـل من فـأر بيتنـا رغـداً ... وأيـن بالشاكريـن للرغـد
وكنت بـددت شملهـم زمنـاً ... فاجتمعـوا بعـد ذلك البـدد
فلـم يبقـوا لنـا على سبد ... فى جـوف أبياتنـا ولالبـد
وفرغـوا قعرهـا وماتركـوا ... ماعقلتـه يـد على وتـد
وفتتـوا الخبز فى السلال فكـم ... تفتت للعيـال مـن كبـد
ومزقـوا مـن ثيابنـا جـدداً ... فكلنا فـى المصائـب الجدد

والمرثية طويلة تبلغ خمسة وستين بيتاً وهى من أحسن الشعر وأبدعه وقد اكتفيت بمحاسنها وروائعها وزبدتها، وكلها تفجع على الهر وبكاء عليه وتوجع لما حدث له وحسرة عليه . حيث نرى الشاعر يبدؤها بتوضيح منزلة الهر من نفس الشاعرفقد كان عنده بمنزلة ولده، ثم أخذ فى تأبينه وتعداد فضائله وماكان يتصف به من صفات حميدة نافعة : فقد كان عدة من عدد الشاعر المهمة يطرد عنه الأذى ويحرسه من الأفاعى الضارة والحشرات الشرشة وكان لايأل جهداً فى اصطيادها ولاتفتر همته فى افتراسها صيفاً وشتاءً لايمنعه حر ولايحجبه عنها برد ولاشتاء .

ثم أخذ الشاعر يوضح كيفية قتل الهر وسبب قتله مصوراً مأساته واصفاً ماأصابه، حيث اعتاد الهر السطو على أبراج الحمام التى كانت لجيران الشاعر وأكل أفراخ الحمام منها تاركاً أثر ذلك وراءه من الريش المطروح فى الطريق، وقد علم أصحاب الأبراج بذلك فترصدوا للهر حتى أمسكوا به فذبحوه وانتقموا منه وأذاقوه الموت مثلما أذاق هو أفراخهم قبل ذلك .

ثم أخذ الشاعر يبكى على الهر ويعبر عن مشاعره الحزينة وعواطفه الصادقة تجاهه بعد قتله متفجعاً عليه مكثراً من تفجعه متحسراً على فقده مستخدماً الحكمة والتعبير عن حقائق الموت وحكم الحياه والتأمل فى حقيقة الموت وحقيقة الحياة موضحاً أن الهر هو الذى أودى بنفسه وراح ضحية ظلمه للجيران من أكل فراخهم

وماكان أغناه عن ذلك فقد كان ينعم بالحياة الجميلة والعيشة الرغدة يأكل الفيران مبدداً شملهم من البيت، إلا أن الحالة قد تغيرت بعد موته فقد امتلأ البيت من الفئران وعاثوا الفساد فيه وفى كل مافيه من حبوب وخبز وثياب .

وهكذا أبدع الشاعر إبداعاً عظيماً فى رثائه للهر واستطاع أن يبرز عظم المصيبة وهول الفجيعة التى لحقت به لفقده الهر معبراً عن شعوره الصادق وحبه العظيم للهر بما يوضح مايتسم به الشاعر من معان إنسانية نبيلة ونظرة حضارية رائعة وشعور إنسانى صادق تجاه الحيوان الأليف .

ويرى ابن خلكان أن القصيدة من أحسن الشعر وأبدعه[١] كما أشاد بها الدكتور شوقى ضيف[٢] والدكتور عز الدين إسماعيل[٣] إشادة عظيمة .

وقد ذهب البعض إلى أن هذه المرثية مرثية رمزية رثى فيها الشاعر "عبد الله بن المعتز" وخشى من الإمام المقتدر أن يتظاهر بها لأنه هو الذى قتله فنسبها إلى الهر وعرض به فى أبيات منها وكانت بينهما صحبة أكيدة .. وقيل إنما كنى بالهر عن المحسن بن الفرات أيام محنته لأنه لم يجسر أن يذكره ويرثيه .. وقيل كنى بالهر عن غلام له قتله حين علم بعلاقة مع جارية له"[٤] .

وقد جعلها الدكتور شوقى ضيف من الرثاء السياسى، وجعلها من المراثى السياسية المهمة التى ذاعت على ألسنة الشعب وأبنائه وجعلها مرثية رمزية[٥] .

---

(١) ص١٠٩ جـ٢ وفيات الأعيان .
(٢) ص٢١٩ العصر العباسى الثانى .
(٣) ص٣٨٠ فى الشعر العباسى الرؤية والفن .
(٤) ص١٠٨ - ١٠٩ جـ٢ وفيات الأعيان .
(٥) ص١٠٧ الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور .

إلا أننا نرى المرثية غير رمزية وغير سياسية فهى مرثية فى الهر ولم يرمز بها لأى شخص لأننا نرى المعانى والأفكار التى تضمها القصيدة تتلاءم مع رثاء الهر وجميع الصور التى طرحت فيها تدل على أن المرثى هرّ حقيقى .

ومن رثاء الطيور فى العصر العباسى الأول قصيدة أبى محمد القاسم ابن يوسف يرثى "القمرى" فيقول : (١)

هـــل لامـــرىءٍ مـــن أمـــان	مـــن ريـــب هـــذا الزمـــان
أم هـــل تـــرى ناجيـــاً مـــ	ـــن طـــوارق الحدثـــان
ما اثنـــان يجتمعـــان	إلا سيفتـــرقـــان
قريـــن كـــل قريـــن	يبيـــن بعـــد اقتـــران
والمازمـــان ونســـر الـــ	ـــسمـــاء والفرقـــدان
يبلـــى الجديـــد الجديـــ	ـــدان ثـــم مايبليـــان

فالشاعر يصدر قصيدته بهذه الأبيات الوعظية الحكيمة التى تعنى أن لاأمان لامرىء من مصائب الأيام وأنه ليس هناك من ينجى من المصائب، ولابد للجمع أن يفترق ويفرق القرين وقرينه وكل جديد بال لامحالة .

ثم يأخذ الشاعر فى رثاء "القمرى" ويندبه ندباً حاراً ويعلن عن ألمه وحزنه لفقده وحسرته وأساه لموته فيقول :

كـــان المطـــوق خدنـــاً	مـــن أكـــرم الأخـــدان
وصاحبـــاً وخليـــلاً	مـــن خالـــص الخـــلان
سنيـــن سبعـــاً وعشـــراً	محفـــورة بثمـــان
فغالـــه حـــادث مـــ	ـــن حـــوادث الأزمـــان
أمس المطـــوق رمســـاً	دريجـــة الأكفـــان
مستوطنـــاً دار قفـــر	مـــن عامـــر الأوطـــان

---

(١) ص١٩٣ - ١٩٥ . الأوراق للصولى .

دانـــى الجـــوار وإن كـــا ن نازحـــاً غيـــــر دان
فالقلب فيــه كلـــوم مـــن لاعـــج الأحـــزان
وفـى الحشـــا لاذعـــات كمشعــــل النيـــــران
والمقلتـــان سجـــومٌ دمعاهمـــا تكفـــان

نرى الشاعر حزيناً لفقد الطائر وكيف لايحزن عليه وهو يعده صديقه وصاحبه وخليله بل وخالص خلاته وقد عاشره أكثر من سبعة عشر عاماً ؟

ثم أخذ الشاعر ينوح نواحاً باكياً ويوضح مشاعره الحزينة وعواطفه الصادقة تجاهه حيث أمسى تراباً يستوطن القبر الموحش بعد أن نزح إليه من العمران، فقلب الشاعر حزين لفقده وأحشاؤه تلتهب فيها النيران لموته وعيناه تسكب الدموع حزناً وحسرة لبعده.

ثم يعود فيعدد صفات المرثى مصوراً كل جزء من أجزائه تصويراً دقيقاً معتمداً على التشبيه الحسى اعتماداً كبيراً فى إبراز صوره وتصوير صوره فيقول :

كان المطـوق أنســـاً للأهـــل والجيـــــران
وكان طلقـاً ضحوكـاً يجيـــب كـــل أوان
وكـان أعجم فـــى نطقـه فصيـح اللســان
وطالمـــاغنانـــى مـن مطـــرب الألحـان
لمعبـــد والسريجــــ ـــى والغريض اليمانـــى
كـــأن عينيــه ياقـــو تتــــان حمــــراوان
كـــأن رجليـــه مبـــو غتـــان مـــن أرجـــوان
كـــأن هامتـــــه ر كبـت على غصـن بـان
إلى أن قال :
فاذهـب حميـداً فقيـداً فمـــا خـــلا اللـــه فانـى

وهكذا يرثى الشاعر الطائر ويبكى عليه ويعبر عن مشاعره وعواطفه نحوه فى صورة لم يألفها الأدب العربى من قبل وفى ضرب جديد من الرثاء استجد فى العصر العباسى الأول وبرز موضوعاً جديداً من موضوعات الرثاء فى ذلك العصر بكل معنى الكلمة .

ومن رثاء الطير في ذلك العصر قصيدة الشاعر "أحمد بن يوسف" كاتب الخليفة المأمون وأخو الشاعر السابق "القاسم بن يوسف" يرثى "ببغاء" ماتت لصديق له وكان له أخ متخلف يقال له عبد الحميد فيقول :(١)

أنت تبقى ونحن طراً فداكا	أحسن الله ذو الجلال عزاكا
فلقد جل خطب دهر أتانا	بمقادير أتلفت ببغاكا
عجباً للمنون كيف أتتها	وتخطت عبد الحميد أخاكا
كان عبد الحميد أصلح للموت	من الببغا وأولى بذاكا
شملتنا المصيبتان جميعاً	فقدنا هذه ورؤية ذاكا

من الواضح أن الأبيات قيلت على سبيل الدعابة والمزاح وتخلو من صدق العاطفة ولاتدل على معان إنسانية نبيلة . إذ كيف يحزن الإنسان لفقد طائر ويتمنى الموت لإنسان مثله بديلاً عن هذا الطائر مهما كان هذا الإنسان ومهما بلغ من التخلف العقلى مابلغ وهو الذى كرمه ربه على سائر المخلوقات ؟

فالشاعر كاذب العاطفة ونظرته غير إنسانية جملة وتفصيلاً .

ومن موضوعات الرثاء الجديدة المبتكرة فى العصر العباسى الأول رثاء "البستان" للشاعر محمد بن يسير(٢) الرياش، حيث رثى

---

(١) ص٢٢٢ الأوراق .

(٢) شاعر عباسى متقلل وكان ماجناً هجاءً خبيثاً ومن شعراء أهل البصرة وأدبائهم.

بستاناً له فى داره قدره أربعة طوابيق[1] قلعها من داره فغرس فيه أصل رمان وفسيلة[2] لطيفة وزرع حواليه بقلاً فأفلتت شاةً لجار له يقال له : منيع فأكلت البقل ومضغت الخوص ودخلت إلى بيته فلم تجد فيه إلا القراطيس[3] فيها شعره وأشياء أخرى فأكلتها وخرجت فعدا إلى الجيران فى المسجد يشكو ماجرى عليه وأخذ يرثى بستانه ويندبه هاجياً الشاة داعياً عليها بالهلاك[4] فيقول يرثى بستانه ويندبه مصوراً جماله وروعته قبل أن تعبث به شاة منيع :

لى بستان أنيق زاهر	ناضر الخضرة ريان ترف[5]
راسخ الأعراق ريان الثرى	غدقٌ تربته ليست تجف[6]
لمجارى الماء فيه سنن	كيفما صرفته فيه انصرف[7]
مشرق الأنوار مياد الندى	منثنٍ فى كل ريح منعطف[8]
تملك الريح عليه أمره	فإذا لم يؤنس الريح وقف[9]
يكتس فى الشرق ثوبى يمنةٍ	ومع الليل عليها يلتحف[10]
ينطوى الليل عليه فإذا	واجه الشرق تجلى وانكشف

(١) الطابق : الأجر الكبير .

(٢) الفسيلة : النخلة الصغيرة .

(٣) القراطيس : جمع قرطاس وهو مايكتب فيه .

(٤) ص٢١ ومابعدها جـ١٤ الأغانى ، دار الثقافة بيروت عام ١٩٥٩ م .

(٥) أنيق : حسن معجب . ناضر : شديد النضرة . ترف : تروى .

(٦) أرض غدقة : فى غاية الرى وهى الندية المبتلة .

(٧) سنن : جمع سنة وهى الطريقة .

(٨) الأنوار : جمع نور بالفتح وهو الزهر .

(٩) أنس الشىء : أحس به .

(١٠) اليمنة : برد يمنى وهو موش .

صابر ليس يبالى كثرة ... جز بالمنجل أو منه نتف

كلما ألحف منه جانبٌ ... لم يتلبث منه تعجيل الخلف(١)

لاترى للكف فيه أثراً ... فيه بل ينمى على مس الأكف(٢)

فترى الأطباق لاتمهله ... صادرات واردات تختلف

فيه للخارف من جيرانه ... كلما احتاج إليه مخترف(٣)

أقحوان وبهارٌ مونقٌ ... وسوى ذلك من كل الطرف(٤)

وهو زهر للندامى أصلاً ... برضا قاطفهم مما قطف(٥)

وهو فى الأيدى يحيون به ... وعلى الآناف طوراً يستشف(٦)

نرى الشاعر يرثى بستانه ويندبه مصوراً حالته قبل أن تعبث به الشاة وتحدث به الفساد واصفاً هيئته وصفاً ينم عن جمال البستان وروعته وحسنه معدداً ماكان فيه من ثمار وأزهار وورود ورياحين .

ثم أخذ بعد ذلك يهجو الشاة داعياً عليها بالهلاك مبتهلاً إلى الله تعالى أن يعمها بعذابه الأليم وكله حزن وأسى لما أصاب بستانه من فساد من قبل الشاة التى عبثت به .

---

(١) ألحفه : استأصله . ولم يتلبث : أى لم يتوقف ولم يبطىء .

(٢) نمى ينمو نمواً ، ونمى ينمى نمياً ونماء : زاد .

(٣) خرف الثمار : جناها . مخترف : مجتنى .

(٤) الأقحوان : بنات طيب الرائحة . البهار : نبات أصفر طيب الريح . موثق: معجب .

(٥) أصلاً : جمع : أصيل وهو الوقت بعد العصر إلى المغرب . الندامى : جلاس الشراب .

(٦) استشفه : تأمل مافيه . واستشف مافى الإناء : شرب جميع مافيه .

كذلك يعد رثاء الشاعر "محمد بن يسير الرياش" لألواح الآبنوس من موضوعات الرثاء الجديدة فى هذا العصر، فقال يرثيها بعد ماسرقت منه : (١)

عيـن بكـى بعبرة تسفـاح وأقيمى مأتم الألـواح
أوحشت حجزتى وردتانى منهـا فـى بكورى وعند كل رواح (٢)
واذكريهـا إذا ذكـرت بمـا قد كـان فيهـا من مرفق وصلاح
آبنـوسٌ دهمـاء حالكـة اللـو ن لبـاب من اللطاف الملاح (٣)

إلى أن قال :

آب عسرى وغاب يسرى وجودى حيـن غابت وغاب عنى سماحى

ومن موضوعات الرثاء الجديدة فى العصر العباسى الأول رثاء "أبى الشبل عاصم بن وهب البرجمى" "لقنديل" له حطمه كبش كان قد اشتراه للأضحية فقال يرثى سراجه : (٤) .

ياعيـن بكـى لفقـد مسرجـةٍ كانـت عمـود الضيـاء والنـور
كانـت إذا ماالظـلام ألبسنـى من حندس الليل ثوب ديجور (٥)
شقت بنيرانهـا غياطلـه شقـاً دعـا الليـل بالدياجيـر (٦)

إلى أن قال بعد أن عدد بعض مميزاتها :

مسرجتـى لو فديـت مابخلت عنـك يـد الجـود بالدنانيـر
ليـس لنـا فيـك مانقـدره لكنمـا الأمـر بالمقاديـر

---

(١) ص٤٣ - ٤٤ جـ١٤ الأغانى طبعة دار الثقافة ببيروت ١٩٥٩ م .
(٢) الحجزة : معقد الإزار الردين : أصل الكم .
(٣) الدهماء : السوداء . اللب : الخالص .
(٤) ص١٩٥ - ١٩٩ جـ١٤ الأغانى .
(٥) الحندس والديجور : الظلمة .
(٦) غبطلة الليل : تراكم ظلامه .

مسرجتى : كم كشفت من ظلم جليت ظلماءها بنور

وكم غزال على يديك نجا من دق خصييه بالطوامير[١]

إلى أن قال يبكيها ويندبها معلناً عن حزنه وأسفه لفقدها :

أوحشت الدار من ضيائك والـ ـبيت إلى مطبخ وتنور[٢]

قلبى حزين عليك إذ بخلت عليك بالدمع عين تنمير[٣]

إن كان أودى بك الزمان فقد أبقيت منك الحديث فى الدور

ثم أخذ يهجو الكبشى بعد ذلك مصوراً كيفية تحطيمه للقنديل ومصوراً كيفية ذبحه للكبش انتقاماً منه لما فعله بالقنديل قبل ميعاد الأضحية :

ياكبش ذق إذ كسرت مرسجتى لمدية الموت كأس تنحير[٤]

بغيت ظلماً والبغى مصرع من بغى على أهله بتغيير

كذلك قال "أبو الشبل البرجمى" يرثى قرطاساً سرق منه :[٥]

فكر تعترى وحزن طويل وسقيم أنحى عليه النحول

ليس يبكى رسماً ولا طللا محـ ـح كما تندب الربا والطلول[٦]

ثم أخذ ينوح عليه معدداً مميزاته ومنافعه العديدة حتى قال معزياً نفسه داعياً إياها أن تصبر لفقده موجهاً حديثه إلى اللائمين له على بكائه عليه بأن يقلعوا عن هذا اللوم فالخطب جليل لفراق خليل فيقول :

---

(١) الطوامير : الصحف .

(٢) التنور : الكانون يخبز فيه .

(٣) تنمير : إسم امرأته .

(٤) تنمير : ذبح .

(٥) ص١٩٩ - ٢٠١ جـ١٤ الأغانى .

(٦) محت الدار : عفت .

فلئـن شتت الزمـان بـه شمـ ـل دواتـي وحـان منـه رحيـل
لقديماً ماشتت البيـن والألـ ـفة من صاحب، فصبر جميل[١]
لاتلمني على البكـاء عليـه إن فقـد الخليـل خطـب جليـل

وهكذا أخذ الشاعر العباسى يرثى قرطاسه كما رثى مسرحته قبل ذلك بصورة لم يألفها الشعر العربى قبل العصر العباسى الأول فى موضوعات شعر الرثاء .

ومن موضعات الرثاء الجديدة فى العصر العباسى الأول رثاء أبى حكيمة لمتاعه وأتى فى ذلك بما لم يأت به أحد مثله كما يقول ابن المعتز[٢] .

ورثاء ابن الرومى لزرعه من موضوعات الرثاء الجديدة فى هذا العصر أيضاً، حيث قال فى زرع أصيب به يرثيه ويتفجع عليه :[٣]

لـي زرع أتـى عليـه الجـراد عادنى مذ رزئتـه العـواد
كنـت أرجـو حصـاده فأتـاه قبـل أن يبلغ الحصاد - حصاد

وإذا كان الشعراء السابقون على العصر العباسى قد وصفوا الزروع وافتنوا فى وصفها افتنانا إلا أنهم لم يألفوا رثاءها ولم يرثوا الزرع مثلما رثاه ابن الرومى فى العصر العباسى الأول، فهو موضوع جديد من موضوعات الرثاء التى عرفت فى العصر العباسى الأول واستجدت فيه .

وهكذا عرف شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول كثيراً من الموضوعات الرثائية التى لم يعرفها شعر الرثاء فى العصور السابقة وكانت موضوعات جديدة مبتكرة يرجع الفضل فيها إلى شعراء هـذا

---

(١) البين هنا : معناه الوصل .
(٢) ينظر طبقات ابن المعتز ص٣٩٠ .
(٣) ص٦٦٧ جـ٢ ديوان ابن الرومى .

العصر الذين ابتدعوها فى عصرهم ابتداعاً وقد أبدعوا فى رثائها وبرعوا فى ذلك براعة عظيمة قلباً وقالباً وشكلاً وموضوعاً فى أسلوب يتلاءم مع حضارة العصر ورقيه، وبما يوحى برقة المشاعر الإنسانية والعواطف النبيلة تجاه الكائنات الحية الأخرى كالحيوان والطير بل والجماد أيضاً فى صورة جديدة لم يألفها الشعر العربى فى أى عصر من العصور السابقة على العصر العباسى وبما يوحى بما وصل إليه هذا العصر من تقدم حضارى واضح ورقى إنسانى عظيم.

«الفصل السابع»

«الخصائص الفنية لشعر الرثاء
في العصر العباسي الأول»



«الخصائص الفنية للرثاء»

يعد شعر الرثاء من أبرز وأهم الأغراض الشعرية التى وجدت فى العصر العباسى الأول ومن أكثرها تقدما وازدهاراً وتطوراً، وظهرت عبقرية الشعراء العباسيين فى هذا اللون من الشعر ظهوراً واضحاً فى جميع العناصر والخصائص الفنية للقصيدة الرثائية حتى ظهر كثير من القصائد فى شعر الرثاء فى هذا العصر تعد -وبحق- من عيون الرثاء وروائعه فى الشعر العربى فى مختلف العصور السابقة منها واللاحقة للعصر العباسى، ونالت هذه القصائد الرثائية العباسية شهرة عظيمة وأخذت حيزاً كبيراً من اهتمام الباحثين والدارسين والنقاد : شرحاً وتحليلاً ونقداً وإشادة عظيمة بها وذلك مثل : قصيدة دعبل الخزاعى فى رثاء آل البيت والمسماة بالتائية الخالدة، وقصيدة على بن جبلة "العينية" فى رثاء حميد الطوسى والتى استهلها بقوله :

ألِلدهر تبكى أم على الدهر تجزع وماصاحب الأيام إلا مفجع

وقصيدتى أبى تمام : "الرائية" والعينية" المشهورتين فى رثاء محمد بن حميد الطوسى، ومرثيته "الميمية" فى الخليفة "المعتصم"، ومرثية "الحسين بن مطير" فى "معن بن زائدة الشيبانى" ومرثية ابن الزيات" فى زوجته ومرثية "الخريمى" فى مدينة "بغداد"، ومرثية "البحترى" للخليفة المتوكل ومرثية "ابن الرومى" فى ولده الأوسط "الدالية" ومرثيته فى مدينة البصرة ومرثية "ابن العلاف" للهر، ومرثية "ابن المعتز" لأبيه وغير ذلك الكثير والكثير من روائع القصائد الرثائية التى وجدت فى العصر العباسى الأول والتى ذكرتها وتعرضت لها عند الحديث فى أنواع الرثاء وموضوعاته .

وقد تميز فن الرثاء فى العصر العباسى الأول بمميزات وخصائص فنية واضحة شملت جميع عناصره وكان منها القديم

الموروث والجديد المبتكر الذى استجد فى هذا العصر وأصبح شيئاً جديداً احتذاه الشعراء اللاحقون سواء كان ذلك من حيث الموضوعات أو بناء القصيدة أو اللغة والأسلوب والألفاظ والمعانى أو الخيال والتصوير أو الموسيقى أو غير ذلك، وسوف أتناول كل عنصر منها بالحديث المنفرد موضحاً مافيه من تقليد وتطور وتجديد بالشرح والتفصيل .

موضوعـــات الرثـــاء :

عرف شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول جميع الموضوعات التى عرفها شعر الرثاء فى العصور السابقة كرثاء الأبناء والآباء والأمهات والإخوة والأخوات والأزواج والأصدقاء ورثاء الجوارى والعبيد فضلاً عن رثاء العلماء والأدباء ورثاء النفس ورثاء الشباب وغير ذلك، من موضوعات الرثاء الاجتماعى كما عرف رثاء الخلفاء والأمراء والوزراء والقواد والأئمة ورثاء القتلى فى المعارك والحروب وغير ذلك من موضوعات الرثاء السياسى وهذه كلها موضوعات تقليدية موروثة عرفها الأدب العربى منذ الجاهلى وظلت فى العصر العباسى الأول إلا أنها قد أخذت حيزاً أكبر وكماً أعظم فى هذا العصر مما كانت عليه سابقاً وهذا يعد تطوراً - وإن لم يكن عظيماً - فى حد ذاته حيث رأينا كماً هائلاً وفيضاً زاخراً فى هذه الموضوعات التقليدية فى شعر العصر العباسى الأول بما لم يوجد له مثيل من قبل فى هذا الفن الرثائى وتجلى ذلك بوضوح فى كل الموضوعات الرثائية تقريباً .

وقد غلب على قصائد الرثاء فى العصر العباسى الأول تخصيص القصيدة كلها على مرثى واحد بعينه حيث تدور القصيدة كلها فى رثاء شخص واحد من أولها حتى آخرها دون أن تتعداه إلى رثاء آخرين معه، ومع ذلك وجدنا قصائد أخرى تتضمن أكثر من

مرثى فى موضوعها، فقد جمعت بين اثنين أو أكثر وتعرض الشاعر فيها لرثاء أكثر من شخص إلا أنها كلها فى الرثاء ومن هذا القبيل قصيدة "سلم الخاسر" التي يرثى فيها "معنا بن زائدة الشيبانى" ومالكاً وشهاباً ابنى عبد الملك بن مسمع حيث يقول يرثيهم :(١)

عيـــن جودى بعبــــرة تهتـان	واندبى من أصاب ريب الزمان
وإذا مابكيــت قومـــاً كرامـــاً	فعلـى مالــك أبــى غســان
أين معن أبو الوليد ومــن كـــا	ن غياثــاً للهالـــك الحيــران ؟
وشهــابٌ وأيــن مثــل شهــاب	عنـد بـذل النـدى وحر الطعان

ومن هذا القبيل أيضاً قول "أبى تمام" يرثى "ابنى عبد الله بن طاهر" وكانا صغيرين حيث قال فيهما :(٢)

نجمــان شــاء اللــه ألا يطلعا	إلا ارتــداد الطرف حتى يأفلا
إن الفجيعة بالريــاض نواضراً	لأجـل منهـا بالريـاض ذوابــلا
لـو ينسـآن لكـان هـذا غاربـاً	للمكرمــات وكـان هـذا كاهـلاً

والقصيدة طويلة أخذ الشاعر فيها يرثى ولدين اثنين فى قصيدة واحدة، وهى من روائع شعره فى فن الرثاء وتبدو فيها مقدرته الفائقة وتملكه لأدوات شعره وفنه، فرثاء الأطفال من صعب الرثاء على الشعراء لضيق الكلام عليهم وقلة الصفات التى للأطفال.

وللشاعر نماذج أخرى غير هذه القصيدة ضم فى موضوعها أكثر من مرث واحد"(٣).

وهناك نماذج أخرى من هذا القبيل فى شعر رثاء العصر مثل رثاء "البحترى" لأبـى تمام "ودعبل" فـى قصيدة واحــدة(٤)، ورثـــاء

---

(١) الأغانى جـ١٩ ص٢٨١ . طبعت دار الكتب المصرية .

(٢) ص١١٣ - ١١٨ جـ٤ ديوان أبى تمام .

(٣) ينظر على سبيل المثال ديوانه جـ٤ ص٦٠ و ص٧٤ .

(٤) ص١٣٨٦ جـ٣ ديوانه .

"محمد بن زياد" وزوجته معاً فى قصيدة واحدة[١].

وإذا كانت القصيدة الرثائية فى العصر العباسى الأول قد تنوعت فى موضوعها بين قصيدة ترثى مرثياً واحداً وقصيدة ترثى اثنين أو أكثر فإن هناك من قصائد الرثاء فى هذا العصر مالم يتضمن مرثيين معينين بل نظمت فى رثاء الموتى على سبيل العظة لغيرهم من الأحياء ويحتل "أبو العتاهية" الشاعر الزاهد المرتبة العظمى فى هذا الميدان حيث نراه فى كثير من شعره يتعرض للأموات فيرثيهم على سبيل العظة والعبرة لغيرهم ويعد هذا تطوراً فى حد ذاته فى موضوع القصيدة الرثائية فى العصر العباسى الأول، ومما قاله أبو العتاهية فى هذا القبيل كثير وكثير :[٢]

ومن هذا القبيل قول الحمانى يرثى الموتى ويعظ بذلك غيرهم:[٣]

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم	غُلْب الرجال فما أغنتهم القلـل
واستنزلوا بعد عز من معاقلهـم	فأودعـوا حفـراً يابئـس مانزلوا
ناداهم صارخٌ مـن بعـد ماقبـروا	أيـن الأسـرة والتيجـان والحلـل
وأفصح القبر عنهم حين سا ءلهم	تلـك الوجوه عليها الدود يقتتـل
قد طالما عمروا دوراً لتحصنهم	ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا

وهى أبيات رائعة تذيب القلوب وتفتت الأكباد وتسيل الدموع وتهز القلوب من أساسها هزاً، وقد بكى عند سماعها الخليفة "المتوكل" بكاء طويلاً حتى بلت دموعه لحيته وبكى كل من سمعها من الحاضرين وقت إنشاد الشاعر لها وهو فى مجلس شراب كما أورد المسعودى" .

---

(١) الأوراق ص١٢٩ .

(٢) ينظر ديوان أبى العتاهية ص ، ص .

(٣) ص١١ جـ٤ مروج الذهب للمسعودى .

كذلك ظهر فى العصر العباسى الأول الرثاء على لسان الأخرين حيث يأخذ الشاعر فى رثاء شخص على لسان شخص آخر وهو مالم يوجد قبل العصر العباسى الأول، ويتجلى ذلك فى مراثى "العباسى بن الأحنف" لجوارى الخليفة "الرشيد" على لسانه حينما طلب منه الخليفة ذلك وقد مرت الأمثلة عند تعرضنا لرثاء الجوارى[١].

وإذا كان شعراء العصر العباسى قد رثوا الموتى وأبنوهم وعزوا فيهم فإننا وجدنا منهم من رثى حياً لم يمت وأخذ يؤبنه ويندبه ويتفجع عليه وهو على قيد الحياة وإن كان ذلك نادراً، ومن هذا القبيل رثاء أبى نواس لخلف الأحمر وهو حى يرزق بأكثر من قصيدة[٢] .

كذلك وجدت موضوعات جديدة للرثاء فى العصر العباسى الأول واستجدت لأول مرة فى الشعر العربى فى هذا العصر ويرجع الفضل الأول فيها لشعرائه وهى : رثاء المدن ورثاء القصور ورثاء الحيوان الألف ورثاء الطيور الأليفة ورثاء الزرع ورثاء البستان ورثاء لوح الآبنوس فهذه موضوعات جديدة وضروب استجدت وظهرت فى العصر العباسى الأول ولم يألفها شعر الرثاء فى العصور السابقة، وتعد موضوعات جديدة للرثاء فى هذا العصر بكل معنى الكلمة حيث توطدت علاقة الإنسان العباسى بهذه الموضوعات بما لم تشهده علاقة الإنسان بهذه الموضوعات من قبل بسبب ما طرأ على العصر العباسى من تقدم حضارى واسع وبزخ وترف فى مناحى الحياة بما لم يكن له مثيل من قبل .

فالشاعر العباسى قد عرف جميع موضوعات الرثاء التقليدية الموروثة فى شعره وتناولها تناولاً واضحاً مكثراً منها كثرة فاقت

---

(١) ينظر ديوان العباسى بن الأحنف ص٧٩ و ص١٧٨ و ص٣٤ .

(٢) ينظر ديوان أبى نواس ص٤٣١ - ٤٣٢ و ص٤٣٣ .

العصور السابقة كما عرف موضوعات جديدة مبتكرة جاءت بها مخيلة شعراء العصر العباسي وإليهم يرجع فضل السبق والابتكار فيها .

بناء القصيدة :

القصيدة الرثائية في العصر العباسي الأول اتخذت بناءً متعدداً وأشكالاً مختلفة فأحياناً جاءت قصائد طويلة وأحياناً متوسطة وأحياناً مقطوعات قصيرة تتراوح بين البيتين والعشرة أبيات . إلا أن الغالب على القصيدة الرثائية في هذا العصر القصيدة الطويلة ويتجلى هذا بوضوح في كثير من شعر الرثاء العباسي في عصره الأول أمثال : قصيدة بشار في رثاء ابنه محمد ومرثية دعبل في رثاء آل البيت "التائية الخالدة، ومرثية مروان بن أبي حفصة في معن بن زائدة الشيباني ومرثية علي بن جبلة في حميد الطوسي ومراثي "أبي تمام" في رثاء "محمد بن حميد الطوسي" وولده والخليفة "المعتصم" وقصيدة "مسلم بن الوليد في يزيد بن مزيد الشيباني وقصيدة الحسين بن مطير في معن بن زائدة ومرثية ابن الرومي لولده الأوسط ومرثيته في الجارية "بستان" والتي بلغت نحو مائة وخمسة وستين بيتاً[1] ومرثيته في مدينة البصرة ومرثية الخزيمي في بغداد ومرثية البحتري للمتوكل ومرثية عبد الله بن المعتز للمعتضد ودولته وغير ذلك الكثير مما تعرضنا له سابقاً أثناء الحديث عن أنواع الرثاء وموضوعاته والكثير مما لم نتعرض له وهو كائن في دواوين شعراء العصر وكتب الأدب والتاريخ التي سجلت لنا أشعار العصر العباسي الأول، وأحياناً أخرى جاءت قصيدة الرثاء متوسطة فلا هي بالطويلة ولا هي بالمقطوعة القصيرة كقصيدتي أبي نواس في رثاء الخليفة الأمين[2] ومرثية أبي تمام في رثاء بعض بني حميد[3].

---

(٢) ينظر القصيدة في موضعها من الكتاب في رثاء الخلفاء .

(٣) ص٧٤ - ٧٦ جـ٤ ديوان أبي تمام .

وأحياناً أخرى تأتى القصيدة الرثائية فى شكل مقطوعة قصيرة ترددت بين بيتين وعشرة أبيات، مثل قول محمد بن يسير يرثى نفسه فى مجلس أبى محمد الزاهد صاحب الفضيل بن عياض: (١) .

ويــل لمــن لــم يرحــم اللـــه	ومـــن تكـــون النـــار مثـــواه
وأغفلنــا فــى كــل يوم مضــى	يذكرنـــى المـــوت وأنســـاه
مـن طال فـى الدنيـا بـه عمـره	وعـــاش فالمـــوت قصـــاراه
كأنـــه قـد قيــل فـى مجلـس	قـــد كنـــت آتيـــه وأغشـــاه
محمـــد صـــار إلـــى ربـــه	يرحمنـــا اللـــه وإيـــاه

وهناك كثير من المقطوعات القصيرة فى الرثاء والتى تعرضت لها عند الحديث فى أنواع الرثاء وموضوعاته والتى ترددت بين بيتين وخمسة أبيات مثل : رثاء بشار لابنته، ورثاء اليتمى لولده، ورثاء أبى العتاهية لنفسه ورثاء أشجع لأخيه ورثاء المأمون لجاريته ورثاء بوران للمأمون ورثاء ابن المعتز لابنته، وغير ذلك مما هو كائن فى الفصول السابقة من الكتاب ومما هو مسجل فى دواوين شعراء العصر وكتب الأدب التى سجلت شعر العصر العباسى الأول .

فشكل القصيدة الرثائية فى العصر العباسى الأول قد تطور فى اتجاهين متقابلين إتجاه طالت فيه القصيدة الرثائية حتى بلغت من الأبيات:مائة ومائتين، واتجاه آخر اتجه نحو المقطوعة القصيرة المحدودة الأبيات والتى بلغت حداً عظيماً من القصر حتى بلغت أربعة أبيات والثلاثة بل والبيتين فقط وهذا أكبر تطور وصلت إليه قصيدة الرثاء فى شكلها وهيكلها، وقد أعطى كل من الاتجاهين عطاء غير قليل وإن كان الاتجاه الأول - وهو الاتجاه نحو الإطالة - أكبـــر وأكثـر وأعظـم مـن الاتجـاه الثانى لأنـــه هـو الذى يتـلاءم

---

(١) ص٣٨ جـ١٤ الأغانى ، طبعة دار الثقافة ببيروت .

ومقام الحزن والبكاء وعظم الخطب، فقد قيل للبعض متى يحتاج إلى الإكثار - أى الإطالة - قال : إذا عظم الخطب" .
فعظم المصيبة وفداحة الخطب مع براعة الشاعر ومقدرته الفائقة وتملكه من أدواته الشعرية تجعل الشاعر يتجه نحو الإطالة ويتضح ذلك فى قصائد الرثاء الطويلة فى العصر العباسى الأول حينما يرثى الشاعر المتمكن عزيزاً لديه قد رزء بفقده .

أما المقطوعة القصيرة فتكون عند التعبير عن خاطر وارد أو شعور حاد فى لحظة من اللحظات دون أن يتوسع فيه أو يولد منه مايصنع قصيدة طويلة وتكون إذا قل الخطب أو لم تسعف الشاعر ذاكرته ليتجه نحو الإفاضة والإطالة وإن كان الخطب جليلاً .

وإذا كانت القصيدة الرثائية فى العصر العباسى الأول قد ترددت بين الطول والقصر ووجدت القصائد المطولات بجوار المقطوعات فقد جاءت القصيدة الرثائية - غالباً - دون تمهيد أو تقديم لها بالنسيب والوقوف على الأطلال وبكاء الديار والتغزل بالمحبوبة كما كان يفعل شعراء العصر مع قصيدة المدح أو الفخر أو غيرها فمعظم القصائد الرثائية فى العصر العباسى الأول خلت من هذه المقدمة الطللية وهذا التمهيد الموروث المعروف منذ العصر الجاهلى حيث كان الشعراء غالباً مايفتتحون قصائدهم بالنسيب وبكاء الأطلال وهو تقليد موروث محبوب إلا حينما كانوا ينشدون فى فن الرثاء فقد كانوا لايقدمون نسيباً على الرثاء وهذه عادة الشعراء منذ القدم فيقول ابن رشيق : "وليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيباً كما يصنعون ذلك فى المدح والهجاء وقال ابن الكلبى - وكان علامة - لاأعلم مرثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصمة :

أرث جديد الحبل من أم معبد   بعافية وأخلفت كل موعد (١)

وقد نحى شعراء العصر العباسى الأول نحو الشعراء القدامى فلم يقدموا لقصائدهم الرثائية بمقدمة طللية ولم يمهدوا لها بالنسيب وذكر الأحبة وجاءت قصائدهم الرثائية خالية من هذا المطلع وهذه المقدمة، وذلك لأن شعر الرثاء لايتلاءم مع هذا المطلع ولايتناسب مع هذه المقدمة الغزلية فالرثاء حزن وبكاء والنسيب حب وعبطة ولايتلاءم هذا مع ذاك .

ومع ذلك وجدنا نماذج نادرة من القصائد الرثائية فى العصر العباسى الأول قد مهد لها ناظموها بالنسيب وذكر الأحبة فجاءت مخالفة لما عليه عامة شعر الرثاء فى هذا العصر، ومن هذا القبيل النادر مرثية أشجع السلمى للخليفة الرشيد حيث تغزل بجارته تسمى "ريم" وكان يحبها حباً شديداً، فيقول فيها: (٢)

وليس لأحزان النساء تطاول	ولكن أحزان الرجال تطول
فلاتبخلى بالدمع عنى فإن من	يضن بدمع عن هوىً لبخيل
ولاكنت ممن يتبع الريح طرفه	دبوراً إذا هبت له وقبول
إذا دار فجىء أتبع الفىء شخصه	يميل مع الأيام حيث تميل

ومهما يكن من أمر ذلك فإن ذلك لم يكن شائعاً وجاءت هذه النماذج مخالفة ماألفته قصيدة الرثاء ونهجته فى نهجها .

ومن الواضح أيضاً فى نهج القصيدة الرثائية فى هذا العصر أنها ضمت موضوعاً واحداً فى بنائها (وهو الرثاء) فمعظم القصائد

(١) ص١٥١ جـ٢ العمدة .

(٢) ص١٤١ الأوراق للصولى .

الرثائية فى العصر العباسى الأول لم تشتمل إلا على فن الرثاء ولم تحتو على أكثر من غرض شعرى سوى غرض الرثاء حيث سيطر الرثاء على كل القصيدة من أولها حتى آخر بيت فيها ولم يشركه غرض آخر سوى الرثاء .

ومع ذلك وجدت القصيدة الرثائية التى اشتملت على الرثاء ومعه غرض شعرى آخر: كالتهنئة أو الهجاء أو غير ذلك من الأغراض حيث جمع الشعراء فى القصيدة الواحدة بين الرثاء وفن شعرى آخر سواه، ويعد ابن رشيق الجمع بين الرثاء والتهنئة صعباً فيقول : "ومن صعب الرثاء جمع تعزية وتهنئته فى موضوع، قالوا : لما مات معاوية اجتمع الناس بباب يزيد، فلم يقدر أحد على الجمع بين التهنئة والتعزية حتى أتى عبيد الله بن همام السلولى فدخل فقال : ياأمير المؤمنين ، آجرك الله على الرزية وبارك لك فى العطية وأعانك على الرعية فقد رزئت عظيماً وأعطيت جسيماً فاشكر الله على ماأعطيت واصبر على مارزئت فقد فقدت خليفة الله وأعطيت خلافة الله، ففارقت جليلاً ووهبت جزيلاً، إذ قضى معاوية نحبه ووليت الرياسة وأعطيت السياسة فأورده الله موارد السرور ووفقك لصالح الأمور :

فاصبر يزيد فقد فارقت ذا ثقة ... واشكر حباء الذى بالملك أصفاكا
لارزء أصبح فى الأقوام نعلمه ... كما رزئت ولاعقبى كعقباكا
أصبحت والى أمر الناس كلهم ... فأنت ترعاهم والله يرعاكا
وفى معاوية الباقى لنا خلفٌ ... إذا نعيت ولانسمع بمنعاكا

ففتح للناس باب القول"(١)

فالجمع بين الرثاء والتهنئة من صعب الرثاء لأن الشاعر يجمع فى القصيدة الواحدة وفى الموقف الواحد بين متناقضين : حزن وسرور وألم وغبطة وتعزية وتهنئة .

---

(١) ص١٥٥ جـ٢ العمدة .

ومن هذا القبيل (الجمع بين الرثاء والتهنئة) - فى الشعر العباسى قصيدة "مروان بن أبى حفصة" التى يعزى فيها الهادى بوفاة "المهدى" ويهنىء "الهادى" بالخلافة حيث يقول من بحر الطويل: (١)

لقد أصبحت تختال فى كل بلدة ... بقبر أمير المؤمنين المقابر
أتته التى ابتزت سليمان ملكه ... وألوت بذى القرنين منها الدوائر
أتته فغالته المنايا وعد له ... ومعروفه فى الشرق والغرب ظاهر
ولو كان تجريد السيوف يردها ... ثنت حدها عنه السيوف البواتر
بأيد بها تعطى الصوارم حقها ... وتروى لدى الروع الرماح الشواجر
ولو لم تسكن بابنه بعد موته ... لما برحت تبكى عليه المنابر

ومن الجمع بين الرثاء والتهنئة مرثية "أبى دلامة" التى يرثى فيها الخليفة "المنصور" ويهنىء فيها الخليفة "المهدى"، حيث يقول فيها: (٢)

عينان : واحدة ترى مسرورةً ... بإمامها جذلى وأخرى تذرف
تبكى وتضحك مرةً ويسوءها ... ما أبصرت ويسرها ما تعرف
فيسوءها موت الخليفة محرماً ... ويسرها أن قام هذا الأرأف
ما إن رأيت ولاسمعت كما أرى ... شعراً أرجله وآخر أنتف
هلك الخليفة يالأمة أحمد ... فأتاكم من بعده من يخلف
أهدى لهذا الله فضل خلافة ... ولذاك جنات النعيم تزخرف
فابكوا لمصرع خيركم ووليكم ... واستشرفوا لمقام ذا وتشرفوا

فالقصيدة جيدة استطاع أن يجمع الشاعر فيها بين الرثاء والتهنئة فى كل بيت من أبياتها ولم تأت أبيات للرثاء مستقلة وأبيات للتهنئة مستقلة فالمعنيين فى كل بيت، وكل بيت فيه الرثاء

---

(١) ص٤٨ شعر مروان بن أبى حفصة .
(٢) ص٦٠ طبقات الشعراء لابن المعتز .

والتهنئة وهذا مما زاد القصيدة حسناً وروعة وتدل على براعة الشاعر ومقدرته الفائقة .

ومن الجمع بين الرثاء والتهنئة قول أبي الشيص الخزاعى يرثى الرشيد ويمدح الأمين بقوله : (١)

جـرت جـوار بالسعـد والنحس فنحـن فـى وحشـة وفـى أنـس

العيـن تبكى والسـن ضاحكـة فنحـن فى مأتـم وفـى عـرس

يضحكنـا القائـم الأميـن وتبـ ـكينـا وفـاة الإمـام بالأمس

بدران : بدر أضحى ببغداد فى الـ ـخلـد ، وبـدر بطـوس فى الرمس

ومن هذا القبيل قول "أبى تمام" يمدح "الواثق" ويهنئه بالخلافة ويرثى "المعتصم بالله" فى قصيدته التى يبدؤها بقوله : (٢)

مااللدمـوع تـروم كـل مـرام والجفـن ثاكـل هجعة ومنـام

وقصيدة "ابن الزيات" التى يرثى فيها "المعتصم" ويهنىء "الواثق"، وقصيدة "الحسين بن الضحاك" التى يرثى فيها "المعتصم" ويهنىء الواثق، وقصيدة "البحترى" التى يرثى فيها "الموفق" ويهنىء "المعتضد"، وقصيدة "ابن الجهم" التى يرثى فيها "عبد الله ابن طاهر" ويمدح فيها ولده طاهراً، وقد مرت هذه القصائد عند الحديث فى أنواع الرثاء وموضوعاته .

وإذا كان الشعراء العباسيون قد جمعوا بن الرثاء والتهنئة والمدح فى بعض قصائدهم فإنهم كذلك جمعوا بين الرثاء والهجاء فى قصيدة واحدة، ومن هذا القبيل قول "الحسين بن الضحاك" يرثى "محمداً الأمين" ويهجو "المأمون" :(٣)

---

(١) ص٤٣٧ الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق / د . مفيد قميمة دار الكتب العليمة ببيروت .

(٢) ص٢٠٣ جـ٣ ديوان أبى تمام .

(٣) ص٨٥٤ تجريد الأغانى ، القسم الأول .

أطل جزعاً وابك الإمام محمداً بحـزن وإن خفت الحسام المهندا
فلا تمت الأشيـاء بعـد محمـد ولازال شمل الملك فيـه مبـدداً
ولافـرح المأمـون بالملـك بعـده ولازال فى الدنيا طريداً مشرداً

ومن الجمع بين الرثاء والهجاء قصيدة ابن الرومى الطويلة التى تبلغ ثمانية وثمانين بيتاً يهجو فيها صاعداً وابنه أبا عيسى ويرثى داليته فيهما والتى يبدؤها بقوله :(١)

راع قلبى مشيب رأسى خليـس راع جهلـى والكيس بالتكييس

هذا وهناك أمثلة أخرى من هذا القبيل التى تجمع بين الرثاء والهجاء فى قصيدة واحدة(٢).

كذلك عرفت القصيدة الرثائية فى العصر العباسى الأول الوحدة العضوية كما عرفت الوحدة الموضوعية والتى أثبتناها وسجلناها سابقاً حيث كان الطابع الأغلب على القصيدة الرثيائية وحدة الموضوع حيث لم تتضمن إلا موضوعاً واحداً وغرضاً معيناً بعينه فى القصيدة وهو فن الرثاء .

فالقصيدة الرثائية فى الشعر العباسى قد رتبت أفكارها بعضها آخذ برقاب بعض ولم يعد وحدة البيت هو المنوط كما كان ذلك معروفاً من قبل، فقصيدة الرثاء فى العصر العباسى الأول وحدة متماسكة يكمل بعضها بعضا ويسودها جو شعورى واحد هو الشعور بالحزن والتعبير عن هذا الشعور بما يتلاءم ومقام الرثاء فى وحدة عضوية وفنية رائعة، ويتجلى هذا بوضوح فى معظم قصائد الرثاء التى نظمت فى العصر العباسى الأول كمرثية العبلى فى رثاء دولة بنى أمية (٣) ومرثية ابن الرومى لولده الأوسط "محمد" فضلاً

---

(١) ص١٢٠٩ جـ٣ ديوان ابن الرومى .

(٢) ينظر ديوان دعبل ص١٨٥ والمنتخب من أدب العربى جـ٣ صـ٧٤ .

(٣) ص٢٧٩ جـ١١ الأغانى طبعة دار الثقافة ببيروت .

مراثى أبى تمام فى ولده ومحمد الطوسى وغير ذلك من مراثى العصر العباسى .

اللغة والأسلوب :

اللغة : هى أداة الشاعر لتوصيل تجربته الشعرية وأفكاره وتصويره وخياله وهى مادته وخامته التى يصنع منها شعره وأدبه، وهى مجموع من الأصوات المقطعة إلى مقاطع تمثل تتابعاً زمنياً لحركات وسكنات فى نظام اصطلح الناس على أن يجعلوا له دلالات بذاتها. وبهذا المعنى تكون اللغة الدالة تشكيلاً معيناً لمجوعة المقاطع أو الحركات والسكنات خلال الزمن غير أن اللغة وإن كانت زمانية فى طبيعتها إلا أنها تحمل فى الوقت نفسه دلالات مكانية.. والشاعر حين يستخدم اللغة أداة للتعبير إنما يقوم بعملية تشكيل مزدوجة فى وقت واحد . إنه يشكل من الزمان والمكان معاً بنية ذات دلالة"(١) .

وتعد اللغة العربية من أرقى لغات العالم وأرقى لغة فى اللغات السامية وتمتاز بكثرة مرونتها وإتساع اشتقاقاتها بما فيها من مجاز وقلب ونحت وإبدال وغير ذلك من الأمور والخصائص التى جعلتها دائماً مرنة حية راقية استطاعت أن تعبر عن كل منحى من مناحى الحياة فى مختلف العصور وأن تكون وسيلة لنقل كل جديد من العلوم والآداب الأجنبية إلى اللغة العربية .

"وقد تضخم معجم اللغة العربية فى العصر العباسى واتسع اتساعاً كبيراً من طريقين : الأول : وهو الأكثر التوسع فى مدلول الكلمات العربيـة فالعربـى لم يكن يعـرف الفاعل والمفعول بالمعنـى

---

(١) ص٤٧ - ٤٨ التفسير النفسى للأدب، للدكتور/ عز الدين إسماعيل ، الطبعة الرابعة مكتبة غريب .

الذى يفهمه النحوى ولايعرف القضية ولاالموضوع ولاالمحمول بالمعنى الذى يفهمه المنطقى ولايعرف الطويل والخفيف والمديد بالمعنى الذى يفهمه العروض وهكذا .. وكان علماء اللغة يعملون جهدهم فى الأخذ عن الأعراب ويجتهدون فى وضع الصبغة التى يفهمها الأعرابى وبهذا كثرت معانى الكلمات العربية ، والثانى : نقل الكلمات الأعجمية نفسها إلى اللغة العربية وأكثر ماكان ذلك فى أسماء البلدان والنباتات والحيوانات والآلات والأمراض والمآكل التى لم يكونوا يعرفونها من قبل "(١)

فاللغة العربية فى العصر العباسى قد اتسعت مدلولاتها وعظم معجمها عما كان معروفاً من قبل فى العصور السابقة وشملها التقدم والتطور والرقى شأنها فى ذلك شأن بقية مناحى الحياة والعصر.

لقد تقبل شعراء العصر الأموى كل خصائص الشعر العربى التى كانت موجودة قبلهم فى العصرين : الجاهلى والإسلامى بكل قبول وارتياح وذلك لغلبة الطابع العربى على الدولة الأموية فى كل منحى من مناحيها، لكن اختلف الحال فى العصر العباسى الأول حيث كان العصر عصراً إسلامياً متحضراً ضم جميع المسلمين من عرب وعجم وتحول المجتمع العباسى من مجتمع عربى بدوى فى العصر الأموى إلى مجتمع إسلامى متحضر ضم جميع الحضارات العربية والأعجمية: من فارسية وهندية ورومية ويونانية وغير ذلك وعاش شعراء العصر العباسى الأول نمطاً جديداً من الحياة المتحضرة ومع ذلك فقد ظلت اللغة العربية بكل ميراثها التعبيرى - فضلاً عما استحدث فيها من مدلولات تتفق وقواعد اللغة العربية - الأداة التعبيرية لكل ألوان الفن القولى خاصة الفن الشعرى بجميع فنونه

(١) ص٢٩١ - ٢٩٢ جـ١ ضحى الإسلام لأحمد أمين .

وأغراضه ومنه فن الرثاء بوجه أخص حيث كانت لغته سهلة جزلة بعيدة عن كلام العامة والألفاظ الحشوية متمشية مع وجه الاستعمال ولم تخرج عليه ملتزمة قواعد اللغة العربية ومتنها واشتقاقاتها الصرفية متجنبة ارتكاب الضرورات إلى حد بعيد .

وجاءت لغة الرثاء قوية جزلة بعيدة عن التوعر والهبوط إلى درك التعبير بالعامية وبعيدة عن الابتذال والغرابة والحوشية والالتباس والتنافر بين الحروف وكل عيب يشين جمالها وروعتها حتى من جانب الشعراء غير العرب من الأعاجم .

وإذا كان بعض الشعراء قد وقع في بعض الأخطاء النحوية أو لجأ إلى الضرورات - وإن كان ذلك نادراً - فى شعره فإن ذلك كان بعيداً عن شعر الرثاء عنده، حيث ابتعد شعر الرثاء كلية عن هذه الأخطاء وتلك الضرورات الشعرية ولم يؤثر فيه شيئ من هذا القبيل النادر .

وإذا كان الشعراء العباسيون قد وجدوا أنفسهم أمام اتجاهين مختلفين فى هذا العصر : أولهما اتجاه تقليدى موروث حث عليه ودافع عنه علماء اللغة والأدب ورواة الشعر والفقهاء والعلماء حفاظاً على لغة القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، وثانيهما : اتجاه واقعى يعبر عن واقع حياتهم وعصرهم الجديد المتحضر فى مختلفة نواحى الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية إلا أنهم سايروا هذين الاتجاهين ومضوا فى أشعارهم آخذين بهما من غير أن يتركوا أحدهما ويأخذوا بالآخر، فهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا من قوالب الشعر القديمة وقيوده ونماذجه التى سيطرت على علماء اللغة ورواة الشعر والعلماء والفقهاء والخلفاء الذين اهتموا بالقديم وشجعوا عليه وهم فى نفس الوقت لايستطيعون إهمال ماجد فى عصرهم ومجتمعهم من تطور وتقدم كما لم يستطيعوا إهمال جوانب

حياتهم الذاتية وتجاربهم الشخصية فى شعرهم الرثائى وإن بدا هذا الشعر الرثائى يميل إلى الاتجاه الأول ميلاً غير قليل، حيث غلبت القوة والجزالة على لغته وألفاظه إلا أنه ابتعد عن الغرابة والوعورة والوحشية اللهم إلا نادراً حيث استخدم بعض الشعراء فيه بعض الألفاظ المعجمية التى تعوز القارىء إلى معاجم اللغة كى ينشرها بين يديه ليسهل له معرفتها وذلك مثل ماورد فى قصيدة "عبد الملك ابن عبد الرحيم " فى رثاء أخيه وتائية "دعبل" فى رثاء آل البيت الخالدة.

ومرثية مروان بن أبى حفصة فى "معن بن زائدة "ومرثية؛ "مسلم بن الوليد" فى يزيد الشيبانى(١).

ومن سمات لغة الرثاء فى هذا العصر وجود بعض الألفاظ الأعجمية المعربة التى وردت بين ثنايا شعر الرثاء خاصة الألفاظ الفارسية، التى تسربت من قديم إلى اللغة العربية عن طريق التجارة والاختلاط فضلاً عن ترجمة علوم الفرس وآدابهم فى العصر العباسى على أكبر نطاق، حيث أخذ المثقفون من الفرس ينقلون إلى العربية تراث آبائهم وماحفظته العصور إلى عهدهم"(٢) .

ومن هذا القبيل ماجاء فى قول البحترى يرثى : المتوكل :(٣)

تعرض ريب الدهر من دون فتحه وغيب عنه فى خراسان طاهره

فضلاً عن بعض الألفاظ السريانية : مثل لفظ "الصليب" والنصارى . "والإنجيل" والبطريق "والقس " والناقوس " وغير ذلك من الألفاظ الأعجمية التى وردت فى لغة شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول .

---

(١) تنظر القصائد فى مواضعها من الكتاب فى الفصول السابقة .

(٢) ص١٧٥ - ١٧٦ جـ١ ضحى الإسلام لأحمد أمين .

(٣) ديوانه جـ٢ ص١٠٤٦ .

وهكذا وردت بعض الألفاظ الأعجمية إلى شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول - وإن كان أقل الأغراض الشعرية استخداماً لمثل هذه الألفاظ الأعجمية فقد شاعت هذه الألفاظ فى شعر الخمر والغزل والطبيعة شيوعاً واضحاً نظراً لبيئة هذا الشعر ومكانه حيث كانت الأديرة والحانات مرتعاً خصباً ومكاناً مشهوراً للهو وتعاطى كئوس الخمر والهوى وفضلاً عن ملاءمة هذه الأغراض لاستخدام مثل هذه الألفاظ الأعجمية بخلاف شعر الرثاء .

المهم أن شعر الرثاء العباسى قد وردت فيه هذه الألفاظ الأعجمية، لأن الأدب ظل الحياة الاجتماعية ومظهر من مظاهرها ولأن الأديب فى كل عصر تواق إلى استعمال ألفاظ وكلمات من عصره وحياته أصيلة كانت أم دخيلة"(١).

ومع ذلك فقد ظل شعراء العصر العباسى الأول يحافظون بكل قوة على اللغة العربية وقواعدها متمكنين من الوقوف على دقائقها جاهدين على أن يحتفظوا بالصياغة العربية الأصيلة فى شعرهم وعلى رأسه شعر الرثاء .

الأسلـــوب :

اختلف الباحثون والدارسون فى تحديد الأسلوب وتعريفه وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى، فقد عرفه ابن خلدون : بأنه : "عبارة عن المنوال الذى ينسج فيه التراكيب أو القالب الذى يفرغ فيه ولايرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصلى المعنى الذى هو وظيفة الأعراب "أى النحو" ولاباعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التركيب الذى هو وظيفته البلاغة والبيان ولاباعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذى هو وظيفته العروض وإنما يرجع إلى صورة

---

(١) ص١٩٧ اتجاهات الغزل فى القرن الثانى الهجرى ، د / حسين بكار.

ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص. وتلك الصورة التى ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويعيدها فى الخيال كالقالب والمنوال ثم ينتقى التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان فيرمها فيه رصاً كما يفعل البناء فى القالب والنساج فى المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربى فيه فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص فيه وتوجد فيه على أنحاء مختلفة"(١)

وعرفه الإمام عبد القاهر : بأنه الضرب من النظم والطريقة فيه"(٢) ويرى الأستاذ أحمد الشايب : أنه طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعانى قصد الإقناع والتأثير أو هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير"(٣) .

وعرفه الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى بقوله : "إنه نهج الكاتب والشاعر فى صوغ أدبه وشعره وأداء أفكاره ومعانيه والطريقة التى يسير عليها فى اختيار كلماته وتراكيبه ومايؤثر فى لغة تعبيره وتصويره من سهولة أو غرابة ومن عذوبة أو جزالة ومن وضوح أو خفاء وطبع أو صنعة وألوان الصنعة فى شعره وأدبه من تشبيه واستعارة وكناية وطباق ومقابلة وتعليل ومبالغة وتورية وتدبيج وعكس ومشاكلة، وطرق الأداء التى يسير عليها فى صياغة من تقديم وتأخير وذكر أو حذف وفصل أو وصل وإيجاز أو إطناب

---

(١) ص٥٧٠ مقدمة ابن خلدون، نشر الدكتور / على عبد الواحد وافى ، القاهرة مطبعة البيان العربى عام ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م .

(٢) ص٣٠٥ دلائل الأعجاز، طبعة رشيد رضا، شركة الطباعة الفنية الحديثة، القاهرة ١٩٦٠م .

(٣) ص٣٣ - ٣٩ الأسلوب .

إلى غير ذلك من شتى أوصاف الأسلوب ومايراعيه الكاتب والشاعر من أوصاف فى بد كلامه وفى فصوله وخاتمته"[١].

فضلاً عن تعريفات أخرى للأسلوب ذهب كل دارس فيه مذهبه وعرفه بتعريفه الخاص به[٢] .

ولعل أدق تعريف له هو تعريف ابن خلدون وإن كان يسبق كثيراً من الباحثين الذين تعرضوا لتعريف الأسلوب فى عصره .

ومن المعروف أن لكل غرض شعرى أسلوباً يتلاءم ويتناسب معه فأسلوب المدح مثلاً يختلف عن أسلوب الغزل والشاعر الحاذق هو الذى يضع كل شىء فى موضوعه فالشدة فى موضع الشدة واللين فى موضع اللين، والجزل فى موضعه والسهل فى موضعه فإن وافق فقد أصاب وإن خالف فقد جانب الصواب .

ويرى الأستاذ حازم القرطاجنى أن يكون أسلوب الرثاء : شاجى الأقاويل مبكى المعانى مثيراً للتباريح وأن يكون بألفاظ مألوفة سهلة[٣].

وقد اتسم أسلوب الرثاء فى العصر العباسى الأول بالقوة والإتساق والروعة والتماسك والتسامى عن الضعف والتراخى فى معظمه ، يتمثل هذا فى قصائد الرثاء الرائعة فى هذا العصر كقصيدة دعبل "التائية الخالدة" فى رثاء آل البيت ومرثية "مسلم بن الوليد فى يزيد الشيبانى ومرثية" على بن جبلة

---

(١) ص١٦٧ الحياة الأدبية (عصر بنى أمية) ، الطبعة الثانية ١٩٧٣م دار الكتاب اللبنانى ببيروت .

(٢) ينظر على سبيل المثال ، ص٧٤ و ص٧٥ و ص٧٦ علم الأسلوب د/ صلاح فضل و ص١٤٨ و ص١٤٩ بناء القصيدة فى النقد العربى القديم، د / يوسف حسين بكار .

(٣) ص٣٥١ من البلغاء وسراج الأدباء / تحقيق / محمد الحبيب بن الخوجة دار الكتب الشرقية ، بتونس ، طبع عام ١٩٦٦م .

فى حميد الطوسى ومرثية مروان بن أبى حفصة في معن بن زائدة ومراثى "أبى نواس" فى الأمين ومراثى "أبى تمام" فى "محمد الطوسى" ومرثية "البحترى" فى الخليفة "المتوكل" ومرثية "ابن الرومى" لولده الأوسط ومرثية "الخزيمى" فى بغداد وغير ذلك من هذه القصائد المحكمة النسج القوية الأسلوب البارعة الصياغة .

ومع قوة الأسلوب وتساميه عن اللين والوهن فى شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول فقد بعد بألفاظه عن الغرابة والجهامة والوحشية، فعظم المصيبة وهول الفجيعة تتطلب أسلوباً قوياً يبرزها ويصور قوة وقعها وأثرها لكن فى وضوح معان ودقة ألفاظ تماماً كما رأيناه فى معظم رثاء العصر العباسى الأول على اختلاف أنواعه وموضوعاته .

ومن خصائص أسلوب الرثاء فى هذا العصر شيوع ألوان البديع على اختلاف أنواعها المختلفة وألوانها المتعددة من : طباق وجناس ومقابلة ومراعاة نظير وتورية ومشاكلة وغير ذلك من هذه الألوان .

وإن كان شعراء البديع فى هذا العصر قد تكلفوا البديع أحياناً فى بعض أشعارهم فإن شعر الرثاء لم يكن مجالاً رحباً لهذا التكلف البديعى لأن المقام هنا ليس مقام تكلف وتصيد للبديع وليس المجال مجالاً للدعابة والتطرف والتظرف فى استخدام البديع فمصيبة الموت التى لاتعد لها أى مصيبة مهما عظمت ترباً بالشاعر عن أن يكون متكلفاً للبديع متصيداً له فليس الظرف مناسباً للعب بالألفاظ فى هذا الموقف الصعب الحزين .

فالصبغ البديعى فى أسلوب شعر الرثاء جاء عفوياً دون تكلف أو تصيد بل استدعاه المعنى وطلبه المقام، يتجلى هذا بوضوح فى شعر الرثاء العباسى على اختلاف أنواعه وموضوعاته .

فمن الطباق ماورد فى قول بشار يرثى ولده :[١]

ومانحن إلا كالخليط الذى مضى   فرائس دهر مخطىء ومصيب

إذا شئت راعتنى مقيماً وظاعناً   مصارع شبان لدى وشيب

حيث طابق بين : مخطىء ومصيب فى البيت الأول وطابق بين مقيم وظاعن وشبان وشيب فى البيت الثانى .

وقول أبى تمام يرثى ولده :[٢]

بعيد دار قريب جار   فى جدث للثرى دفينا

وقول ابن الرومى فى رثاء ولده : [٣]

طواه الردى عنى فأضحى مزاره   بعيداً على قرب قريباص على بعد

هذا والأمثلة كثيرة ومتعددة في رثاء العصر .

ومن الجناس ماجاء فى قول أبى تمام يرثى جارية له :[٤]

أصبت بخود سوف أغبر بعدها   حليف أسى أبكى زماناً زمانها

وقول عبد الله التيمى يرثى ولده :[٥]

أودى بحبان مالم يترك الناسا   فامنح فؤادك من أحبابك الياسا

فبين : الناس والياسا جناس ناقص .

ومراعاة النظير فى قول أبى محمد بن يوسف يرثى أباه :[٦]

تطاول فى بغداد ليلى وضافنى   نزيلاً جوى بين الحشا والترائب

وقول أبى تمام فى رثاء أخيه : (٧)

---

(١) ص٢٧٩ جـ١ ديوانه .

(٢) ص جـ ديوانه .

(٣) ص٦٢٤ جـ٢ ديوان الشاعر .

(٤) ص١٤٢ جـ٤ ديوان الشاعر .

(٥) ص٤٥ جـ٢٠ الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى .

(٦) ص٢٣٨ الأوراق للصولى .

(٧) ص١٤٦ جـ٤ ديوان الشاعر .

ياهول ماأبصرت عيني وماسمعت   أذنى فلابقيت عينـى ولاأذنـى

هذا والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة حيث يذخر بها شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول .

كذلك عرف أسلوب الشعر الرثائى فى العصر العباسى الأول أسلوب التورية(١) والاقتباس القرآنى(٢) والتعدد(٣) وأسلوب القسم(٤) فضلاً عن بقية الألوان البديعة الأخرى .

وإذا كان أسلوب شعر الرثاء فى هذا العصر قد عرف فنون البديع فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى(٥) إلا أن الجديد فى هذا العصر أن الصبغ البديعى أصبح مذهباً فنياً له أسسه وقواعده وصناعته .

كما نستطيع أن ندحض الرأى القائل : إن البديع أثر من آثار الفرس الذين امتزجوا بالعنصر العربى فى هذا العصر امتزاجاً"(٦)، فمتى كان امتزاج العرب الجاهليين بالفرس ؟ .

المعانـــى :

أخذت قضية اللفظ والمعنى جانباً كبيراً من اهتمام النقاد العرب وتفاوتت مذاهبهم فيها تفاوتاً واضحاً ودارت حولها دراسات وبحوث ومناظرات استحوذت على جانب كبير من كتب الأدب والنقد، وبالرغم من ذلك فإنها من أعقد القضايا النقدية القديمة وأكثرها اضطراباً على الرغم من كل هذه الدراسات الكثيرة والعناية العظيمة بها .

---

(١) ينظر ص٦٧٣ تجريد الأغانى القسم الأول .

(٢) ينظر ص١٨٥ ومابعدها لأوراق للصولى .

(٣) ينظر ص٢٨٢ جـ١٩ الأغانى . و ص١٨٥ الأوراق للصولى .

(٤) ينظر ص٥٥ جـ١٩ الأغانى و ص٢٧٨ جـ١ ديوان بشار .

(٥) ينظر ص٨٤ ديوان امرىء القيس .

(٦) ص٣٥٤ المقارنة بين الشعر الأموى والعباسى .

وأستطيع أن أقسم مواقف النقاد من هذه القضية إلى عدة مواقف وفرق متعددة : فطائفة جعلت كل همها فى اللفظ وركزت عليه دون المعنى وكان الجاحظ على رأس هذه الطائفة حيث يقول : ".. والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى والمدنى وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء"(١) وطائفة ثانية جعلت عنايتها للمعنى واحتفلت به احتفالاً عظيماً دون اللفظ وإن كان بعضها لم يغفل اللفظ تماماً، أمثال : ابن شرف(٢) القيروانى والمرزوقى(٣) وابن الأثير(٤) وغيرهم من نقاد هذا الاتجاه .

وطائفة ثالثة : اهتمت باللفظ والمعنى معاً وجعلتهما ركنين مهمين من أركان الأدب وربطت بينهما ارتباطاً وثيقاً لافرق بين العنصرين فهما عنصر واحد، ويعد عبد القاهر الجرجانى زعيم هذه الطائفة وأكبر ناقد عربى تناولاً وتفصيلاً لهذه القضية "قضية اللفظ والمعنى " أو قضية "النظم"(٥) .

---

(١) ص١٣١ - ١٣٢ جـ٣ الحيوان، تحقيق / عبد السلام هارون، الطبعة الأولى طبعة الحلبى بالقاهرة عام ١٩٣٨م .

(٢) ينظر : أعلام الكلام : ص٣٧ - ٣٨ ، الطبعة الأولى ، مطبعة النهضة بالقاهرة عام ١٩٢٦م .

(٣) ينظر : مقدمة ديوان الحماسة : ص١٨ - ١٩ جـ١ تحقيق / أحمد أمين وعبد السلام هارون الطبعة الأولى، لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٥١م .

(٤) ينظر : المثل السائر : ص٣٥٣ - ٣٥٥ جـ١ تحقيق / محمد محى الدين عبد الحميد مطبعة الحلبى بالقاهرة عام ١٩٣٩م .

(٥) ينظر : دلائل الأعجاز، وأسرار البلاغة فى مواضع عديدة منهما .

ويعد قدامة بن جعفر واحداً بارزاً فى هذا الاتجاه ويتحلى ذلك فى قوله : "... ولما كان لكل واحد من هذه الثمانية (اللفظ والمعنى والوزن والقافية) صفات يمدح بها وأحوال يعاب من أجلها، وجب أن يكون جيد ذلك ورديئه لاحقين للشعر إذ كان ليس يخرج شيىء منه عنها"(١)

ومن هذه الطائفة الناقد الأديب ابن قتيبة حيث قسم الشعر إلى أربعة أضرب مهتما باللفظ والمعنى معاً حيث قال : "تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه .. وضرب منه حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى .. وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه . وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه"(٢).

ومن هذه الطائفة كذلك أبو هلال العسكرى ، حيث قال : "وإذا كان المعنى صواباً واللفظ بارداً وفاتراً كان مستنهجاً ملفوظاً ومذموماً مردوداً .. ولاخير فى المعانى إذا استكرهت قهراً والألفاظ إذا اجترت قسراً ولاخير فيما أجيد لفظه إذا سخف معناه ولافى غرابة المعنى إلا إذا شرف لفظه مع وضوح المغزى وظهور المقصد"(٣) .

ونحن نرى أن اللفظ والمعنى ضروران ومهمان ولاافضل لأحدهما على الآخر والعمل الأدبى الجيد هو ماجاد لفظه ومعناه معاً

---

(١) ص٢٦ نقد الشعر ، تحقيق / كمال مصطفى ، الطبعة الثالثة مكتبة الخانجى بالقاهرة .

(٢) ص١٣ - ١٥ الشعر والشعراء، تحقيق / د مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأول عام ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م .

(٣) ص٧٤ - ٧٥ الصناعتين، تحقيق / د/ مفيد قميحة، الطبعة الثانية عام ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م دار الكتب العلمية ببيروت .

وتآلفت فيه جميع العناصر والأركان الأدبية : من تجربة وعاطفة ووزن وموسيقى وقافية وخيال وتصوير، فالعمل الأدبى كل متكامل لايغنى فيه عنصر عن عنصر آخر فلاتغنى الألفاظ الجيدة عن المعانى الجيدة ولايغنى التصوير عن الموسيقى ولاالأفكار عن العاطفة وهكذا، فالكلام الجيد يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته وتخير لفظه وإصابة معناه وجودة مطالعه ولين مقاطعة واستواء تقاسيمه وتعادل أطرافه وتشبه اعجازه بهواديه وموافقة مآخيره لباديه" كما يقول أبو هلال العسكرى(١)، وليس كل الشعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى ولكنه قد يختار ويحفظ على أسباب أخرى"(٢) .

فالمهم أن جودة العمل الأدبى لاترجع إلى اللفظ وحده كما لاترجع إلى المعنى وحده ولاإليهما معاً فقط ولكن لجودة جميع العناصر والأركان فى العمل الأدبى ومنها المعنى .

وقد ردد الشعراء العباسيون كثيراً من معانى الأقدمين فى شعرهم الرثائى وتأثروا بها تأثراً كبيراً، ولاغنى للشاعر عن اتباع من سبقه من الشعراء ولايعد ذلك سرقة فالمعانى يستدعى بعضها بعضاً كما قال الدكتور محمد مندور"(٣) .

فمن ذلك خطاب العين فى قول ابن الرومي يرثى ابنه .

بكاؤكما يشفى وإن كان لايجدى ... فجودا فقد أودى نظير كما عندى

فقد كان ذلك معروفاً من قبل، حيث قالت الخنساء ترثى أخاها صخراً :

---

(١) ص١٦٩ الصناعتين .
(٢) ص٢٣ - ٢٩ الشعر والشعراء لابن قتيبة .
(٣) ص١٨٢ النقد المنهجى عند العربى، للدكتور محمد مندور، دار نهضة مصر للطبع والنشر بالفجالة القاهرة .

أعينـــى جـــوداً ولاتجمــدا   ألا تبكيـــان لصخـــر النـــدى

ومثل قول أشجع السلمى يرثى أخاه :

خليـل لاتستبدعـا ماانتظرتمـا   فـإن قريبـاً كـل ماكـان آتيـا

ويمنعنـى مـن لذة العيـش أننـى   أراه إذا قارفـت لهـواً يرانيـا

أخذ هذا المعنى من قول ابن الدمينة :

وإنـى لاستحييـك حتـى كأنما   علـى بظهر الغيب منك رقيـب(١)

ومنه قول أبى تمام :

خلقنـا رجـالاً للتجلـد والأسـى   وتلـك الغوانـى للبكى والمآتـم

أخذه من قول عبد الله بن الزبير لما قتل مصعب : "وإنما التسليم والسلوة لحزماء الرجال وإن الهلع والجزع لربات الحجال" .

هذا والأمثلة كثيرة على ذلك، فليس لأحد غنى عن تناول المعانى ممن تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم"(٢)

وإذا كان الشعراء العباسيون قد تأثروا فى رثائهم بمعانى الأقدمين فإنهم أتوا بالرائع والساحر المبتدع منها وصالت مخيلة الشعراء وجالت فى عالم المعانى حتى استخرجت كثيراً منها من مكامنها فكان لهم فضل السبق والابتكار والروعة وهى كثيرة تزخر بها دواوين شعراء العصر ويفيض بها أشعارهم، منها : ماجاء فى فى رثاء أبى تمام :(٣)

مضى طاهر الأخلاق لم يبقى بقعة   مـن الأرض إلا واشتهـب أنها قبـر

فالمعنى جديد مبتكر لم يسبق إليه الشاعر العباسى .

ومنها قوله فى رثاء زوجته :

---

(١) ص٤٦٣ الشعر والشعراء لابن قتيبة .

(٢) ص٣١٧ الصناعتين . لأبى هلال العسكرى .

(٣) ص٨٥ جـ٤ ديوانه .

وكنــت أرجى القرب وهى بعيـدة ... فقـد نقلت بعدى عن البعـد والقرب
لها منـزل تحـت الثـرى وعهدتـها ... لهـا منـزل بيـن الجوانـح والقلب

وقوله فى رثاء الطوسى :

فتى مات بين الضرب والطعن ميتة ... تقـوم مقام النصـر إذ فاته النصر
لئن أبغض الدهـر الخئـون لفقـده ... لعهـدى بـه ممـن يحب لـه الدهـر
وكيف احتمالـى للسحاب صنيعـة ... بإسقائـه قبـراً وفـى لحده البحر

ومنه ماورد فى رثاء أبى نواس للأمين :(١)

طوى الموت مابينى وبين محمد ... وليـس لما تطـوى المنيـة ناشـر
وكنت عليه أحذر المـوت وحـده ... فلم يبق لى شىء عليـه أحاذر
لئـن عمـرت دون بمـن لاتحبـه ... لقد عمـرت ممـن تحـب المقابـر

فالمعانى جديدة رائعة مبتكرة .

ومنها قول مسلم بن الوليد :

أرادوا ليخفوا قبـره عـن عـدوه ... فطيب تراب القبر دل على القبر

وقيل إن هذا البيت أرثى بيت قالته العرب فى الجاهلية والإسلام.(٢) ومن هذا القبيل ماجاء فى مرثية ابن الزيات لزوجته حيث لم يعدد الشاعر الصفات أو يدعو بالسقيا للقبر وغير ذلك مما هو معروف بل ترك العنان لنفسه يقول مايشاء ويفصح عما بداخلها من أحزان حسبما تريد، وتركيزه على طفله الذى تركته أمه باحثاً عنها باكياً عليها بينما الأطفال يمرحون مع أمهاتهم من حوله .

هذا والأمثلة كثيرة على المعانى المبتكرة فى شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول وتزخر بها قصائد الرثاء فى هذا العصر، كقصيدة دعبل الخزاعى " النائبة الخالدة" وقصائد أبى تمام فى الرثاء وقصائد ابن الرومى لابنه الأوسط ومدينة بغداد ولأمه .

(١) ص٣٤٢ ديوان أبى نواس .
(٢) ص١٥٠ جـ٢ العمدة .

وقصيدة "ليلى بنت طريف ،فى أخيها "الوليد بن طريف" وغير ذلك من مثل هذه القصائد الرائعة فى هذا العصر والتى تزخر بكثير من المعانى الرائعة والمبتكرة .

ومع ذلك وجدنا فى شعر الرثاء العباسى بعض المعانى غير الجيدة والتى وقعت فى منحدر الرداءة، كقول أبى العتاهية :

مـــات الخليفـــة أيهـــا الثقـــلان فكأننى أفطرت فى رمضان[١]

فلم يكن الشاعر موفقاً فى شطره الثانى .

وجاءت معانى شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول واضحة بعيدة عن الغموض والخفاء والالتباس والتعقيد ونرى فيها القديم الموروث والجديد المبتكر الذى جاءت به مخيلة الشعراء فى هذا العصر بل ربما كانت المعانى من أبرز العناصر التى ظهرت فيها مقدرة الشعراء فى هذا العصر وبراعتهم فى ابتكار كثير منها فى كل الفنون الشعرية ومنها شعر الرثاء .

وقد دارت معانى الرثاء فى هذا العصر حول تصوير المصيبة ووصفها وصفاً ممتزجاً بالأسى وتصوير الحزن والألم وبيان عظم المصيبة وتوضيح أثرها على الشاعر وأهل المرثى والمجتمع كله إذا كان المرثى عظيماً، والسخط على المنايا وأخذ العهد بالبكاء على الميت وشكوى الدهر مما فعله بهذا المرثى وطلب البكاء على الميت والسلام على قبره والدعاء له وتصوير دفنه وكيفية موته والثورة العارمة على القتلة إذا كان المرثى مقتولاً كما هو واضح فى مرثية البحترى للمتوكل، والتأثر بالروح الإسلامية حيث الرضى بقضاء الله وأن لكل أجل كتاباً إلى غير ذلك .

فضلاً عن ذكر فضائل الميت وتعداد مناقبه وشمائله وخصاله ودارت فى معظمها حول الشجاعة والعفة والعدل ورجاحة العقل

---

(١) ص ديوان أبى العتاهية .

والكرم والسخاء والحياء والعلم والحلم والقناعة والوفاء والبر والتنزه وغير ذلك من هذه الصفات الحميدة والخصال النبيلة .

وكانت هذه الصفات والفضائل تختلف وتتغير من مرثى إلى آخر وفقاً لتغير وظيفته ومكانته فى المجتمع والدولة فللخلفاء صفاتهم ومناقبهم وللوزراء صفاتهم وللقواد صفاتهم وللعلماء والأدباء صفاتهم وللأصدقاء صفاتهم وللأبناء والآباء والإخوة صفاتهم وللبنات والأمهات صفاتهن وللجوارى صفاتهن، وللمدن صفاتها وللحيوانات والطيور صفاتها إلى غير ذلك حيث كانت الصفات تتلاءم مع المرثى وتتناسب مع مكانته ووضعه .

وقد ظهر البكاء والعويل والنحيب والندب فى رثاء الأهل والأقارب ورثاء الشيعة لأئمتهم بصورة واضحة، كما ظهر التأبين والثناء فى رثاء الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة بصورة واضحة.

وقد اتسمت معانى شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول بالدقة والوضوح وتظهر فيها حضارة العصر ورقية وثقافته المتعددة والتأثر بعلوم الفلسفة وعلم الكلام(١) فضلاً عن التأثر ببعض العقائد الشيعية والتى تجلت فى رثاء الشيعة لأئمتهم ورثاء أشجع السلمى للخليفة الرشيد حيث ذكر أن نور الخليفة مقتبس من نور النبى صلى الله عليه وسلم(٢)، كما تكثر فيها التقسيمات الطريفة التى تعد من بدع العصر ومستحدثاته الطريفة، فمن التقسيمات الطريفة التى تعد من بدع العصر ومستحدثاته الطريقة، فمن التقسيمات الطريقة ماجاء فى رثاء البحترى لأم المتوكل: (٣)

غـروب دمع من الأجفان تنهمـل	وحرقـة بغليــل الحـزن تشتعـل
إن لـج حـزن فلايـدع ولاعجــب	أو قــل صبـر فـلالـوم ولاعـذل

(١) ص (٢) ص١٢٩ الأوراق للصولى .

(٣) ص١٨٨٣ جـ٣ ديوان الشاعر .

وماورد فى قصيدة ابن دريد التى يرثى فيها الإمام الشافعى[١] .

ومن التقسيمات البديعة، ماورد فى قول أبى نواس :[٢]

أيـــارب وجه فى التـراب عتيق ويـــارب حسن فى التراب رقيـق
ويارب حزم فى التراب ونجـدة ويـــارب رأى فــى التراب وثيـق

ومما يتصل بالمعانى : المبالغة والغلو والإغراق، وقد استحسنه بعض النقاد فى الشعر مثل قدامة بن جعفر حيث قال :"إن الغلو عندى أجود المذهبين وهو ماذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديماً .. وقد بلغنى عن بعضهم أنه قال : أحسن الشعر أكذبه"[٣].

والغلو فى الشعر ليس مذهباً جديداً فى الشعر العباسى بل عرفه الشعر العربى منذ القدم إلا أنه انتشر فى العصر العباسى انتشاراً واضحاً وأصبح من أهم سمات الشعر العباسى بوجه عام ومنه شعر الرثاء، حيث ذهب الشعراء يغالون فى وصف المصيبة وعظم مكانة المرثى ويظهر ذلك بوضوح فى رثاء الخلفاء والقواد ورثاء الأبناء فلذات الأكباد، ومن هذا القبيل : قول مسلم بن الوليد فى رثاء يزيد الشيبانى :

أرادوا ليخفـــوا قبره عن عــدوه فطيـب تراب القبر دل على القبر

وقول العبلى فى رثاء دولة بنى أمية :[٤]

فبنو أمية خير من وطىء الثرى شرفـاً وأفضل ساسـةٍ أمراؤها

---

(١) ينظر ص٢٣ ديوان الشافعى، وقد مرت القصيدة فى رثاء العلماء .
(٢) ص٥٨٧ ديوان الشاعر .
(٣) ص٦٢ نقد الشعر .
(٤) ص٢٩٠ جـ١١ الأغانى .

والأمثلة على ذلك كثيرة تزخر بها مراثى شعراء العصر العباسى الأول وتفيض بها أشعارها الرثائية فى مختلف أنواع الرثاء وموضوعاته القديمة منها والجديدة .

الخيال والتصوير :

إن للخيال دوراً بارزاً فى إحياء الصورة الأدبية ويعد قلب المحاور الفنية فى التصوير وله دخل كبير فى إثارة العاطفة وتجميع جزئيات الصوررة ويمنح الشعر "الروح الخرافية وروح الأساطير التى تطل من عالم غريب ويبعث فى النفس ضروباً من التطلع والتشوق والارتياح والإثارة ويعطى القدرة للشعر كى يبعث فى النفس الراحة من عناء الحياة المادية أو يكشف لها طريق الهروب[١] .

فالخيال عنصر مهم من عناصر تشكيل الصورة الأدبية ويمنح لها الحياة والحيوية والبقاء والخلود .

وقد أدرك ذلك النقاد العرب القدامى فدعوا إلى الخيال فى صناعة الشعر حتى يكون الشاعر شاعراً حقاً[٢] .

وقد اختلف الباحثون فى تعريف الخيال وتحديده وذهبوا فيه مذاهب متعددة، فقد عرفه بعضهم : بأنه "إبراز الأفكار وتوضيحها فى قوالب من المجاز المشتمل على التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز المرسل وغيرها .. كما ذهب معظم النقاد الأقدمون كالآمدى والجرجانى وابن رشيق وغيرهم .

وعرفه آخر : "بأنه تجسيم الحقائق وتكبيرها بقصد التوضيح والتزيين وإضافة بعض الأصباغ إلى الصورة الأم لتقوية المعنى

---

(١) ص٤١ تاريخ النقد العربى للدكتور : محمد زغلول سلام طبعة دار المعارف عام ١٩٦٤م .

(٢) ينظر ص٩٦ جـ٢ العمدة لابن رشيق .

وإيقاظ المشاعر وتنبيهها ولفت انتباهها"[١] ويرى الدكتور غنيمى هلال : "أن الخيال نوع من تصوير الحقيقة عن طريق المشابهة التى لاتزال تباشر سلطانها على العقل منذ لحظة إدراكها"[٢] .

والكلام المشتمل على الخيال أكثر روعة وأكبر أثراً فى القلوب والأسماع ويزيد الكلام حسناً وجمالاً وبهاء .

أما الصورة فهى عبارة عن "العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى فى نص أدبى والحصيلة الناجمة عن اقترانهما فليست هى اللفظ بمفرده ولاالمعنى بمفرده ولكنها الخصائص المشتركة بينهما والتى تتقوم بها شخصية النص الأدبى[٣]، سواء كانت ناجمة عن كلام مشتمل على التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز المرسل أم لا.

وقد اعتمد شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول اعتماداً كبيراً على الخيال فى إبراز أفكاره ومعانيه وصوره وراح شعراؤه يتفننون فى استخدامه ويتوسلون به فى جلاء صورهم الشعرية وإبراز أفكارهم فى ثوبها الفنى حتى تجاوزوا بالتعبير البسيط عن الحقيقة إلى ماهو أبعد وأعمق من ذلك حيث اتجهوا إلى ألوان المجاز خاصة التشبيه والاستعارة وجعلوها متكأ لإبراز أفكارهم وصورهم ومعانيهم وأكثروا منها فى شعرهم الرثائى ولكنها ظهرت من خلال عيونهم ممزوجة بأفكارهم وعواطفهم وابتكروا صوراً جديدة من عصرهم وبيئتهم. ولقد ازدحمت دواوين شعراء العصر العباسى الأول بألوان الخيال - من تشبيه واستعارة وكناية - فى مختلف الأغراض

---

(١) ص١٤٣ إتجاهات الغزل فى القرن الثانى الهجرى . للدكتور : يوسف بكار .

(٢) ص٤١٥ النقد الأدبى . محمد غنيمى هلال .

(٣) ص٥١ أبو نواس وقضية الحداثة فى الشعر، الدكتور : العربى حسن درويش ، الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٨٧م .

الشعرية خاصة شعر الرثاء علي تنوع موضوعاته واتجاهاته مما يدل على خصب خيال شعراء العصر العباسى الأول الذين عاشوا حياتهم فى مجتمع جديد مليىء بمادته الطبيعية وثقافته المتنوعة وحضارته الزاهية .

فبجانب ألوان الخيال القديمة التى احتذاها شعراء العصر العباسى الأول فى شعرهم الرثائى نجد ألواناً خيالية جديدة ابتكرها شعراء العصر ويرجع إليهم الفضل فى السبق إليها. وأشعارهم الرثائية تفيض بها إفاضة عظيمة، فقد جمع الشعراء بين القديم والجديد المبتكر فى ألوان الخيال والتصوير الشعرى .

ويعد التشبيه أبرز ألوان الخيال وأكثرها فى تشكيل الصورة وتوضيح مفهومها في شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول سواء كان قديماً احتذاه شعراء العصر أم كان جديداً مبتكراً لم يسبقوا إليه.

فمن القديم ماورد فى رثاء بشار لابنه محمد :(١)

كأنــى غريب بعد مـوت محمـد لـو أن المنايـا ترعـوى لطبيـب

وماورد فى قول ابن الرومى يرثى ولده مشبهاً له بعينيه:(٢)

بكائوكما يشفى وإن كان لايجدى فجـودا فقد أودى نظير كما عندى

وماجاء فى رثاء الرقاشي للبرامكة :(٣)

أصبـت بسـادة كانـوا نجومـاً بهـم نسقـى إذا انقطـع الغمـام

هذا وتزخر قصائد الرثاء على اختلاف موضوعاتها بمثل هذه التشبيهات القديمة التى اتبعها شعراء العصر فى مراثيهم حيث لاغنى للشاعر مهما بلغت ثقافته ومقدرته عن اتباع غيره من الشعراء الذين سبقوه .

---

(١) ص٢٧٨ جـ١ ديوان الشاعر .
(٢) ص٦٢٤ جـ٢ ديوانه .
(٣) ص٣٤٠ جـ١ وفيات الأعيان .

ومن التشبيهات المبتكرة ماجاء فى رثاء أبى تمام يرثى أخاه: (١)

لله ألحاظه والموت يكسرها	كأن أجفانه سكرى من الوسن
يرد أنفاسه كرها وتعطفها	يد المنية عطف الريح للعقد

وماورد فى قول ليلى الأخيلة فى رثاء أخيها: (٢)

فقدناك فقدان الربيع وليتنا	فديناك من دهمائنا بألوف

ومانراه فى رثاء ابن الرومى لولده الأوسط محمد : (٣)

توخى حمام الموت أوسط صبيتى	فلله كيف اختار واسطة العقد
ألح عليه النزف حتى أحاله	إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد
وظل على الأيدى تساقط نفسه	تساقط درٍ من نظام بلاعقد

هذا والأمثلة على ذلك كثيرة وتزخر بها أشعار الرثاء فى العصر العباسى الأول، وقد استمدها شعراء العصر من بيئتهم وحياتهم الجديدة وأعانت عليها ثقافتهم الواعية والحضارة والتقدم اللتان سادتا العصر العباسى الأول .

كذلك اعتمد الشعراء العباسيون اعتماداً كبيراً على فن الاستعارة فى تصوير صورهم وإبراز أفكارهم ومعانيهم واتخذوا منها هى الثانية متكئاً لبعث الحياة والروح والحركة فى صورهم ومشاهدهم فى مراثيهم .

فمن ذلك ماورد فى رثاء أبى تمام لمحمد الطوسى : (٤)

فتى كلما فاضت عيون قبيلة	دماً ضحكت عنه الأحاديث والذكر
أمن بعد طى الحادثات محمداً	يكون لأثواب الندى أبدا نشر؟

---

(١) ص١٤٦ جـ٤ ديوان أبى تمام .

(٢) ص١٣٧٥ تجريد الأغانى .

(٣) ص٦٢٤ جـ٢ ديوان ابن الرومى .

(٤) ص٧٩ - ٨٥ جـ٤ ديوان الشاعر .

وماجاء فى قول الحسين بن مطير يرثى معناً:(١)

ألما بمعن ثم قولا لقبره ... سقتك الغوادى مربعاً ثم مربعاً

حيث جعل أبو تمام الأحاديث تضحك وللندى أثواباً، وأرسل الحسين التحية للقبر.

هذا والأمثلة على ذلك وتفيض بها أشعار الرثاء فى العصر العباسى الأول على اختلاف موضوعاتها واتجاهاتها.

وإذا كان شعراء العصر العباسى الأول قد اعتمدوا اعتماداً كبيراً على ألوان الخيال - خاصة التشبيه والاستعارة - فى إبراز صورهم وأفكارهم ومعانيهم فإننا مع ذلك وجدنا كثيراً من الصور الرائعة التى بناها شعراؤها على الوصف التصويرى دون اعتماد على تشبيه أو استعارة أو مجاز، ومن ذلك ماورد فى قصيدة أبى تمام التى يرثى فيها ولده ويصور حالة احتضاره وحالته هو من بعد فقده(٢) وماورد فى قصيدة الخُرَيمى التى يرثى فيها مدينة بغداد(٣) وماورد فى قصيدة ابن الرومى التى يرثى فيها مدينة البصرة(٤). حيث صور الشعراء صورهم ووصفوا مشاهدهم وصفاً واقعياً دون الاتكاء على ألوان الخيال والاعتماد عليها اعتماداً كبيراً.

الأوزان والقوافى :

يعد الوزن العروضى من أهم عناصر العمل الشعرى وأحد أركانه، وقد جعل العرب الوزن والقافية من عناصر الشعر العربى وإلا فهو ليس من قبيل الشعر عندهم، فلا شعر دون وزن وقافية.

---

(١) ص١٨٠ جـ٥ نهاية الأرب.

(٢) تنظر القصيدة فى موضعها فى رثاء الأبناء.

(٣) تنظر القصيدة فى موضعها فى رثاء المدن.

(٤) تنظر قصيدته ص٢٣٧٧ جـ٦ ديوانه.

وحينما نتصفح شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول نجد أنه قد التزم الوزن والقافية التزاماً تاماً ولم يحاول شعراؤه الخروج على الوزن العروضى المعروف أو تنويع القافية على الرغم من محاولتهم ذلك فى بعض الأغراض الشعرية الأخرى مثل : الغزل ووصف الخمر وغيرهما .

والشاعر العباسى شاعر مثقف فنان يختار لموضوعات الشعر مايلائمه من بحور العروض، فنجده فى الموضوعات الجدية مثل : المدح والرثاء يؤثر البحور الطويلة وينظم عليها قصائده وفى الموضوعات الهزلية يؤثر البحور القصيرة أو المجزوءة وينظم عليها أشعاره .

وشعر الرثاء من الموضوعات الجدية بل أجدها جميعاً لذا رأينا شعراء العصر العباسى ينظمون مراثيهم على بحور الشعر الطويلة : مثل البحر الطويل والكامل والوافر والبسيط والمنسرح والمتقارب وغيرها من البحور الطويلة .

وليس معنى ذلك أن الشعراء خصصوا البحور الطويلة للموضوعات الجدية والبحور القصيرة للموضوعات الهزلية بل كان ذلك هو الأعم الأغلب فى شعرهم، وجاءت معظم أشعار الرثاء فى العصر العباسى الأول على البحور الطويلة .

وقد التزم شعراء العصر العباسى الأول بالقافية الموحدة فى قصائدهم الرثائية فلم ينوعوا قوافيها أو يعددوا فيها، وقد نظموا شعرهم الرثائى على معظم حروف الهجاء العربية إلا أنهم كانت لهم المقدرة الفائقة على اختيار القافية التى تلائم شعر الرثاء والتى تساعد على إشاعة معنى الحزن والأسى فى قصائدهم .

كذلك وجدت قصائد ذات قواف داخلية متحدة غير القافية الموحدة فى آخر الأبيات وذلك مثل قول أبى العتاهية فى رثائه العام للموتى :(١)

وذوو المنابر والعساكر والدساكر والحضائر والمدائن والقرى
وذوو المواكب والكتائب والنجائب والمراتب والمناصب فى العلى .

(١) ديوانه : ص٨ .

«الخاتمـــة»

أما بعد : فقد تناولت هذا البحث بالدراسة المستفيضة المتخصصة وأستطيع القول بأنها أول دراسة مستقلة تختص بشعر الرثاء ودراسته فى العصر العباسى الأول الذى يبلغ القرنين من السنين والذى بحثت فيه شعر الرثاء فى هذا العصر موضحاً اتجاهاته كاشفاً ماطرأ عليه من التقدم وماظهر فيه من الجديد متعرضاً لخصائصه الفنية معتمداً على كثير من النماذج الشعر للتدليل والبرهان آخذاً فى شرحها ونقدها وتحليلها معتمداً على الموازنة التى هى ضرب من ضروب النقد فى كثير من الأشعار .

وقد اشتمل البحث على مقدمة وسبعة فصول وخاتمة :

وتحدثت فى المقدمة عن أهمية الموضوع ودواعى اختياره والمنهج الذى التزمته وأهم المصادر والمراجع التى استعنت بها فى البحث .

وفى الفصل الأول : تكلمت بإيجاز عن الرثاء وألوانه حيث عرفت الرثاء لغة واطلاحاً وذكرت وجه الشبه والاختلاف بينه وبين المدح متعرضاً للآراء المختلفة فى ذلك مسجلاً رأيى الشخصى نحو هذا الموضوع، ثم تعرضت لشعر الرثاء فى العصر الجاهلى فذكرت أن الرثاء من موضوعات الشعر القديمة التى عرفها الشعر الجاهلى سواء كان ندباً أم تأبيناً أم عزاءً وأن الشعراء الجاهلين قد عرفوا الرثاء الاجتماعى : الذى يتناول الأهل والأقارب والأصدقاء كما عرفوا الرثاء السياسى : الذى يدور حول رثاء القتلى فى المعارك التى كانت تدور بين القبائل ورثاء زعماء القبائل وأشرافها، موضحاً الخصائص والسمات الفنية للرثاء فى العصر الجاهلى معتمداً على النماذج الشعرية التى نظمت فى رثاء العصر متعرضاً لها بالشرح والتحليل.

والفصل الثانى : خصصته للرثاء فى العصر الإسلامى والعصر الأموى، حيث تعرضت أولاً للرثاء فى عصر صدر الإسلام موضحاً أن شعراء العصر قد عرفوا الرثاء بقسميه : الاجتماعى : والسياسى، حيث راح الشعراء يرثون أبناءهم وآباءهم وأزواجهم وأهليهم فضلاً عن رثاء النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده وفضلاً عن رثاء الشهداء الذين سقطوا فى ساحات المعارك والحروب، وقد أظهرت أثر الإسلام فى شعر الرثاء، حيث خاطب الإسلام العقول فهداها والقلوب فرققها والعواطف فأرهفها فلم يعد الرثاء ضعفاً أو تعبيراً عن الضعف بل أصبح تعبيراً عن الوفاء والحب وقوة الإيمان وظهرت مبادىء الإسلام قوية راسخة فى أفكاره ومعانيه وصوره واصطبغ شعر الرثاء بوجه عام فى العصر الإسلامى بالصبغة الإسلامية، واتجه أسلوبه نحو الرقة والعذوبة والسلاسة، وقد وضحت ذلك باستخدام الأمثلة للتدليل متعرضاً لها بالشرح والنقد والتحليل. ثم بحثت عن شعر الرثاء فى العصر الأموى فوجدت الشعر الأموى قد عرف الرثاء بلونيه : الاجتماعى والسياسى كما رأيت شعر الرثاء قد انتشر انتشاراً واسعاً عما ذى قبل ذاكراً السبب فى ذلك متعرضاً لموضوعات الرثاء فى عصر بنى أمية مستخدماً الأمثلة الشعرية متعرضاً لموضوعات الرثاء فى عصر بنى أمية مستخدماً الأمثلة الشعرية متعرضاً لها بالشرح والنقد والتحليل مركزاً على أشهر وأروع قصائد الرثاء فى هذا العصر، موضحاً أن الرثاء السياسى قد بلغ حداً عظيماً فى هذا العصر مبيناً علة ذلك مثبتاً أن رثاء الشيعة لآل البيت كان رثاءاً حزيناً قاتماً ثائراً بسبب مالحق آل البيت من مآس وأهوال، وموضحاً أن رثاء الخوارج لقتلاهم كان من أروع شعر الرثاء فى ذلك العصر، كل ذلك موضحاً بالأمثلة الشعرية متعرضاً لها بالشرح والنقد والتحليل مبرزاً الخصائص الفنية التى ارتسمت فى شعر الرثاء فى هذا العصر .

ثم تحدثت بعد ذلك عن شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول: فوضحت شيوع الرثاء فى ذلك العصر وسبب ذلك ووجدت أن العصر العباسى قد نهض بشعر الرثاء نهوضاً ملحوظاً واحتل شعر الرثاء مرتبة متقدمة بين أغراض الشعر فى ذلك العصر .

ثم خصصت **الفصل الثالث** : للرثاء الإجتماعى فى العصر العباسى الأول وفصلت القول فيه وأبرزت ازدهار هذا اللون فى ذلك العصر والسبب فى هذا الازدهار ووجدت أن الرثاء الاجتماعى فى العصر العباسى قد تعددت وكثرت موضوعاته : من رثاء الأبناء ورثاء الآباء ورثاء الأمهات ورثاء الأخوة ورثاء الأزواج والزوجات ورثاء الجوارى ورثاء الأصدقاء ورثاء العلماء والأدباء ورثاء النفس والرثاء الجماعى ورثاء الشباب، وقد تعرضت لكل موضوع من هذه الموضوعات بالحديث المفصل والمنفصل ووضحت مظاهر القديم والجديد فيه مستخدماً الأمثلة الشعرية متعرضاً لها بالشرح والنقد والتحليل مبرزاً أهم ماطرأ عليها من مظاهر حضارة العصر العباسى وتقدمه موضحاً مسحة التقليد التى استمدها شعراء العصر من العصور السابقة وتأثروا بها فى مراثيهم سواء كان ذلك من حيث الأفكار والمعانى والصور والأخيلة أو الموضوعات .

وفى **الفصل الرابع** : تعرضت للرثاء السياسى فى العصر العباسى الأول، ووجدت شيوع هذا اللون من الرثاء فى ذلك العصر مبيناً علة ذلك، ثم فصلت الحديث عن أهم موضوعات الرثاء فى هذا اللون من الرثاء، فتعرضت لرثاء الخلفاء وفصلت القول فى ذلك ووضحت أهم السمات والخصائص الفنية له مبرزاً مظاهر القديم والجديد فيه، ثم تحدثت عن رثاء الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة موضحاً الخصائص الفنية لهذا الموضوع وجوانب التقليد والتجديد فى الأفكار والمعانى والصور والأخيلة معتمداً على النماذج

الشعرية متعرضاً لها بالشرح والنقد والتحليل آخذاً الموازنة بين شعراء العصر سبيلاً من سبل النقد والتحليل. ثم تحدثت بعد ذلك عن رثاء الشيعة لأئمتهم مفصلاً الحديث حول هذا الموضوع مظهراً الخصائص الخاصة التى امتاز بها شعر الرثاء للأئمة من آل البيت سواء كان ذلك من حيث الشكل أو المضمون مبرزاً مظاهر التقليد والتجديد فى ذلك مستخدماً الأمثلة الشعرية متعرضاً لها بالشرح والتحليل والموازنة .

والفصل الخامس : خصصته "لرثاء الدول والمدن" فى العصر العباسى الأول، وقد كان رثاء الدول الزائلة فى العصر العباسى الأول امتداداً لرثاء الدول الزائلة التى عرفها شعر الرثاء فى الأدب العربى القديم، فلم يكن رثاء الدول موضوعاً جديداً جد فى رثاء العباسيين، ثم أوضحت أن رثاء الدول الزائلة عند الأندلسيين كان أروع وأبدع من رثاء العباسيين موضحاً السبب فى ذلك .

ثم تحدثت عن رثاء المدن فى العصر العباسى الأول وأثبت أن هذا الموضوع من موضوعات الرثاء الجديدة التى ابتكرت فى العصر العباسى الأول مفنداً مزاعم القائلين بغير ذلك راداً عليهم آراءهم بالدليل والبرهان والحجة المقنعة مستخدماً الأمثلة والنماذج الشعرية متعرضاً لها بالشرح والنقد والتحليل موضحاً الخصائص التى تميز بها هذا الموضوع الجديد من الرثاء .

وفى الفصل السادس : تحدثت عن "رثاء الحيوانات والطيور" ويعد هذا الموضوع من موضوعات الرثاء المبتكرة والمستحدثة فى العصر العباسى الأول حيث لم يعرف من قبل وقد ذكرت السبب فى ذلك، ثم تعرضت لهذا الموضوع المبتكر معتمداً على النماذج الشعرية التى احتوته وضمتها فى ثناياها متعرضاً لها

بالشرح والتحليل والموازنة مبرزاً أهم السمات التى تميزت بها سواء كانت من حيث الشكل أو المضمون .

وفى الفصل السابع : تحدثت عن الخصائص الفنية لشعر الرثاء فى العصر العباسى الأول وتعرضت فيه لكثير من القضايا مثل : موضوعات الرثاء التى تناولها شعر الرثاء فى العصر العباسى والقديم والجديد منها وأثبت أن العصر العباسى قد سبق فى بعض الموضوعات مثل رثاء المدن ورثاء الحيوانات والطيور وغير ذلك من الموضوعات التى لم يعرفها شعراء العصور السابقة على العصر العباسى فضلاً عن وجود الموضوعات القديمة التى عرفت من قبل إلا أنها كانت أعم انتشاراً وأكثر ازدهاراً عن ذى قبل .

والبناء الفنى للقصيدة الرثائية، حيث اتخذت بناءاً متعدداً وأشكالاً مختلفة، وتنوعت بين : الطول والقصر وبين المقطوعة والقصيدة وبين القصيدة بالمقدمة والقصيدة الخالية من المقدمة التمهيدية إلا أن الغالب فى قصائد الرثاء فى ذلك العصر كانت بلا مقدمة تمهيدية وكانت قصائد مستقلة فى شعر الرثاء دون مشاركة غرض آخر معها ومع ذلك وجدنا بعضاً من القصائد التى جمع فيها الشعراء بين العزاء والتهنئة .

وقد عرفت القصيدة الرثائية الوحدة العضوية كما عرفت الوحدة الموضوعية ووضحت ذلك بالأدلة من النماذج الشعرية .

أما من حيث اللغة والأسلوب : فقد جاء أسلوب الرثاء ولغته أسلوباً قوياً تقليدياً محافظاً على سلامة اللغة ومتانتها وقوتها حيث يتلاءم ذلك مع شعر الرثاء، وقد استخدم شعراء العصر بعضاً من الألفاظ المعجمية والأعجمية فى رثائهم فضلاً عن وجود ألوان البديع فى أسلوب شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول إلا أنه لم يكن شائعاً منتشراً كبقية الأغراض الشعرية الأخرى فمجال الرثاء ليس مجال اللعب بالألفاظ وتصيد البديع وتكلفه .

ثم **تحدثت عن المعانى** وأظهرت مظاهر التقليد والتجديد فيها مبرزاً الكثير من المعانى الجديدة المبتكرة التى جاءت بها مخيلة شعراء العصر فى مراثيهم، هذا وقد اتسمت معانى شعر الرثاء بالدقة والوضوح والبعد عن التعقيد والالتواء .

ثم **تحدثت عن الخيال والتصوير** مبرزاً اعتماد الشعراء اعتماداً كبيراً على ألوان البيان : من تشبيه واستعارة وكناية فى تصوير صورهم وإبراز معانيهم، موضحاً مافيه من قديم تأثروا به من شعر السابقين ومن جديد مبتكر جاءت به مخيلتهم أو استمدوه من واقع حياتهم وحضارة عصرهم .

ثم تعرضت **للأوزان والقوافى** فوجدت الشعراء قد نظموا مراثيهم على الأوزان المعروفة فى الشعر العربى القديم ولم يخرجوا عليها أو يستحدثوا أوزاناً أخرى جديدة، وأنهم قد استخدموا البحور الطويلة فى معظم مراثيهم بجوار البحور القصيرة أو المجزوءة التى قلت فى مراثيهم، وقد نظم شعراء العصر على معظم حروف الهجاء قوافيهم مكثرين من القوافى السهلة الرائقة .

وبعـد .... فإنى لأرجو الله سبحانه وتعالى أن أكون قد وفقت فى بحثى والله المستعان وهو نعم المولى ونعم النصير .

دكتــور

عبد الهادى عبد النبى على

«أهم مصادر البحث»

١ - القرآن الكريم .
٢ - الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير، للأستاذ الدكتور : محمد رجب البيومي طبعة : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
٣ - الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، طبعة : دار الكتب المصرية .
٤ - الأوراق للصولي .
٥ - أبو نواس ، منشورات دار الشرق الجديد ببيروت، الطبعة الأولى عام ١٩٦٠ م .
٦ - إتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، للدكتور : محمد مصطفى هداره طبعة: دار المعارف بمصر عام ١٩٦٣م.
٧ - إتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، للدكتور : حسين بكار .
٨ - أثر التشيع في الأدب العربي، تأليف : محمد سيد كيلاني .
٩ - أدب السياسة في العصر الأموي ، للدكتور : أحمد الحوفي.
١٠ - أسرار البلاغة للإمام : عبد القاهر الجرجاني، تحقيق : الدكتور : محمد عبد المنعم خفاجي .
١١ - أعلام الكلام، لابن شرف القيرواني، الطبعة الأولى ، طبع : مطبعة النهضة بالقاهرة عام ١٩٢٦ م .
١٢ - بناء القصيدة في النقد العربي القديم، للدكتور : يوسف حسين بكار .
١٣ - تاريخ الإسلام السياسي والديني ، للدكتور : حسن إبراهيم حسن الطبعة التاسعة ، عام ١٩٧٩م .
١٤ - تاريخ الخلفاء، للسيوطي، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة، المطبعة التجارية بمصر عام ١٩٦٩م.

١٥ - تاريخ الطبرى، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة دار المعارف بمصر .
١٦ - تجريد الأغانى، لابن واصل الحموى، تحقيق : الدكتور طه حسين وإبراهيم الإبيارى، مطبعة مصر عام ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥م .
١٧ - التفسير النفسى للأدب ، للدكتور : عز الدين إسماعيل، الطبعة الرابعة مكتب غريب .
١٨ - جواهر الأدب ، لأحمد الهاشمى، الطبعة الثانية عشرة عام ١٣٣٨ هـ .
١٩ - حديث الأربعاء ، للدكتور : طه حسين .
٢٠ - الحياة الأدبية فى عصر بنى أمية ، للدكتور : محمد عبد المنعم خفاجى الطبعة الثانية ، عام ١٩٧٣م دار الكتاب اللبنانى ببيروت .
٢١ - الحيوان، للجاحظ، تحقيق : الدكتور : عبد السلام هارون، الطبعة الأولى، مطبعة الحلبى بالقاهرة عام ١٩٣٨م .
٢٢ - دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجانى، طبعة رشد رضا شركة الطباعة الفنية الحديثة بالقاهرة عام ١٩٦٠م .
٢٣ - ديوان أبي العتاهية .
٢٤ - ديوان أبى نواس ، طبع دار بيروت للطباعة والنشر ، عام ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م .
٢٥ - ديوان أبى تمام طبعة دار المعارف .
٢٦ - ديوان ابن الزيات .
٢٧ - ديوان ابن الرومى ، تحقيق : الدكتور : حسين نصار ، طبع : دار الكتب المصرية .
٢٨ - ديوان الإمام على بن أبى طالب ، تحقيق الدكتور : محمد عبد المنعم خفاجى طبعة : دار ابن زيدون ببيروت .

٢٩ - ديوان امرؤ القيس، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر الطبعة الرابعة .

٣٠ - ديوان البحترى ، تحقيق : حسن كامل الصيرفى، طبع : ار المعارف بمصر .

٣١ - ديوان بشار بن برد، تحقيق : الشيخ محمد الطاهر عاشور، الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية بالجزائر .

٣٢ - ديوان جرير ، تحقيق : محمد إسماعيل الصاوى، طبع : مكتبة الحياة ببيروت .

٣٣ - ديوان حسان بن ثاب ، تحقيق / سيد حنفى حسنين، طبع : دار المعارف بمصر .

٣٤ - ديوان الحماسة، للمرزوقى، تحقيق : أحمد أمين، وعبد السلام هارون الطبعة الأولى، لجنة التأليف والترجمة والنشر، عام ١٩٥١ م .

٣٥ - ديوان الخريمى، جمع وتحقيق : على جواد الطاهر ومحمد جبار المعبد طبع : دار الكتاب الجديد ببيروت، الطبعة الأولى، عام ١٩٧١م .

٣٦ - ديوان الخنساء، تحقيق الدكتور : إبراهيم عوضين، الطبعة الأولى مطبعة السعادة بالقاهرة عام ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

٣٧ - ديوان دعبل الخزاعى ، تحقيق / عبد الصاحب عمران الدخيلى، الطبعة الثانية عام ١٩٧٢م دار الكتاب اللبنانى ببيروت .

٣٨ - ديوان الشافعى، تحقيق/ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى، الطبعة الثانية، مكتبة الكليات الأزهرية، عام ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م .

٣٩ - ديوان عبد الله بن المعتز، تحقيق : د/ محمد بديع شريف ، طبع : دار المعارف بمصر .

٤٠ - ديوان العباسى بن الأحنف، طبع : دار صادر بيروت .

٤١ - ديوان عنترة، طبع : دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولى عام ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
٤٢ - ديوان الفرزدق، طبع : دار صادر بيروت .
٤٣ - ديوان النابغة الذبيانى، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع : دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية .
٤٤ - الرثاء "فنون الأدب العربى" للدكتور : شوقى ضيف ، الطبعة الثالثة طبع : دار المعارف بمصر .
٤٥ - زهر الآداب ، للحصرى ، تحقيق / على محمد البجاوى، الطبعة لثانية ، مطبعة الحلبى بالقاهرة .
٤٦ - شعر على بن جبلة، تحقيق/ الدكتور حسين عطوان، الطبعة الثالثة، طبع دار المعارف بمصر .
٤٧ - شعر مروان بن أبى حفصة، تحقيق / الدكتور حسين عطوان الطبعة الثالثة ، دار المعارف بمصر .
٤٨ - الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، للدكتور : شوقى ضيف دار المعارف بمصر .
٤٩ - الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق / الدكتور : مفيد قميته دار الكتب العلمية ببيروت .
٥٠ - صبح الأعش، للقلقشندى، طبع : المطبعة الأميرية بالقاهرة عام ١٣٣١ هـ - ١٩١٣ م .
٥١ - الصناعتين ، لأبى هلال العسكرى ، تحقيق د / مفيد قميحة الطبعة الثانية ، عام ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م، دار الكتب العلمية ببيروت .
٥٢ - الصورة الفنية فى شعر دعبل الخزاعى، للدكتور : على إبراهيم أبو زيد .
٥٣ - صورة المرأة فى الشعر العباسى ، للدكتور : على إبراهيم أبو زيد الطبعة الأولى عام ١٩٨٣م دار المعارف .

٥٤ - ضحى الإسلام، لأحمد أمين، الطبعة العاشرة، مكتبة النهضة المصرية .
٥٥ - طبقات الشعراء، لابن المعتز، تحقيق : عبد الستار أحمد فراج الطبعة الرابعة ، دار المعارف بمصر .
٥٦ - طبقات فحول الشعراء، لابن سلام، شرح الدكتور : محمود محمد شاكر، طبع : مطبعة المدنى .
٥٧ - ظهر الإسلام ، لأحمد أمين، الطبعة الخامسة عام ١٩٧٨م .
٥٨ - العصر الإسلامى، للدكتور : شوقى ضف ، الطبعة التاسعة دار المعارف بمصر .
٥٩ - العصر العباسى الأول ، للدكتور : شوقى ضيف ، دار المعارف بمصر .
٦٠ - العصر العباسى الثانى ، للدكتور : شوقى ضيف، دار المعارف بمصر .
٦١ - العقد الفريد ، لابن عبد ربه الأندلسى .
٦٢ - علم الأسلوب ، للدكتور : صلاح فضل .
٦٣ - العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيروانى تحقيق / محمد محى الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة، دار الجيل ببيروت عام ١٩٧٢م .
٦٤ - فجر الإسلام، لأحمد أمين .
٦٥ - فصول فى الشعر ونقده، للدكتور : شوقى ضف ، الطبعة الثانية دار المعارف بمصر .
٦٦ - فى الأدب الأندلسى، للدكتور : جودت الركابى، الطبعة الرابعة .
٦٧ - فى الشعر العباسى الرؤية والفن، للدكتور : عز الدين إسماعيل طبع : دار المعارف بمصر ، عام ١٩٨٠م .
٦٨ - الكامل ، للمبرد، تحقيق الدكتور : محمد أبو الفضل إبراهيم مطبعة : نهضة مصر .

٦٩ - لسان العرب ، لابن منظور، طبع : دار المعارف بمصر .
٧٠ - المثل السائر ، لابن الأثير ، تحقيق / الدكتور محمد محى الدين عبد الحميد مطبعة الحلبى بالقاهرة عام ١٩٣٩ م .
٧١ - مروج الذهب ، للمسعودى ، المطبعة البهية المصرية، عام ١٣٤٦ هـ .
٧٢ - معجم الأدباء، لياقوت الرومى .
٧٣ - معجم الشعراء، للإمام أبى عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية بيروت عام ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م .
٧٤ - المقارنة بين الشعر الأموى والعباسى فى العصر الأول، للدكتور : عزيز فهمى ، تحقيق / محمد قنديل البقلى، دار المعارف بمصر .
٧٥ - مقدمة ابن خلدون ، نشر الدكتور : عبد الواحد وافى، مطبعة البيان العربى بالقاهرة عام ١٩٧٦ هـ - ١٩٥٧م .
٧٦ - المنتخب من أدب العرب ، شرح لجنة من الأساتذة : أحمد الاسكندرى وأحمد أمين وعلى الجارم وعبد العزيز البشرى وأحمد ضيف المطبعة الأميرية بالقاهرة عام ١٩٥٢ م .
٧٧ - منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لحازم القرطاجنى، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية بتونس عام ١٩٦٦م .
٧٨ - نزهة الجلساء فى أشعار النساء، للسيوطى، تحقيق/ عبد اللطيف عاشور، طبع : مكتبة القرآن بالقاهرة .
٧٩ - نقد الشعر . لقدامة بن جعفر ، تحقيق / كمال مصطفى، الطبعة الثالثة، مكتبة الخانجى بالقاهرة .
٨٠ - النقد المنهجى عند العرب، للدكتور : محمد مندور ، طبع : دار نهضة مصر للطبع والنشر بالقاهرة .

٨١ - نهاية الأرب فى فنون الأدب، للنويرى ، الجزء الخامس، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية .
٨٢ - وفيات الأعيان لابن خلكان .

«الفهـــرس»

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ١٩٩٠/٥٩٤٤
الترقيم الدولى : 0538 - 00 - 977